حركة العدل والمساواه

أسرار معارك حركة العدل والمساواة

تأليف

عبدالله عثمان التوم

مكتبة جزيرة الورد

حركة العدل والمساواة

أسرارُ معارك حركة العدل والمُساواة

تأليف: د. عبدالله عثمان التوم

ترجمة: صلاح شعيب

الطبعة الأولى: أبريل ٢٠١٨

لوحة الغلاف:

الفنان: سامح الكاشف

الطابعون:



رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٩٣٨١م

دار الكتب والوثائق القومية - ج.م.ع.

الترقيم الدولي:

٩٧٨-٩٧٧-٨٣٤-٠٨٤-٦

أسرارُ مَعَارِك حَرَكَة العَدلِ والمُسَاوَاة

د. عبدالله عثمان التوم

أسرارُ معَارِك حَرَكَة العَدل والمُساوَاة

تأليف: د. عبدالله عثمان التوم

ترجمة: صلاح شعيب

الطبعة الأولى

صدر الكتاب باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٣ بعنوان:
Study: War No More
Military Tactics of Sudanese Rebel Movement
The Case of JEM
Dr. Abdullahi Osman El-Tom

Published in English by:
The Red Sea Press
٥٤١ West Ingham Avenue
Trenton, New Jersey, USA

تكريس

هذا الجَّهدُ مُكرَّسٌ وَفَاءً لرُوحِ المُناضِلْ الشَّهيد:

"الدُكتُور/ خَلِيلْ إبرَاهِيمْ محُمَّدْ"

وكذا لزُمَلائِهِ الَّذين قدَّموا أرواحَهُم للقَضِيَّة.. جمَّالي حَسَن جَلال الدِّين، عَبدَالله أبَّكر، أبو إبراهيم رنَّات، طاهِر بَدَوِي حَجَر، أزهَري فَاشِر، حسين عَقِيد، أتاك دِينق، أبوبَكر إبراهيم، عُمَر سَانسِيس، ومُحمَّد حَسَن.

المؤلِف

شكرٌ وعرفان

بادئ ذي بدء، ينبغي القول أن هذا الكتاب إنما هو نتاج تعاونٍ لكثير من الإخوة والأخوات، الذين أنكروا ذواتهم في سبيل أن يرى النور. ولهذا سيظلَّ معظمُهُم بغير كشفٍ عن اسمه. ولعلي أرى أن ذلك الإسهام العظيم لهؤلاء الناس الكُثُر في وصول الكتاب إلى قارئه يؤكِّد حقيقة أنهم دفعوا معرفتي الأوليَّة المتواضعة بالموضوع إلى مستوى عالٍ من العُمق فيه، مثمرٌ بالكثير من المعارف، وكذلك مُعمَّقٌ بالوقائع التي تضمُّها دفَّتا الكتاب.

حقيقة يجب عليَّ الاعتراف أنني لم أحمل يوماً أي كلاشينكوف في يدي. بل إنني لا أكاد أستطيع، حقاً، التمييز بينه وبندقية "جيم ثري". وباستثناء ما قرأتُ ما هُو مكتوبٌ على سطح هذين النوعين من السلاح، فإني لا أقوى على كثير تمييزٍ إزاء أدوات الحرب هذه.

إنني بقدر ما أعترف أيضاً بجهلي هذا عن أمور الحرب، وأدواتها، أُعربُ عن مدى امتناني وتقديري لِسِتَّةٍ من قادة الحركة، الذين أَجريتُ معهم مقابلاتٍ بشأن مادَّة هذا الكتاب. لقد كان هؤلاء الإخوة صبورين عند مُلاحقتي لهُم لسبر غور الحقائق، ولقد عملوا، شاكرين، من الجانب الآخر على نُصحِي للغَوْصِ وراء أبجديَّات القتال، وتوجيه الأسئلة الصحيحة في هذا الأمر.

لقد جاءت فكرة إصدار هذا الكتاب من المناضل الشهيد الدكتور خليل إبراهيم، خلال مقابلة معه سبقت التفكير في التأريخ لأمر الحركة التي أنشأها. آنذاك، أذكرُ أَنني أَسْرَرْتُ للشهيد عن انبهاري بالطريقة التي وظَّفت خلالها الحركة المقاومة العسكريَّة إلى أقصى حدودها، ما جعلها تضاعف انتصاراتها على الجيش بين معركة وأخرى. هذا برغم أن وضع الجيش كان أفضل في امتلاك الدَّعم اللوجستي لخوض الحرب. كان ردَّ زعيم الحركة الفوري بعد انتهاء حديثي بقوله: **«ادرِس هذا الأمر وسوف تجد الحقيقة وراء ذلك»**. وهكذا تمثلت النتيجة في هذا الكتاب. وللأسف أنه لم يتسنَّ للرَّاحِلِ متابعته ليقرأه.

إن الشكر لابُدَّ أن يُسدى إلى شخصٍ آخر أسهم بجهدٍ في هذا العمل أكثر من أي شخص آخر ورد اسمه في هذا التقدير، وهي دينيس اردمان والتي بشقِّ الأنفُس استعرضت، عدَّة مرَّات، المُسودَّات الأولى من هذا الكتاب، ولهذا أسمحوا لي أن أصرِّح بأنني في غاية الامتنان لها، لصبرها، وكفاءتها، ومهنيَّتها.

فضلاً عن كل ما تقدَّم من شُكرٍ، تجدني ممتناً أيضاً لقادة الحركة السِتَّة، الذين أوردتُ إفاداتهم في هذا الكتاب. وفي حين أنني أتقدَّم لهُم بالشُّكر، أقدِّم اعتذاري الصَّادق لانتقائي أجزاءً من إفاداتهم في هذا السِّفر، حيث أنني لم أكُن قادراً على إعادة إنتاج كاملها. ويجب أن أضيف هُنا المسئولين الآخرين من الحركة، الذين ساهموا في هذا الكتاب بمستويات مختلفة.

إن قائمة التقدير والعرفان طويلة، لكني أقتصرها على بُشارة سليمان، سليمان جاموس، جمال بحرالدين، إدريس لُقمة، سيف الدولة كوكو، أحمد حسين آدم، محمود سليمان أبَّكر، وزكريَّا محمد علي.

الشُكرُ أيضاً أبذله للبروفيسور كورت بيك من جامعة بايرويت، والبروفيسورة لاري تايلور من جامعة أيرلندا الوطنيَّة، والبروفيسور توماس فيليتز من جامعة فيينا، والدكتور سيامس أوسيوجين، وجاكيت بلوربس.. الشكر أيضاً مستحقٌ للقائد أدريان جاكوبس من القوَّات الأيرلنديَّة لتدريسي التنظيم الهيكلي للجيوش الحديثة.

إن عملاً كهذا لا يمكن أن يكتمل دون الدَّعم المؤسَّسي. فأنا مدينٌ لجامعة أيرلندا الوطنيَّة لمنحتها، وأوجِّه الشُكر خصوصاً لقسم الأنثروبولوجيا في الجامعة، والذي ساعدت مصادره في إنتاج هذا العمل.

إن الحركة تستحق الشُكر هنا أيضاً لتوفير بعض الدعم العيني، ومنحي الفرصة خلال محادثات السلام والتي كنتُ مشاركاً فيها.

وأخيراً، أود أن أعلن شُكري لعائلتي، شيلا باور، ونادية التوم لتفهُّمِهم ودعمهم لهذا العمل في جميع مراحله. إنهم تحمَّلوا غيابي المُطوَّل عنهم، وانشغالاتي بالمكالمات الهاتفية المتواصلة، والتي غالباً ما تتم طوال ساعات اليوم.

عبدالله عثمان التوم

دبلن – أيرلندا: مارس ٢٠١٢

تراث الشهيد الدكتور خليل إبراهيم

(الزعيم السابق للعدل والمساواة)

مرَّ عامٌ منذ أن اغتيل "الدكتور خليل إبراهيم مَحمَّد". ولكننا لا نتخذ هذه المناسبة للحُزن على فقده، فالأبطال لا يموتون. إن إرثهم الباقي يتجاوز وجودهم المادي، والذي تركه هؤلاء الأبطال من سيرة طيِّبة خلفهم، سيُنير الطريق للأجيال القادمة.. فكلماتنا لا تُعنى إلا بالاحتفال بإنجازات "الدكتور خليل" وشرف التضحية الكُبرى التي قدَّمها من أجل سودانٍ أفضل.. سودانٍ يصلُح للعيش فيه، وشاملٌ، ومستوعِب للجميع، بلا تمييز إثنيٍ، أو جندري، أو أيديولوجي.

لقد جاء اغتيال "د. خليل" بينما كان نائماً في فجر الثالث والعشرين من ديسمبر ٢٠١١. فالصواريخ التي صُوِّبَت نحو مكان نومه من مقاتلاتٍ عسكريَّة تميَّزت بالدقَّة، ما جعل الكثير من الناس يتكهَّن بأن حكومة الخرطوم لم تكُن لتملك هذه القُدرات العسكريَّة لاغتيال "الدكتور خليل إبراهيم". فقادة تنظيم العَدْلِ والمُساوَاة وعدد من المحللين كانوا قد أشاروا، حالاً، بعد الحادثة، إلى تورُّط بلدانٍ في هذه العمليَّة العسكريَّة الدقيقة التنفيذ. وتزامن مع فترة كِتابة مادة هذا الكتاب دليلٌ قوي على ضلوع أطراف في حادثة الاغتيال. فالحكومة قد تورَّطت في شرك "حرب المُذكِّرات" كما سمَّته وسائل الإعلام السودانيَّة، والتي رفعها آلاف من الإسلاميين، ونحو سبعمائة من كبار ضُبَّاط

الجيش. وقد حوت هذه المُذكِّرات مطالباتٍ بالإصلاح والتعامُل الفوريين مع قضايا البلاد المُلِحَّة.

كانت المذكرة المُقدَّمة من الضُبَّاط قد أشارت، هي نفسها كذلك، إلى أنَّ اغتيال "الدكتور خليل" لم يكُن عملاً من تدبير الجيش. وضمن ما جاء في المذكرة، أن: **«القوَّات المسلَّحة رغم خوضها حروبا ضد التمرُّد داخل البلاد لكنها تجهل تحرُّكات وعمليَّات تُنفَّذ داخل البلاد، مثل عمليَّة اغتيال الدكتور خليل إبراهيم. وتجهل أيضا الجهة التي نفَّذتها، وما هو دور السُّلطة السياسي في ذلك العمل»**.

ومع إدلاء وزير الدفاع والمتحدِّث الرسمي باسم القوَّات المسلَّحة السودانيَّة بتصريحاتٍ متناقضة عن الحادث، أضافت الحكومة ذاتها رَبكَةً في إعلام الرأي العام بشأن عمليَّة الاغتيال. فقد تنصَّلت، لاحقاً، من تصريحات النافذين فيها في وقتٍ مُبكِّر، والتي فحواها أن مقتل "الدكتور خليل" قد تمَّ خلال اشتباكاتٍ عسكريَّة، وبالتالي استقرَّ رأيها الأخير بأن عمليَّة ضربة جويَّة هي التي سبَّبت حادثة الاغتيال، كما رأت الحركة.

مع كل ذلك، يبقى أن التضحية البطوليَّة للدكتور خليل كانت لحظة مروِّعة بحق في تاريخ السُّودان. وربَّما لم يماثل ألم اغتيال الدكتور خليل سوى الألم الذي رزحت فيه البلاد حين فقدت اثنين من أبرز الشخصيَّات في تاريخها الحديث.

كان الفقد الأوَّل قد تمثل في الإمام محمد أحمد المهدي، الذي توفي بالكاد بعد خمسة أشهر من سقوط الخرطوم في عام ١٨٨٥. لقد كانت خسارته المبكِّرة مأسويَّة بالنسبة لأنصاره، وهكذا أذعنوا لغيابه المُؤسف بطريقةٍ فريدة من نوعها للغاية. فقد حسب المهدويون زعيمهم بأنه كان يملك نوعاً من المناعة إزاء الموت حتى. وإذا جاز التعبير، فإن رحيل المهدي كان مثل الرحيل الذي يتوق إليه أنصاره المستشهدون. إنه الرحيل أوان زمنٍ مختلف، وهو ذات الزمن المحكوم بمنطق الاختلاف.

أما الفقد الثاني فتمثل في رحيل "الدكتور جون قرنق" عام ٢٠٠٥. فقد كان يُنظر ُإليه بوصفه المُنقذ للسُّودان من الهاوية التي أحدثتها صفوة البلاد. كان قرنق قد بدا أنه الأمل الوحيد في الحفاظ على السُّودان مُوحَّداً بعد أن جدَّد فكر البلاد السياسي بواسطة مفهوم "السودان الجديد". لقد ألهم الدكتور قرنق جيلاً كاملاً من القيادات الشابَّة، وكان من بينهم الدكتور خليل، والذي عاش حلم "السودان الجديد" إلى آخر لحظة من وفاته.

لكُلِّ تلك الأسباب، جاءت وفاة "الدكتور خليل" في زمنٍ مِفصَلي، حوَّلت فيه العولمة كوكبنا الواسع إلى قرية عالميَّةً صغيرة. فوفاته برهنت على أنه لم يتلق قائد سوداني راحل مثل هذا الحداد العالمي. إنه الحداد الوطني الكبير الحاشد في سيدني، ونيويورك، وزيوريخ، وكيب تاون. مشاهد إنسانيَّة تمَّ عبرها توظيف القاعات العامَّة لتلقي العزاء الدافق، وقراءة سُوَرٍ من القرآن الكريم لروح الراحل.

بينما كنتُ منهمكاً في كتابة هذه الفصول، امتلأت مواقع الإنترنت بدعواتٍ إلى الاحتفال بالذكرى الأربعين لفقده. ومرَّة ثانية، اجتمع المئات في الأماكن العامَّة في جميع أنحاء العالم لتأبين "الدكتور خليل" مرَّة أخرى. وقرأوا، في ذات الوقت الذي قرأت فيه عشيرته في بلدة "الطينة" في شمال دارفور، ما تيسَّر من الآي الحكيم، مجسِّدين بذلك التقاليد السودانيَّة عند تأبين الأهل والأحباب من الراحلين.

مع ذلك، لم يُمثل فُقدان "الدكتور خليل" شيئاً لكثيرين. فالأبطال المُبصِرون يحصدون دائماً مُكرَ الأعداء. ولذلك لم يكُن الدكتور خليل استثناءً. فقد احتفلت العُصبة الحاكمة وأنصارها بوفاته عبر تقليدٍ شاذ. لقد انضمَّت إلى محفلهم نساؤهُم بوَلوَلَتِهِنَّ التقليديَّة. وتجاوزت قوَّات الأمن الحكوميَّة الأعراف السودانيَّة المعتادة، وهاجمت المُعزِّين في منزل عائلة

الدكتور خليل بالغاز المُسيل للدموع، والهراوات، ومُنِعَ البعض من الوصول إلى المنزل لتقديم العزاء في مدينة الخرطوم.

في الواقع، إن ردَّة فعل حزب المؤتمر الوطني لوفاة "الدكتور خليل" أشارت إلى القلق المعهود وسط سياسيي النظام من "الحركة". وباغتيال "الدكتور خليل"، انغلق الباب تماماً أمام أي إمكانيَّة للتوفيق بين العُصبة الحاكمة و"الحركة"، وكذلك بينها وحركات دارفور المسلَّحة.

لقد أثبت قادة حزب المؤتمر الوطني في بعض النواحي مرَّة أخرى أنهم طلاب سيئون في التاريخ. فهُم لا يدركون أن أصحاب البصيرة من الأبطال لا يموتون. إن بصيرتهم ورؤيتهم دائماً تبقى راسخةً وسط من يُؤيِّدون خَطَّهُم السياسي، بل وتزداد توهُّجاً عند أجيال المستقبل. والتاريخ حافلٌ بالأمثلة. فهناك مارتن لوثر كينج في الولايات المتحدة الأمريكيَّة، والذي قُتل عام ١٩٦٨، وستيف بيكو في جنوب أفريقيا، والذي قُتل في عام ١٩٧٧، والمهاتما غاندي في الهند، ١٩٤٨، وفريد رويجيما في رُواندا الذي قضى نحبه عام ١٩٩٠، وغيرهم كثيرون.

من بين جميع هؤلاء القادة الذين قُتلوا، يُمثِّل رويجيما درساً في التاريخ تقشعِرُّ له أبدان قادة المؤتمر الوطني في حال استيعابهم له. لقد قُتِلَ رويجيما يوم أن قادت الجبهة الوطنيَّة الرُواندية نضالها ضد الإبادة الجماعيَّة التي أوجدها الهوتو في رواندا ضدَّ أقليَّة التوتسي. لم يكن رويجيما مجرَّد قائدٍ عسكري.. كان بحق زعيماً فذاً، صاحب رؤية ألهم بها شعبه للحلم برواندا جديدة، إذ فيها يمكن أن يعيش الكُل، وأن يتعايشوا بشرفٍ، وكرامة، وبفُرصٍ متكافئة. وبطبيعة الحال، فإن أعضاء الجبهة الوطنيَّة الروانديَّة أحبطوا نفسياً أثناء سماع أعدائهم وهُم ينشدون لهُم لحن الموت. والباقي من القصة هُو ذات التاريخ الذي كُتِبَ بمدادٍ من دم. ولكن مثل طائر الفينيق،

نهضت الجبهة الوطنية الرواندية من كوم الرماد وحققت مشروع رويجيما الوطني.

لقد فرح كبار المسئولين في حكومة الخرطوم بالخسائر الفادحة التي مُنِيَت بها الحركة التي تقاوم نهجهم، وكان الرئيس البشير نفسه وراء المشهد. ومثل كُلِّ الطغاة، رأى البشير نفسه بأنه من الصالحين الذين يستحقون المساعدة ورحمة السماء على حساب خصومه. ولذلك وصف وفاة الدكتور خليل بأنها **«التدخُّل الإلهي»** في الانتقام لوقوفه ضد النظام الذي حقَّق شريعة الله في المنطقة. وكانت الرسالة التي أرادوا تبليغها، هي أنهم تمكَّنوا من القضاء على الحركة بعد قطع رأس زعيمها، بل أرادوا القول إن التمرُّد قد تفكَّك تماماً.

في الواقع، أفرز اغتيال الدكتور خليل تحدياً هائلاً للحركة، مختبراً نُضجِها كمؤسَّسة وقُدرتها على البقاء على قيد الحياة، برغم حجم الخسارة. لقد لاحت الصعوبة، كما لو أنها كانت حتميَّة أمام الحركة لاجتياز الاختبار. فالأستاذ جبريل آدم بلال، المتحدِّث باسم الحركة أصدرَ بياناً في الخامس والعشرين من ديسمبر ٢٠١١، مؤكداً خبر الاغتيال، أي بعد يومين من الحادث. ولقد تمَّ تأخير إصدار البيان بالنظر إلى ضخامة هذا الحَدَث. فقوَّات الحركة متناثرة على أرضٍ واسعة في عدَّة مناطق، وكثير منها لا يملك وسيلة للوصول إلى الإعلام. ومن أجل احتواء الغضب، وعدم تثبيط الهمَّة، واستباقاً لعمليات انتقاميَّة لا مُبرِّر لها، كان لا بُدَّ من إطلاع الجنود على فُقدان قائدهم بطريقة حكيمة. أما الأستاذ أحمد حسين آدم، فأبدى مهارته في مواجهة موجة العداء للدكتور خليل بعد وفاته، والتي أنتجتها وسائل الإعلام السودانيَّة، من جهة، ومثيلاتها العربيَّة التي تقودها قناة 'الجزيرة'، من الجهة الأخرى.

على الرغم من أن الصَّدمة كانت كبيرة، فان الخسارة المأساويَّة لدكتور خليل قد جلبت أيضاً إلى سطح التجربة أفضل

ما في الحركة من مهارة سياسيَّة وتنظيميَّة. فخلال كُل سنوات عملي في الحركة، لم يسبق لي أن رأيت أعضاء الحركة، وخاصة من هُم في المجلس التنفيذي متَّحدين وراء القضيَّة مثلما وحَّدهم هذا المصاب الجلل.

فوفقاً لدستور الحركة، فإن الدكتور الطاهر الفكي، رئيس المجلس التشريعي، مارس صلاحياته على الفور كرئيس مؤقَّت للتنظيم. كما أن الدستور ينص على أن يكون هناك بديلٌ للرئيس في حال خُلُوِّ منصبه، بحيث يختاره المؤتمر العام للحركة في فترة لا تزيد عن ستين يوماً. وكما هو مُؤمل، فإن الفكي تمكَّن في توجيه الحركة من خلال أيامها الصعبة بكياسة مذهلة. ولقد عاونه أعضاء الحركة المنتشرين في كل أنحاء العالم، وكذلك في مناطق الحرب في السُّودان، والذين كان التحدي كبيراً بالنسبة لهُم من أجل انعقاد المؤتمر العام.

أخيراً تمَّ الاتفاق على مكانٍ وموعدٍ لعقد المؤتمر يومي الرابع والخامس والعشرين من يناير ٢٠١٢، أي بالضبط بعد شهرٍ من اغتيال زعيم الحركة. وقد كان، حيث عقدت الجمعيَّة العامة في إطار ترتيبات أمنيَّة غير مسبوقة في منطقة "هديات" في جنوب كُردُفان. وكان شعار المؤتمر: **«معاً سنحقق مشروع الشهيد»**، الذي تمَّ التداوُل حوله بما يليق بهذه المُهمَّة التاريخيَّة.

صحيح أنَّ المؤتمر ناقش عدَّة قضايا تمَّ التوصل إلى قراراتٍ هامَّة بشأنها، ولكن في الوقت نفسه، قاد هذا النقاش الجاد إلى انتخاب رئيس جديد للحركة. فوفقاً لدستور الحركة، فإن اختيار الرئيس الجديد يُعهَدُ به إلى الجمعيَّة العامَّة وليس المجلس التشريعي.

على هذا النحو، فإن الدكتور الطاهر الفكي الذي كان رئيساً بالوكالة بحُكم رئاسته للمجلس التشريعي كان قد تنحَّي لرئيس المؤتمر العام، الأستاذ أبوبكر القاضي، لرئاسة الجلسات. وما كان يؤسف له أن القاضي رئيس المؤتمر العام للحركة

متوجِّبٌ عليه، آنذاك، العودة إلى استئناف عمله في دولة قطر بعد يوم أو يومين قبل بدء المؤتمر. ولذلك ترأس نائبه البروفيسور محمود أبَّكر سليمان الجلسات.

لقد كان بحق لقاءً غير عادي، مع صعود وهبوط أنفاس المؤتمرين عند محكَّات الانتخاب. وقد شارك في المؤتمر مئة وتسعة من الأعضاء، بالإضافة إلى مشاركة وفود مراقبة من مجموعة "الجبهة الثوريَّة السودانيَّة"، والمعروفة بمصطلح "كاودا". ولكن هذا لم يكن كل شيء. فبالإضافة إلى حضور المؤتمر، هناك ثلاث عشرة دائرة انتخابيَّة أخرى كانت تنشط في اجتماعاتٍ تخوض جنباً إلى جنبٍ في قضايا الحركة، بما في ذلك ثلاثة اجتماعات لقوَّات الحركة في مواقع أخرى. وكذلك كان هناك النازحون داخلياً، واللاجئون في المناطق الأخرى يتداولون في الأمر. وأخيراً رسا سباق الترشيح للرئاسة على أربعة فرسان:

١- سليمان جاموس، الأمين العام للشئون الإنسانيَّة في الحركة، وجاموس هو أحد قادة المقاومة والقائد الزغاوي المخضرم الذي انتقل إلى الحركة من حركة تحرير السُّودان.
٢- الفريق الركن أحمد آدم بخيت، مسئول الحركة في دارفور ونائب رئيس الحركة. إن خلفية بخيت لا بُدَّ أنها قد أتت من مجموعة برتي أم كدَّادة، شمال دارفور.
٣- الجنرال محمد بلال زيد، ويأتي من مجموعة الحمر العرقيَّة من كُردُفان، وهو الأمين العام للحركة في دارفور الشماليَّة، ونائب رئيس الحركة.
٤- الدكتور جبريل إبراهيم محمد، أمين الشئون الخارجيَّة في الحركة وشقيق د. خليل.

وتجدُر الإشارة إلى أن أسماء أخرى كانت تلوح في أفق التنافُس في وقتٍ سابق، ولكن لم تنجح في الوصول إلى منصَّة الترشيح. وفي حين كان كل واحد من المُرشَّحين لقيادة الحركة

له ما يكفي ليكون أهلاً للمسئولية، بَيْدَ أنه لم يكُن من بينهم من يستطيع مطابقة الملف الشخصي الذي عبَّر عن كاريزما د. خليل. تلك الكاريزما التي تمتع بها ومكانته المميَّزة وسط أقرانه القادة. ولكن التاريخ مليء بخُلفاء تفوَّقوا في وراثة أسلافهم الذين كان الشك يساور الناس في تعويضهم.

لقد قُتل القائد رويجيما بعد أيام من أطلاق الجبهة الوطنية الرواندية هجومها لإنقاذ بلاده من إبادة جماعيَّة وشيكة. كانت خسارته مدمِّرة حتى إلى حدِّ أن العديد توقع انهياراً كاملاً للجبهة الوطنية الروانديَّة. خليفته، بول كاغامي، صعد في وقت لاحق، ونجح في استعادة السلام والتعايُش في أعقاب أسوأ جرائم الإبادة الجماعيَّة في التاريخ الحديث لأفريقيا.

يجدُرُ القول إنه خلال حرب الاستقلال الأيرلنديَّة ١٩١٩- ١٩٢١ اعتبر مايكل كولينز زعيماً عملاقاً ورئيساً بلا جدال لأيرلندا في المستقبل. وكان كولينز قد عزَّز مكانته من قبل بأدوار هائلة، قائداً للقوَّات المسلَّحة ورئيساً لجماعة الإخوان الجمهوريين الايرلنديَّة. لم يبق كولينز على قيد الحياة ليشهد استقلال بلاده، إذ كان اغتياله في عام ١٩٢٠. بعدها خلفه دي فاليرا ببعض الجدل حول إمكانيَّة ملئ فراغ غياب كولينز. ورغم ذلك الجدل، سيطر فاليرا على السياسة الأيرلنديَّة لخمسة عقود.

لكن دعونا نعود إلى مؤتمر الحركة. فوفقاً للأستاذ سليمان ما كان للاجتماع أن يتمخَّض بأفضل مما تمخَّض به. فالترشيحات تمَّت بطريقة منظمة، رُوعِيَ فيها المؤسَّسية التي تضبط مثل هذه المؤتمرات. وليس هناك كلمة لوصفٍ أفضل من القول إن هذه العمليَّة الدستوريَّة التي اتخذتها الحركة عقب اغتيال زعيمها كانت مهيبة، ومنضبطة. فالجميع كان يعلم جيداً الأهميَّة البالغة لنتائج الاجتماع بالنسبة للحركة، والمُهمَّشين في السُّودان، فضلاً عن المنطقة بتشكلاتها الجيوسياسيَّة بشكلٍ عام.

لجعل الأمور أسوأ، كان هناك توترٌ يتفاقم بواسطة حدَّة الضوضاء المُتقطِّعة ولكنها أيضاً المسموعة من مسافة بعيدة. كان مصدر ذلك التوتر هو ضجيج طائرات حكومة الخرطوم من طراز "أنتينوف"، والتي تقوم بجولاتها اليوميَّة لإسقاط القنابل من علٍ لتحُطَّ على رُؤُوس المدنيين الأبرياء في المنطقة المجاورة.

لا شكَّ أن مخابرات الخرطوم كانت تعرف أن المؤتمرين يتداولون في مكانٍ ما في محليَّة "هديات" في جنوب كُردُفان. بل وكانوا يأملون أن يواتيهم الحظ لضربهم حتى تنمحي قيادة الحركة كلها دفعة واحدة. غير أن أصوات القاذفات من طراز أنتونوف لم تكن لتمثل أي تهديد مباشر لعزم المؤتمرين، ولكنهم كانوا ينزعجون فقط لطنينها الذي يُفسد الجدل حول الشئون التي بحثتها عضوية المؤتمر.

بمجرد أن جاءت لحظة التداول طلب أول ثلاثة مرشحين: (بخيت، جاموس، وزيد)، فرصاً لمخاطبة المؤتمرين. غير أنهم الواحد تلو الآخر أعلنوا سحب ترشيحاتهم، وأكدوا تأييدهم اللامتناهي لرئاسة الدكتور جبريل للحركة، وسط تصفيقٍ حاد. ولما تكاثف التصفيق، ارتفع صوت رئيس المؤتمر البروفيسور سليمان لقطع الهرج والمرج.

أثني الرئيس أولاً على الروح الإيجابية التي بدت تلوح فوق فضاء المؤتمر، ثم أعلن أنه سابقٌ لأوانه إعلان الفرحة بتنصيب الرئيس الجديد في وقتٍ يتعيَّن على الدوائر الأخرى للمؤتمر من الحركة، الذين لم يكونوا حاضرين في الجلسة إقرارهم بالنتيجة. وهكذا قد مرَّت عدَّة ساعات قبل التصديق الكامل لإعلان الرئيس المنتخب وتعميم خبره عن طريق الهاتف.

جبريل، مثل معظم الناس في دارفور من أبناء جيله، لم يكُن لديه تاريخ ميلادٍ مضبوط. فشهادة ميلاده وفقاً للتقديرات الطبيَّة تشير إلى أنه وُلِدَ في الأوَّل من يناير ١٩٥٥، وهذا

التاريخ يجعله أصغر بسنتين أو ثلاث سنوات من أخيه الراحل الدكتور خليل.

ومثلما يعلم الكثيرون، أن د. جبريل سافر بعد تخرُّجه في جامعة الخرطوم العام ١٩٧٩ إلى اليابان لمزيدٍ من الدراسات، وفي وقتٍ لاحق حصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة طوكيو عام ١٩٨٧.

كان الدكتور جبريل جديداً نسبياً في التورُّط في أتون القيادة السياسيَّة آنذاك. فمثل كثيرين منا، اضطرَّ لتشكيل موقف من النزاع الحالي في دارفور. وقبل ذلك، كان من المعروف أن الدكتور جبريل عمل أستاذاً جامعياً ورجل أعمال، حيث درَّس الاقتصاد في جامعة الإمام سعود في المملكة العربيَّة السعوديَّة لفترةٍ من الوقت قبل العودة إلى السُّودان في العام ١٩٩٢. وأثناء وجوده في السُّودان، عمل الدكتور جبريل مديراً لبضع شركاتٍ تملكها الحكومة مع القطاع الخاص حتى عام ٢٠٠٠، وهو تاريخ ذهابه إلى المنفى في تشاد ودُبَي. وفي وقتٍ لاحق، أسَّس شركة للشحن الجوي خاصَّة به. وفي ذروة الحرب في دارفور في عام ٢٠٠٥، طلبت الحكومة السودانية إعادة الدكتور ورجال الأعمال الذين ينتمون إلى دارفور إلى السُّودان. ونتيجة لذلك، فقد الدكتور جبريل عمله وانتقل إلى المملكة المتحدة.

حركة العَدلِ والمُساوَاة
وفُنُون الحَرب في السُّودان..

أسباب دراسة الحرب؟!

«الظلم الاجتماعي مثل الدمامل المُغطاة التي لا يمكن إطلاقاً أن تشفى ما دُمنا نتستر عليها. ولكن يجب فتحها بكل قُبحِها لتجد الهواء والضوء، ومن ثمَّ يتيسر العلاج.. وهكذا يكون الأمر مع الظلم.. فعلينا أن نطرح مسألته، مع ما يرافق ذلك من صراحة موجعة، تحت أضواء المعرفة الإنسانيَّة، والجدل الوطني، حتى نعالجه»..

مارتن لوثر كينج

هذا الكتاب يُقدِّم للقارئ عالماً من القادة العسكريين للحركة السودانيَّة، والمعروفة اختصاراً بـ"جيم - JEM". وهذا الكتاب يركِّز على وجه الخصوص على خُطط المعارك والمناورات العسكريَّة، وتنظيم الجيش، والاستراتيجيَّات التي تنتهجها الحركة في كفاحها ضد حكومة الخرطوم. أسارعُ إلى القول إن الحركة ارتبطت في المُخيِّلة العامَّة بدارفور، حيث تضطرب المنطقة بالأحداث التي أقلقت مضاجع العالم. غير أن الاعتماد على هذا الرابط يمثل فهماً خاطئاً ومؤسفاً لأمر الحركة، وما ترمُز إليه.

صحيح أنه لا يوجد هناك شكٌّ في أن دارفور قد دخلت المعجم الدولي من خلال بؤرة جرائم الحرب، والقُرى التي

أُحرقت، والاغتصاب الجماعي، والإبادة الجماعيَّة. ففي بداية الصراع في دارفور، وصف الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي عنان بأنَّ المنطقة تعيش أسوأ كارثة إنسانيَّة في العالم، وفي أتون هذا الواقع، نشأت الحركة، لتنبيه الرأي العام بما يجري في دارفور، وبالتالي جاء الرَّبط المُؤسف بدارفور فحسب، دون سائر البلاد.

مع ذلك، فالحقيقة هي أن الحركة مؤسَّسة وطنيَّة، ويتم رسم سياساتها بواسطة كبار زُعمائها في كل منطقة من البلاد. وعزَّزت الحركة البُعدُ القومي في برامجها السياسيَّة. ولكن أكثر من ذلك بكثير، عزَّزته بتاريخها العسكري. فإلى الآن، فإن مقاتلي الحركة يفتخرون بأنهم ناضلوا لأجل كل منطقة تقريباً في السُّودان.

في الواقع، إن أي كتاب عن الاستراتيجيَّات العسكريَّة يأتي بالتأكيد بمثابة مفاجأة لكثير من زملائي في حقل الأنثروبولوجيا والمجالات ذات الصلة. هذا هو بالضبط الشعور الذي بدا لي أثناء إعداد هذا الكتاب، بعد الوقوف على تراث العلوم الاجتماعيَّة. وللحقيقة، ليس هناك بالتأكيد نقصٌ في الكتابة عَن وحَوْلَ خلفيَّات الحرب في علم الاجتماع، والتخصُّصات التابعة له. هذه الأعمال تركز على ما تُخلِّفه آثار الحرب، وانعكاسها على الضحايا والجُناة، وعلى الشعائر، ووسائل الإعلام، والفنون، وذكريات مختلقة للتعامُل معها. ولكن عندما يتعلق الأمر بدراسة ساحة المعركة، والعمليات العسكريَّة للصراعات، وكيف تتم الحرب، تبدو الأقلام جافة، وببساطة يبقى المُؤلفون قلة.

من هُنا، وجدتُ نفسي وحيداً في هذا المجال. فمُعظم كتابات العلوم الاجتماعيَّة عن الحرب بدا ضد أيديولوجيَّة الحرب، وعلى وجه الخصوص أظهرت الحرب بأنها هي كل

الشر والغباء، ولا ينبغي إطلاقاً التفكير في إعداد معاولها، ناهيك عن الاحتفال بها.

نعم، فالحرب كما تمَّ وصفها، مُدمِّرة، وهي تقف مقام التنمية في الاتجاه المعاكس، وعلى هذا النحو، فإن خسيس الناس والمنحرفين تماماً يُظهرون مصلحة في تأييدها. رفع يديك إذا كنت واحداً من هؤلاء!

حسناً، أنا أخلع القبَّعة لذلك، متفهماً تماماً المأزق الذي نحن فيه. فمن المستغرب، والأنثروبولوجيا قد ساهمت بقدرٍ هائلٍ في دراسة الممارسات البغيضة العديدة، مثل: الاغتصابُ الجماعي، والاتجار بالبشر، والتجارة أيضاً بأعضائهم.. إلخ، ومع ذلك لا تزال الحرب أقلَّ جاذبيَّة كحقلٍ للرَّصد من خبراء المجال.

حتى الآن، نحن ما نزال نتحدَّث عن دراسة الحرب، تمييزاً لها قبل القيام بالدلو حولها. فمثله مثل جميع العلوم الاجتماعيَّة، يفخر علم الإنسان بجمع وتحليل المعلومات عن مختلف جوانب الثقافة الإنسانيَّة، وهذا هو جانبٌ من جوانب نظام علم الاجتماع، الذي من المحتمل توظيفه في الاستراتيجيَّات العسكريَّة.

إن فلاسفة الحرب والاستراتيجيين من تزو، مروراً بكلاوزفيتز، إلى نابليون أكَّدوا أن كلَّ الحرب لا يمكن كسبه دون معرفة عميقة بالخصم، وثقافته، وسلوكه. وفوقاً عن ذلك، تحفيز المُقاتلين، والتضامُن معهم، وإرادة العاطفة التي يملكونها في القتال. وفي النظريات العسكريَّة الحديثة، فإن هذه المطلوبات العسكريَّة يُشارُ إليها بمصطلح "استخبارات العلاقات البشريَّة". بإيجازٍ كلي، فإن علم الاجتماع كله مَعنِيٌّ بهذه الاستخبارات، وبالتالي جاءت الرؤية بضرورة إشراكه في حقل العمليَّات العسكريَّة الحديثة.

عندما يتعلق الأمر بتاريخ مشاركة العلوم الاجتماعيَّة في الحروب، فإننا بكل صراحة نرى أن العلوم الاجتماعيَّة مذنبة بقدرٍ هائل. ففي عهد الغزو الاستعماري، عمل علماء الأنثروبولوجيا جنباً إلى جنب مع المستعمرين لهزيمة وإخضاع المواطنين. لقد زار إيفانز بريتشارد، أحد أعمدة الأنثروبولوجيا، منطقة الأزاندي عشية القصف العنيف (١٩٣٠-١٩٠٢) وصدر له أمراً بالانتقال إلى دراسة مجموعة "النوير" عندما قتلوا ضابطاً بريطانياً.

كانت دراسات بريتشارد، وبعضها ظهرت في وقتٍ لاحق في منشور مشترك مع فورتيس، مثالاً كلاسيكياً للقتال بواسطة وسيلة أخرى (فورتيس وإيفانز بريتشارد، ١٩٤٠، إيفانز بريتشارد، ١٩٣٧، إيفانز بريتشارد، ١٩٤١، وأسعد ١٩٧٣، Grinker، وآخرون ٢٠١٠).

لقد وجدنا أن فرنسا الاستعماريَّة وظَّفت بشكلٍ مماثلٍ العلوم الاجتماعيَّة في حروبها الاستعماريَّة المهادنة. وهكذا قال جوزيف قاليني، مهندس التهدئة في الهند الصينيَّة والسُّودان: **«...إذا كانت للشعوب عادات وتقاليد تحترم، فلدينا أيضاً رغبات تحتاج الاستجلاء وتوظيفها من أجل الربح، من خلال معارضة لتلك الآخرين، والاعتماد على أنفسنا بالأمر من أجل هزيمة الآخرين».**

أما بالنسبة للولايات المتحدة، فتملك تاريخاً طويلاً من استدراج علماء العلوم الاجتماعيَّة في استراتيجيَّات الدفاع العسكري. وهذا التعاون يعود إلى الحرب العالميَّة الأولى. ولكنه برز في وقتٍ لاحق من ذلك بكثير، ابتداء من الستينات. ولعلنا نذكر مشروع كاميلوت (١٩٦٤)، إذ شارك علماء الأنثروبولوجيا، وغيرهم، وكالة الاستخبارات الأمريكيَّة (CIA) في برامج مكافحة التمرُّد، وهناك مشاريع مماثلة لوزارة الدفاع.

بينما لا ينقص هذه البرامج من يستطيع تنفيذها، فإن مجتمع الأنثروبولوجيا اتخذ موقفاً ضدهم يستحق الثناء. ففي وقتٍ مُبكِّر من عام ١٩١٩، وصف فرانز بواس، أحد الأعمدة المؤسِّس للأنثروبولوجيا الأمريكيَّة التورُّط في مثل هذه البرامج بعباراتٍ حادة، إذ قال: **«مُومسات العِلم يهدرون، بطريقة لا تغتفر، الحق في أن يصنفوا في عداد العلماء»**. حذفت جمعيَّة الأنثروبولوجيا الأميركيَّة (AAA) تعليق بواس لا بسبب حرجه، وإنما لأن بواس أخطأ في اتهاماته وتحدَّث ضد أفراد كان يُنظر إليهم بأنهم يقومون بواجبهم الوطني في زمن الحرب.

في أوائل العام ١٩٧٠، زادت الجمعيَّة موقفها ضد التعاون مع الجيش، وكذلك العمل لمكافحة التمرُّد. وتبنيها مبادئ الممارسة المهنيَّة أكدت إدانتها لمثل هذه المشاركة، وأكَّدت أن التزام علم الاجتماع الدائم هو للشَّعب الذي تقوم بدراسته، وليس تلقي الرعاية البحثيَّة من الحكومات ذات الصلة. كمتابعة لذلك، أصبحت قاعات مؤتمرات جمعيَّة الأنثروبولوجيا الأميركيَّة محظورة على وكالات الدفاع الأمريكيَّة.

في خطوةٍ مناقضة لذلك، فإن وكالة المخابرات المركزيَّة وغيرها من الوكالات الأمنيَّة الوطنيَّة المعنيَّة جنَّدت في أماكن المؤتمرات وفي النشرة الإخباريَّة لجمعيَّة العلوم السياسيَّة الأمريكيَّة إنشاء شبكة علماء الأنثروبولوجيا المهتمين (NCA)، ونشر كتيِّب بعنوان "دليل مكافحة التمرُّد" لم يُثر الجَدَل فقط، ولكن توَّج الانضباط بالطريقة التي حلم بها بواس نحو قرن مضى من الزمان.

قد يسأل القرَّاء عن سبب اهتمامي بدراسة العمليَّات الحربيَّة للحركة. هذا السُؤال المشروع شغلني أنا نفسي. فالصحيح هو أنني عضوٌ بارز في الحركة، وحالياً المسئول عن مكتبها للتخطيط الاستراتيجي، ولكن هذا في حدِّ ذاته لا يُحوجني

للاشتراك في الشئون العسكريَّة لحركة المتمرِّدين السُّودانيين. غنيٌ عن القول، وبحُكم خلفيَّتي المهنيَّة، فأنا أشارك الرؤية المهيمنة الأكاديميَّة بأن الحرب هي الشر، ولا لزوم لها، وإنها أداة بدائيَّة في حلِّ الصراعات. ومع ذلك أنا أدرك أيضاً أنك لا يمكن أن تناصر وجود البشير، موغابي، القذافي وغيرهم كثيرون.

فالدكتاتورية تولد الوهم، وتتحدَّى النقاش والتفكير العقلاني. في نظريَّة حَلِّ النزاعات ثمَّة من يقول إن تكتيكات المشاركة السياسيَّة، والالتماسات، والعمل من خلال منظمات المجتمع المدني يكون أقل فعاليَّة، وفي كثير من الأحيان ليس هذه المجهودات سوى آثار مجرَّدة ورمزيَّة، فإقناع الأغنياء والأقوياء للتغيير لا يتم من خلال الإقناع أو الحُجَّة المنطقيَّة أخلاقيَّة.

صحيح أن الحرب هي مُدمِّرة، ودائماً مترافقة بالخسائر المأساويَّة في الأرواح. على الرغم من هذا، يمكن أن يكون لبعض حروب التحرير التأثير الإيجابي، إذ تعمل على إنهاء الدكتاتوريَّات، وتحقيق العدالة والديمقراطيَّة. فالعديد من الحُكَّام المستبدين يثيرون العُنف ويقتلون الكثير من الضحايا الذين يمكن عدَّهم بسهولة.

مع ذلك، فإن الوفاة الناجمة عن العُنف الهيكلي الناجمة عن سياسات الطغاة التي تقزِّم عدد ضحايا بما لا تُقاس. فالإشارة هنا إلى أولئك الذين يموتون بلا داعٍ من خلال الفقر والمجاعة، والمرض والإهمال. هُم أكثر عدداً بكثير وغير مرئيين، أو غير ذلك مُلامين على الخطأ وليس الديكتاتورية التي هي المسئولة عن العُنف الهيكلي في المقام الأوَّل.

بناءً على قول كارولين نوردستروم وجون مارتن، فإن: **«أبحاث السلام أصبحت أكثر وعياً لحقيقة أن تدمير الحياة البشريَّة أكثر على الكرة الأرضيَّة جاء بسبب انتشار الفقر، والجوع، والأمراض التي يمكن تجنبها، والحرمان الاجتماعي**

والاقتصادي أكثر من استخدام العلني للأسلحة ومثل هذه الظروف التي تعكس عنفاً متجسداً في البنية الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة للمجتمع - العنف الهيكلي».

تحدّي المشير البشير

ما جعلني اهتم بدراسة العمليّات الحربيَّة لما تُسمَّى بـ"حركات دارفور"، وعلى وجه الخصوص "حركة العدل والمساواة" واضح وبسيط. كان هناك اختلاف بين الصورة التي ملكها الإعلام حول الجماعات المتمرِّدة عموماً و"حركة العدل والمساواة" التي تعرَّفتُ عليها بشكل جيِّد، إذا جاز لي القول ذلك. وسائل الإعلام الدولية تُصوِّر المتمرِّدين الأفارقة بأنهم من مثيري الشغب، عاريي القدمين، يرتدون ملابس رثة، غير منضبطين، عنيفون، مغتصبين، ويجندون الأطفال الصغار. وتبيِّنهم بأنهم جُبناء أمام المواجهة المباشرة مع جيوش حكومة العدو، ويُفرِّغون غضبهم على القرويين الأبرياء، فضلاً عن الاستيلاء على ممتلكاتهم.

حسناً، هذه ليست الصورة التي يبدو عليها جيش الحركة. فهو منضبط بشكلٍ جيِّد، ولم يُعرف له استهداف للمدنيين العُزل. حتى الآن لم تُضبط حالة واحدة للحركة أحرقت فيها قرية في حربٍ تتميَّز تكتيكاتها العسكريَّة بعامل الأرض المحروقة. فهناك دبلوماسي أمريكي نقل لي هذه الحقيقة أثناء محادثات السلام في نيجيريا والتي أنتجت اتفاق السلام في أبوجا. ووصف الدبلوماسي الأميركي المخضرم، الذي راقب العديد من الحروب في البلدان الأفريقيَّة والأمريكيَّة اللاتينيَّة قوَّات الحركة، بأنه الجيش الأكثر انضباطاً، والذي لم يَرَ مثله من قبل.

لكن الحركة أدهشتني من جانب آخر. فهي ليس لديها الوقت الكافي لتكتيكات الكَرِّ والفَرِّ مع الجيش الحكومي. فهي تواجه الجيش الحكومي وتهزمه بشكلٍ منتظم في معارك

تستغرق نحو ١٠ أو ١٥ دقيقة. "فلينت" و"أليكس ديوال" اللذان يظهران الكثير من عدم التعاطف مع حركات دارفور وشعوبها، كتبا: **«إن المتمرِّدين كانوا ينتصرون في كلِّ مواجهة تقريباً. إنهم كسبوا ٣٤ معركة من أصل ٣٨ في الأشهر الوُسطى لعام ٢٠٠٣»**. وتأكد تصريحهما من خلال سلسلة من المعارك تلت طرد الحركة من تشاد.

آنذاك، زعمت حكومة السُّودان في حملتها الدعائيَّة غير المسبوقة لتعلن نهاية الحركة في أعقاب تحسُّن علاقة السُّودان مع تشاد. لقد أطلقت الخرطوم موجة من الكتائب من كل اتجاه، مع تغطية إعلامية كبيرة بهدف إنجاز "الهجوم النهائي" ضِدَّ الحركة. ولقد أسفر الهجوم عن هزيمة جيش الحكومة في ١٤ معركة، دون أن تتمكَّن من الانتصار في ولو واحدة منها، وكان ذلك خلال الفترة من يناير إلى مايو ٢٠٠٩.

ينبغي أيضاً أن يؤخذ هذا مع حقيقة أن جيش السُّودان يُعَدُّ الخامس في أفريقيا، بعد جيوش مصر، جنوب أفريقيا، إثيوبيا، الجزائر، وليبيا. فالقوَّات المسلحة تضم نحو مائة وعشرة ألف مجنداً، ومدعومة بنحو عشرين ألف من المليشيات، والتي غالباً ما تقاتل إلى جانب الجيش الحكومي، هذا بالإضافة إلى عددٍ غير معلوم من أفراد منظومة الأمن القومي. أفراد الأمن القومي شكَّلوا قوَّة عسكريَّة حين دافعوا عن الخرطوم دون تدخُّلٍ من القوَّات المسلحة السودانيَّة خلال عمليَّة "الذراع الطويلة" والتي قادتها الحركة في مايو ٢٠٠٨.

ليس هذا فقط، فحزب المؤتمر الوطني لديه أيضاً ميليشيات الدفاع المسلح الخاصة، وهي مسلحة بشكل جيِّد، ويمكن تعبئتها للدفاع عن النظام. ومع توفر أموال النفط، فإن هذه القوَّات تمَّ إعدادها بشكلٍ جيِّد بأسلحة من الصين، وروسيا، وإيران، وعدد من الأقطار الأخرى. ورغم الحظر الحالي للأمم

المتحدة تجاه السُّودان، فإنه يُنفق الآن ما يزيد على ٨٠٪ من العائدات المركزيَّة على الأمن والدفاع.

في مقارنة الحركة والحكومة، بالتأكيد أن الأخيرة لديها قوَّة هائلة تحت تصرُّفها. ومع ذلك، فإن هذه القوَّة هي أيضاً هشَّة بشكلٍ مذهل. فجنود القوَّات المسلحة السودانيَّة يتم تجنيدهم من الأجزاء المُهمَّشة من السُّودان، وهي ذات المناطق التي يأتي منها أفراد الحركات المسلحة. إنهم يقومون بخوض حروب الحكومة، لكن يبقى الجيش هو المصدر الوحيد لكسب عيشهم. هذا الظرف المؤسف يضعهم في موقف حرج جداً. وللتناقُض، فإنهم أقرب إلى عدوهم من المتمرِّدين أكثر من قُربهم من ضباط الشماليَّة الذين يقودونهم إلى الحرب.

لا عجب بعد ذلك أن يُصبحوا ماهرين في تفادي الموت. بل هو خيارٌ منطقي بالنسبة لهُم، ولا أحد يستطيع أن يلومهم لاتخاذ هذا المسار. جنرالات الجيش من القوَّات المسلحة السودانيَّة لهُم أيضاً مشاكلهم. إنهم يترقون إلى أعلى الرُتب، ولا علاقة لهم بالبراعة في القتال، لأنهم ينتمون إلى نُخبة نهر النيل. نمط حياتهم مريح، وجعلهم فاشلين في القتال، ويُحبِّذون الحياة بدلاً عن الموت. معظمهم لم يواجه القتال، ولديهم صلات عائليَّة قويَّة تمنعهم من القتال، وهناك أسباب أخرى تمنع نقلهم إلى مناطق الحرب. ومع ذلك، عندما يُلقي حظهم العاثر بهم في المعركة، فإنهم يخوضون الحرب من مخابئ بعيدة عن ساحة المعركة.

هذا الكتاب هو في الحقيقة ليس عملاً متهافتاً من مؤلف متعاطف مع الحركة. قادة الحركة على نقيضٍ حاد مع قادة القوَّات المسلحة السودانيَّة. إنهم لا يخافون الدخول في ساحات القتال، فنحنُ مستعدون لمواجهة العدو رأساً برأس. ولك أن تسأل أي قائدٍ في الحركة عن عدد المعارك التي خاضها، وسيقول لك إنها من عشرين إلى ثلاثين معركة، أو ببساطة إنه

يقول لك: **«لا أستطيع أن أتذكر عددها»**. والدليل على هذا، الوفيَّات العالية وسط قادة الحركة، فمنهم الجنرالات أبورنات، عكيد بن أبوبكر إبراهيم، جلال الدين وغيرهم، وهناك إصابات عديدة وسط القادة الباقين على قيد الحياة.

الآن دعونا ننتقل إلى الجانب الآخر من المعادلة. حارب المشير البشير – نعم، أكرِّر المشير– معركة واحدة فقط في حياته: واحدة وكانت وهميَّة! تلك المعركة كانت في "ميوم" التي تقع عند تقاطع بين جنوب كُردُفان والمنطقة التي تُعرف الآن باسم جمهورية جنوب السُّودان. في ذلك الوقت (١٩٨٩) تآمر البشير بخُطة الجبهة الإسلاميَّة للإطاحة بحكومة الصادق المهدي المُنتخبة ديمقراطياً، وصار رئيساً للسُّودان. ولمَّا كان الإخوان المسلمون بحاجة إلى شخصٍ من الجيش، أتوا به من أجل تأمين دعم الجيش باعتباره الرئيس والقائد الأعلى للقوَّات المسلحة السودانيَّة. ولذلك نظموا معركة "ميوم" حتى يُحسِّنوا السيرة الذاتيَّة للرئيس، كونه قد هَزَمَت كتيبته جيش الحركة الشعبيَّة آنذاك.

"ميوم" كانت بلدة تحت قيادة البشير، لكنه اضطرَّ إلى سحب جيشه منها إلى "المُجلد" في جنوب غرب كُردُفان عام ١٩٨٧، كما قال "مادوت أروب". ولكن ليس هناك حداً لإدمان البشير تخييب آمال معجبيه. الحقيقة هي أنه خسر المعركة، ونجا فقط بسبب ميليشيا قبيلة المسيريَّة التي أنقذته بشجاعة من موتٍ وشيك. ومن غير المعروف ما إذا كان البشير قد استخدم فعلياً بندقيَّة في معركة "ميوم".

لكن ما هو مؤكَّد هُو أنه أطلق النار بطريقة خاطئة فقتل إحدى النساء أثناء احتفال، بينما كان هو القائد العسكري لمنطقة الميرم بجنوب كُردُفان، وذلك قبل أقل من سنة من تسنُّمه رئاسة البلاد. وكما تقول القصة، فإن البشير قام بتسوية ودفع الديَّة لأسرة القتيلة، فقط بعد أن انتقل إلى القصر الرئاسي في الخرطوم.

إذن، فهذه الحادثة تشير إلى سوء قيادته وعدم قُدرته على التعامُل مع الأسلحة الناريَّة، وتوضِّح أن مهارة "المُشير" الذي أصبح رئيساً بدائيَّة تماماً.

هكذا نحن نفرِّط في وصف الرَّجل، ولكن الحقيقة هي أنه ترك انطباعاً مدهشاً بين رفاقه في الكليَّة الحربيَّة والتي تدرَّب وتخرَّج فيها ضابطاً. فقد كان عُمَر البشير واحداً من اثنين من المتدرِّبين يحملان اسم "عُمَر"، ومن أجل التمييز بين الاثنين في نفس الفصل الدراسي، كان أصدقاؤه يُسمُّون عُمَر البشير بـ"عُمَر الكذَّاب" للتمييز بينه وعُمَر الآخر.

تدريب البشير الهزلي ليس استثناءً وسط جنرالات الجيش. فوزير دفاعه الفريق أوَّل عبدالرحيم محمد حسين أيضاً لم يشارك في معركة واحدة في حياته. فهو قد تخرَّج من كليَّة الخرطوم التقنيَّة. وبعد التحاقه بالجيش، تمَّ تعيينه في وظيفة لصيانة مروحيات الجيش. وقضى معظم وقته السهل في تشحيم المراوح. ولم يسبق له أن زار ساحات القتال، لكنه بقي في سلامة معسكرات الجيش، وتنفيذ أسهل واجباته.

كما روى قائد قوَّات "حركة العدل والمساواة"، الراحل "أبورنَّات"، فقد قال إن ملابس عبدالرحيم كانت دائماً مليئة بزيت الشحوم لدرجة أنه لُقب بـ"عبدالرحيم شحم". حسناً، الفريق أوَّل "عبدالرحيم شحم" هو الآن قائد القوَّات المسلحة، وهو الثاني بعد رئيسه الماريشال الذي خاض معركة واحدة، ولك أن تتخيَّل كيف يكون حظ قادة الحركة.

إن البشير ووزير دفاعه قد يتصوَّرون راحتهم عند معرفة جنرالات الجيش الأوروبي، الذين لم يشهدوا معركة كبيرة في حياتهم المهنيَّة بأكملها. على عكس السُّودان، الذي أفسد من جرَّاء الحروب المتواصلة، فإن الغرب هو في سلام مع شعبه، وجنرالاته، لا يحتاجون إلى خوض معارك للترقية. وهناك عدد

قليل من بعثات حفظ السلام غير دمويين بجانب الأداء الممتاز في الدراسات العسكريَّة يستطيعون القيام بالمهمَّات العسكريَّة.

لكن نقدنا لجنرالات الجيش الرائدة في الخرطوم ينبغي ألاَّ يجعلنا جاهدين. فيجب علينا الاعتراف بوجود جنرالات بمؤهِّلاتٍ عسكريَّة ممتازة ويتميَّزون بسلامة الشخصيَّة. ومع ذلك، فإن هؤلاء لا يُسمح لهم أبدا بالترقي، لأنهم لا ينتمون إلى تكتل الأقليَّة الشماليَّة.

على الرغم من العيوب الوافرة في قوات حكومة السُّودان، ينبغي أن يكون لهم ميزة على الحركة، على الأقل بحُكم الموارد الماديَّة وغير الماديَّة المتاحة لهُم، ناهيك عن استغلال تفوُّقهم العددي. فهزيمتهم المتواصلة على أيدي قادة الحركة يجب أن تكون أمراً محيِّراً بما يكفي لتبرير استكشاف خطيرة. ويجب على قادة الحركة أن يكونوا في مصاف الاستراتيجيين في الحرب العالميَّة، على قدم المساواة مع تزو، هانيبال، شاكا، نابليون ومونتغمري.

هذه ليست سوى لمحة عمَّا شغل اهتمامي الأكاديمي بالإبداع العسكري للحركة.. أما الآن، فدعونا نبدأ..

تنظيم واستراتيجيَّات جيش الحركة

إنه لأمرٌ ضروري أن نفكِّر حول المرجعيَّات التاريخيَّة والثقافيَّة لجيش "حركة العدل والمساواة". وبحسب أنه يتبنى أسلوب "حرب الغوريلا" فإن المقاتلين الذي يُشكِّلون معظمه جاءوا بلا تدريب عسكري حديث أقرب لما يُدرَّس في الكليَّات العسكريَّة. إنهم على أي حال جاءوا ببعض من معارفهم القتاليَّة لأناسٍ لا ينهضون من فراغ. لذلك فالسؤال الذي أرغب في توجيهه هنا، هو: **ما هو تأثير تنظيم العدل المساواة وتكتيكات جيشه.. أهو محصلة ثقافتهم المحليَّة، أم ثقافة الجيش السوداني الحديث، أم تاريخ الحرب القومية، أم هو خليطٌ من كل هذا وذاك؟!**

إنَّ المصدر الأساسي الذي يساعدنا على الإجابة متوفر من قبل. ويتمثل في إرث حرب المهديَّة (١٨٨٤- ١٨٩٨) رغم أن هذه الحرب قد حدثت قبل عقد من الزمن ونيف. وحقاً إن موروث المقاومة ضاربٌ في ثقافتنا. والواقع أنَّ أسلافنا تورَّطوا بشكلٍ أو بآخر في ذلك الموروث. وقصصهم متمثلة في فولكلورنا، وما تزال تؤثر في تنظيمات سياسيَّة مهمَّة لقسم كبير من مجتمعنا. وأدب حرب المهديَّة، على كُلِّ حال، خاص بجزءٍ من ذلك المجتمع. وهناك قلة من الكُتَّاب الذين انتبهوا لدراسة حرب دولة المهديَّة، وقدَّموه كسردٍ مُوغل في تفاصيل المركزيَّة الأنجلوساكسونيَّة. فمقاتلو المهديَّة كانوا موصوفين كـ"همج" يقاومون جيشاً متمدِّناً. بل ولم تكُن لهُم إستراتيجيَّة حربٍ محدَّدة، ولكن مثابرتهم القياسيَّة مشهودة، وكانت مدعومة بتعصُّبهم، كما قال سلاطين باشا.

حقاً لا شيء أكثر من الحقيقة. فالأعداد الضخمة من المُؤيِّدين والمقاتلين المهدويين أنفسهم تشير إلى التعاطي الوطني إزاء إستراتيجيَّة عُظمى. أقول هذا وفي ذهني أن كلمة "إستراتيجيَّة" نفسها تمثل عُمق الإشكاليَّة، حتى إن بعض البحاثة المرموقين يعدها بلا معنى، ومفخَّخة، ومؤذية ويُفترض التخلي عنها.

لتجاوز غمام المفهوم تماماً، دعنا نستخدم مصطلح الإستراتيجيَّة إجرائياً ليعني "الخُطط المستخدمة بحيلة تحليليَّة منا لإنجاز أهداف كبيرة"، كما قال ماكنكين. وحين نتقصَّى أثر المهديَّة وإستراتيجيتها الحربيَّة، نجد أن هزيمة هِكس باشا النكراء ودمار جيشه على يد الأنصار كان نتاجاً لإستراتيجيَّة ممتازة للمهدويين، تلك التي جعلت جيش الغُزاة يتقهقرون للخلف ويفقدون حتى إمداداتهم الحيويَّة. فالأنصار استخدموا تكتيكاً مضللاً غير طريق جيش هكس باشا، ما جعله فريسة سهلة في معركة حدَّد قادة المهديَّة مكانها بدقة.

فالتجمعات المنظمة والتكتيكات النفسيَّة التي استخدمها المهدي دفعت كل المنطقة إلى الثورة ضد الغُزاة. كما أن عمل الاستخبارات الاستطلاعيَّة الذي وظفه المهدي، كان ببساطة يمثل نهجاً عسكرياً مثالياً. فهو قد عرف القدرة اللوجستيَّة الحقيقيَّة للغُزاة، وكذلك قُدراتهم القتاليَّة قبل زمنٍ طويل من بدء المعركة. وبرغم حداثة الأسلحة التي استخدمها جيش هكس باشا، فإن بلاء الأنصار في معركة شيكان كان من ما لا يُجارى. فالأوربيون تخيَّلوا أن جنود المهديَّة مجرَّد متعصِّبين، وربَّما هُم محقون في جزءٍ من هذه الحقيقة، ومع ذلك فإن جيش المهدي كان يقاوم المرتزقة المدفوعين بتعليمات قائد مرتزق. ولم يشأ لهكس أن يعيش طويلاً ليحوز على مبلغ العشرة آلاف جنيه إسترليني الذي وعده به خديوي مصر وإمبراطوريَّته التي كانت متحمِّسة لمُهمَّته. مثلما أن مقاتليه المصريين كانوا جنوداً مجللين بعار هزيمة جنود المصري أحمد عرابي، وهؤلاء الجُند أنفسهم كانوا أيضاً مستاءين من قوَّة الخديوي، وهو من بعد الغازي التركي الألباني الذي كان عرابي ينوي عبر ثورته ضدَّه تقليم أظافر الإمبراطوريَّة العثمانيَّة بلا خشية.

الكليَّة الحربيَّة

إن الكليَّة الحربيَّة السودانيَّة من المُؤكد أنها وضعت الأساس لثقافة الحرب في السُّودان. فقد تمَّ تأسيسها في عام ١٩٥٠، قبل ست سنوات من الاستقلال، لتدريب ضُبَّاط الجيش الذين سيحلون لاحقاً محلَّ المغادرين من ضُبَّاط الاستعمار البريطاني. وخلال العقدين الأولين من تأسيسها، جذبت الكليَّة المتقدِّمين للجامعات الذين لم يتمكَّنوا من التنافُس على مقاعد في جامعة الخرطوم وغيرها من الكليات العُليا.

على مَرِّ السنين، صعَّدت الكليَّة الحربيَّة دور خِرِّيجيها في سلم الوضع الاجتماعي في السُّودان، وبذلك حفظت لنفسها وضعيَّة وسط مؤسَّسات البلد. وبسُخرية نقول، إنه لم يتأتَّ لضُبَّاط الكليَّة صعود السُلم الاجتماعي نتيجة نجاحهم في أداء

واجباتهم الشرعيَّة، وإنما على العكس من ذلك، فهُم قد باءوا بالفشل الذريع في القيام بواجباتهم. واسمحوا لي أن أشرح أكثر.

فالجيوش الحديثة في كُلِّ مكان تكوَّنت أصلاً لحماية أراضي وفضاء البلاد وحدودها ضد الغُزاة الأجانب. ومن الأعراف السياسيَّة أن من واجب الجيش حراسة الجانب المتعلق بسيادة البلد. وللقيام بذلك على نحوٍ فعَّال، لا بُدَّ للجيش من أن يظلَّ قومياً في تكوينه، ومحايداً في شئون السياسة. ولحساسيَّة مُهمَّته، فإن حفظ النظام داخل البلد ليس من عمل الجيش، وليس هو مُدرَّبٌ أصلاً لأداء هذا الغرض. فذلك الدور منوط دستورياً بقوَّات الشرطة للقيام به، وهي التي تعمل بالتوازي مع الجيش.

مثل معظم الدول الأفريقيَّة، فإن السُّودان هو نتاج السياسة الاستعماريَّة الأوروبيَّة للقارَّة، وهي العمليَّة التي أسفرت عن بروز حدودٍ غير متجانسة، وعجز ورثتها عن أن يجعلوا واقعها مستقراً. فمنذ استقلال البلاد عام ١٩٥٦، اتجهت الدول المجاورة إلى استقطاع أجزاءٍ كبيرة من أراضي حدود السُّودان. وكانت هناك لائحة توضح الأراضي السودانيَّة التي تخضع للحُكم الأجنبي، ومنها مثلث توركانا الكينيَّة، قبل انفصال الجنوب، ومنطقة حلايب وشلاتين في ولاية نهر النيل التي يسيطر عليها النظام المصري، وهناك مثلث يمتد إلى السيطرة الليبيَّة، وكذلك الأراضي المُتنازع عليها مع إثيوبيا.

لقد فشل الجيش السُّوداني على مَرِّ السنين في أداء واجبه، وفشل في استرداد ولو شبر واحد مربَّع من تلك الأراضي. وبدلاً من ذلك، فقد استنفر الجيش طاقته في الإدارة السياسيَّة للبلاد، وهو المجال الذي يتنافى مع الوضعيَّة الدستوريَّة للجيوش الوطنيَّة. ولحظنا أنه لا يمر أي عقد في السُّودان إلا وشهد وضعاً أسهم في تدهور الجيش نفسه. والأكثر إيلاماً من ذلك، أنه قد أصبح دور كل قادة الجيش هو الاقتتال مع مواطنيهم.

وهكذا تحوَّل واجب الجيش تماماً إلى قمع الانتفاضات الاجتماعيَّة بعُنفٍ، وحماية الحكومات الظالمة والديكتاتوريَّة.

غنيٌ عن القول إن دور الجيش تعاظم ضد الفئات الأيديولوجية الأخرى. فالكليَّة الحربيَّة تُشكِّل الآن أقصر الطرق إلى السُّلطة، وربَّما وسيلة إلى القصر الرئاسي نفسه. وعناصرها لم تعُد تأتي من أفضل الجامعات في السُّودان، وأبوابها ليست مفتوحة لكُلِّ فئة مهما كانت كفاءتها. فالكليَّة هي الآن حكرٌ على النُخبة الحاكمة، مع القليل من الفئات الأخرى، لتعزيز مكانتها القوميَّة المُفترضة.

هذا الظلم هُو بالضبط ما دفع قادة "حركة العَدْلِ والمُسَاوَاة" إلى إصدار "الكتاب الأسود"، الذي بيَّن أن المنطقة الشماليَّة المُهيمنة على السُّودان قد انحرفت بمنهجيَّة التوظيف في الخدمة العامَّة التي تشمل القوَّات النظاميَّة. ولقد تأتَّى كل ذلك للشماليين عقب تحقيق سيطرة تدريجيَّة على الجيش، أو على الأقل قيادته، كجزء من السيطرة الكاملة على سياسة البلاد.

وكما يُبيِّن "الكتاب الأسود" إحصائياً، فإن المنطقة الشماليَّة تحتفظ بالسيطرة على كل مصدر للطاقة المجتمعيَّة، بما في ذلك المناصب الوزاريَّة، والنظام المصرفي، والمالي، والخُطط التنموية، والجامعات، الخ.. لكن قبل كل شيء، نظام الأمن، وهذا يعني أن أجهزة الجيش والشرطة والاستخبارات الأخرى تخلت عن الدفاع عن سيادة البلاد، إلى جانب تورُّط هذه المؤسَّسات في اقتحام مجالات السياسة الداخليَّة.

هكذا عزَّز ضُبَّاط الجيش السُّوداني وضعهم الفاشل وتحوَّلوا إلى نخبة حضريَّة تعيش حياة الرَّغد. ولا عجب فالكليَّة الحربيَّة أنشئت لتصبح المكان المُفضَّل لأبناء الطبقات الحاكمة من نهر النيل. وكما أن معظم قادة "حركة العدل والمساواة" يأتون من الهامش، فإنه ليس من المستغرب أنَّ أياً منهم لم يتخرَّج من الكليَّة الحربيَّة. ومع ذلك، فإن دراسات الحرب في

الكليَّة هيمنت على شكل تدريب القوَّات المسلحة السودانيَّة، وبالتالي أثر ذلك بشكلٍ غير مباشر على إستراتيجيَّة مقاومة "حركة العَدْلِ والمُسَاوَاة".

وجدنا أن الحروب التشاديَّة تُشكِّل القوَّة الثالثة التي أثرت على تنظيم واستراتيجيَّات الحركات المتمرِّدة. فعلى الرغم من أن "حركة العدل والمُساواة" تفخر بصورة تشكُّلها الوطني الزاهي، فالمقاتلون في صفوفها يتحدَّرون من جميع أنحاء السُّودان وتأسَّست في البداية بواسطة المقاتلين الذين كانوا في المقام الأوَّل ينحدرون من أصل دارفوري. وتأثير هؤلاء المقاتلين منذ وقتٍ مُبكِّر في جيش الحركة لا يزال يُميِّز ماضيها وراهنها.

على مدى العقود القليلة الماضية، كانت دارفور مرتعاً للمتمرِّدين التشاديين، والمكان الذي تنطلق منه هجماتهم ضدَّ حكومات بلادهم. وإدمان الخرطوم التدخُّل في الشئون التشاديَّة تمَّ استغلاله بنجاح من الانتهازيين التشاديين. ومن المُرجَّح أن يستمر هذا الأمر في المستقبل. فموكبا الرئيس ديبي وسلفه حسين حبري نحو القصر الرئاسي التشادي انطلقا من دارفور، التي أتوا إليها متمرِّدين، وفيها تلقوا مساعدة ومباركة من حكومات الخرطوم. ونتيجة لهذا التداخُل، شهدنا في عام ٢٠٠٩ أن "حركة العدل والمساواة" قامت بخطوة جريئة، حين قاتلت في انجامينا لتحقيق استقرار حكومة إدريس ديبي وحمايته ضد المتمرِّدين المدعومين من حكومة السُّودان.

إن همزة الوصل المزعجة بين دارفور وتشاد هو نتاج التاريخ، وكذلك السياسة الاستعماريَّة والتي هي أثر مشترك وسط العديد من البلدان الأفريقيَّة. وتأسيس حدود دارفور وتشاد يعود تاريخه إلى مؤتمر برلين الاستعماري (١٨٨٥)، وكان هو صدى لمصالح ودهاء الإمبراطوريَّات الأوروبيَّة التي سادت في القرن التاسع عشر الميلادي وسعت إلى تقسيم العالم بينها. نتيجة لذلك، سقطت دارفور على جانب الدول الناطقة باللغة الإنجليزيَّة، في حين تمَّ ضم تشاد إلى الأراضي الفرانكُفونيَّة

للإمبراطوريات الأوروبيَّة. هذا الخط الفاصل يُشكِّل حدودنا السياسيَّة الحاليَّة مع تشاد، والتي تفترض نظرياً على كل سوداني احترامها ودفع حياته ثمناً لحماية الجماعات العرقيَّة العديدة والتي انقسمت الواحدة منها إلى جماعتين.

هناك على الأقل ٢٩ مجموعة عرقيَّة مقسَّمة الآن بين السُّودان وتشاد. والمثير للقول إن "فتري" سُلطان الزغاوة وقتها قاتل السياسة الاستعماريَّة، وقبره الآن يُزيِّن الشريط الحدودي بين البلدين. ولذلك ليس من المستغرب أن يمُتَّ الدكتور خليل إبراهيم، الرئيس السابق لـ"حركة العدل والمساواة" بصلة قرابة ما إلى الرئيس التشادي الحالي إدريس ديبي، والذي هُو نفسه تلقى مع العديد من كبار موظفيه تعليمهم في السُّودان عندما كانت هناك مدارس جيِّدة في دارفور.

هكذا استغلت الجماعات القبليَّة في الحدود التشاديَّة السودانيَّة مواقعها عند تقاطع البلدين لتحقيق مصالحها. ومثل جميع البلدان الأفريقيَّة، فإن الحدود السياسيَّة هي خطوط وهميَّة لا تحمل أهميَّة كُبرى للسكان المحليين. ومعظم هؤلاء السكان الرُحَّل معروف بازدرائه المتأصِّل للسَّكن الثابت. كما أن موقعهم مكَّنهم من الاستفادة من حريَّة التجارة والخدمات وفرص العمل على جانبي الحدود. ومن الواضح أنه ليس كل علاقات الحدود إيجابيَّة. والصراعات منتشرة عبر الجانبين، وهذا ما أدَّى إلى نشوء "الحركة". فكثير من مقاتليها وبعض من قادتها عرفوا أبجديَّة الحرب عبر هذه العلاقة، الأمر الذي سنشرحه لاحقاً في هذا الكتاب. وتجاربهم أثرت تجربة جيش "حركة العَدْلِ والمُسَاوَاة" وحقنته بالقُدرات المُتميِّزة.

تنظيم جيش "حركة العَدْل والمُسَاوَاة"

في الفقرات التالية سأسعى إلى شرح تنظيم جيش الحركة والذي يتشابه مع تنظيم "حركة تحرير السُّودان"، إذ أن هنالك مشتركاتٍ بينهما. وأنبِّه القارئ إلى التأمُّل في الجدول ليرى

كيفيَّة تكوين جيش "حركة العَدْل والمُسَاوَاة". فرئيس كل وحدة يترتب تصاعُدياً من الملازم إلى العميد. والجدول يُقارن هيكل جيش "العَدْلِ والمُسَاوَاة" مع هياكل الجيش البريطاني/الأيرلندي التي ورثها السُّودان منذ أيامِ الاستعمار. وغنيٌّ عن القول إن هذا الهيكل يتصفَّى وصولاً إلى "حركة العَدْلِ والمُسَاوَاة" والكليَّة الحربيَّة. والمثير للدهشة أن القوَّات المسلحة بدَّلت قليلاً في بنية الجيش الموروثة. والتغيير الوحيد الذي أحدثته الكليَّة كان تغيير أسماء الرُتب الموروثة من الجيش البريطاني/التُركي إلى العاميَّة العربيَّة. وفي الفقرات القادمة سوف أشير إلى بعض أوجه التشابُهات التاريخيَّة التي لاحظناها في جيش "حركة العَدْلِ والمُسَاوَاة".

المملكة المتحدة/أيرلندا		**العدل والمساواة/حكومة السودان**	
الوحدة	**عدد الجنود**	**الوحدة**	**عدد العربات**
سكواد	٦ – ٩ جنود	فرقة	عربة و٩ جنود
بلاتون = ٣ فرق	٢٧	فصيلة = ٣ فرقة	٣ عربة × ٩ = ٢٧ جندي
كومباني = ٣ بلاتون	٢٧ × ٣ = ٨١ جندي	سريَّة = ٣ فصائل	٩ عربات × ٩ = ٨١ جندي
بتاليون/ريجيمنت = ٣ كومباني	٨١ × ٣ = ٢٤٣ جندي	كتيبة = ٣ سريَّة	٢٧ عربة × ٩ = ٢٤٣ جندي
بريجيد (٢-٣ بتاليون)	١٠٠٠ -١٥٠٠ جندي	لواء = ٢ – ٣ كتيبة	٦٠ - ٩٠ عربة
ديفيجن = ٢-٣ بريجيد	٢٥٠٠ -٣٠٠٠ جندي	شعبة = ٣ لواء	-----
كورب = ٢-٣ ديفيجن	-----	متحرِّك = ٣ شُعَبْ	-----
جيش	-----	جيش	-----

كما يُبيِّن الجدول أعلاه، فإن تكوين جيش "حركة العَدْلِ والمُسَاوَاة" يُعَدُّ حديثاً ومتميزاً، وهو يُشبه النموذج الأوروبي

أكثر من أي نموذج آخر. صحيح أن أياً من ضُبَّاط "حركة العدل والمساواة" لم يتخرَّج من الكليَّة الحربيَّة في الخرطوم. ومع ذلك، عمل بعضُهُم، إما كضُبَّاطٍ كبار في الجيش مع القوَّات المسلحة السودانيَّة، أو تدرَّبوا على يد بعض أفراد الجيش الحكومي. والهيكل التنظيمي المُعتمد في جيش "حركة العدل والمساواة" يأخذ في الاعتبار بوضوح التفكير العسكري للقوَّات المسلحة السودانيَّة. والفرقة تمثل أصغر نواة في جيش الحركة. وفي الواقع، فإن حمولة السيَّارة من جنود الفرقة تبلغ ما بين سبعة إلى اثني عشر جندياً. ولا يوجد أدنى شك في أن هذا أمر متميِّز وقاصر على هيكليَّة جيش الحركة.. فـ"شاكا" الذي ينتمي إلى "الزولو" في حربها عام ١٨٧٠، كان يعتمد ما بين خمسة إلى عشرة جنود ليكونوا فرقته. أما المهدي، فكان يستخدم وحدات من ٢٥ فرداً، أربع منها تشكل مائة بقيادة ما يُسمَّى بـ"رأس الميَّة" ولكن الجيوش الأوروبيَّة الحديثة تضم من ستة إلى تسعة أفراد حتى يُشكِّلوا فرقة.

أما فرقة "حركة العدل والمساواة" فتعطي فكرة عن نجاحها في الدمج بين التخطيط التقليدي والغربي الحديث مع ما هو مألوف. ولكن ما نراه في هيكليَّة فرقة الحركة وهي شيء أكبر من مجرَّد فكرة الدمج. وهو نهجٌ مبتكر لغرس اختراعات العولمة في البيئة المحليَّة. وقد أسفرت هذه الهيكليَّة عن نوع قتالي جديدة يستحق إدراجه في الدراسات العسكريَّة الحديثة.

فرقة "حركة العَدْل والمُسَاوَاة" تتكوَّن من حمولة سيارة من الجنود، بوصفها تعمل كمجموعة متعاونة تتقاسم قدراً من القتال. فالسيَّارة عادة ما تكون 'لاندكروزر' مع التخلص من سقفها، وهو أمرٌ أساسي لفرقة الحركة. وتعديل السيَّارة يسمح بالرؤية البانوراميَّة الكاملة لوضع المنطقة والمعركة معاً، ويساعد أيضاً في التمويه ضد الطائرات العسكريَّة، ويتحوَّل الـ'لاندكروزر' المُحمَّل بالجنود أثناء المعركة إلى القوَّة المميتة. وهكذا حققت ميكانيكا "حركة العدل والمساواة" المهارات

الأسطوريَّة في تكييف عربة الـ'لاندكروزر' لاحتياجات الفرقة. وعندما يستولى الجنود على سيَّارة جديدة في المعركة، فإنها تأخذ منهم ما بين ١٥ إلى ٢٠ دقيقة لإزالة السقف والزجاج، ثمَّ يمضون إلى حال سبيلهم.

"ذبح السيارة"، وهو التعبير التي يستخدمونه عند تفكيكها، ويأخذ وقتاً أطول قليلاً من الساعة لتكون جاهزة بعد تزيينها بآياتٍ قرآنيَّة ورسوماتٍ أو نقوش تشبه فن الكتابة على الجُدران، وهو عملٌ يقوم به الجنود الأميُّون. ولكن بعد دخولها المعركة تكتسب السيارة شكلاً جديداً، إذ ترتسم بآثار الرصاص على سطحها. وسيارة "القائد بخيت" مثالٌ جيِّد في هذا الخصوص، فلديها ١٤ ثقباً ناتجاً من أثر الرصاص المنهمر عليها. (انظر فصل "القائد بخيت").

من ناحية أخرى، فإن مفهوم "الضرا" أمرٌ مهم لالتقاط جوهر فكرة فرقة "حركة العدل والمساواة". فـ"الضرا" هو مكان الأكل العام في ريف السُّودان، ويشير أيضاً إلى تبادُل الغذاء مع مجموعة تتكوَّن من أعضاء من الأسرة الممتدَّة والجيران القريبين. وتقاسُم الطعام يحوِّل المجموعة إلى وحدة متماسكة، أقرب إلى الأسرة الواحدة. وفي الثقافة السودانيَّة، نجد أن الانتماء إلى مجلس "الضرا" يعزِّز العلاقات القويَّة ويُعَدُّ من المُحرَّمات أن تخون عضو "الضرا".

قائد الفرقة عادة ما يكون أكبر سناً وأكثر خبرة، ويُعامَل كأحد شيوخ الأسرة الكبيرة المُمتدَّة الجذور. وكثيراً ما يستخدم مصطلح "عم" أو "عمُّو" في استبدالٍ لرُتبة رئيس الفرقة في الجيش. ويُقابِل رئيس المجموعة هذا التعامُل بالخشوع، الذي هو أقربُ إلى ذلك الخشوع الذي يُمنَح لرؤساء الأسر الممتدة. وفي آخر كتاب لي عن "حركة العدل والمساواة" أشرتُ إلى أن أعضاء فرقة "الدكتور خليل إبراهيم" يتعاملون معه كـ"خالٍ"، ويرفضون حتى التدخين أمامه. وهذا هو بالضبط نوعٌ من

التبجيل بل والتقديس الذي يُمنَحَ لكبار الشيوخ في مجتمعاتنا الريفيَّة السودانيَّة.

غنيٌ عن القول أن قائد الفرقة ملزمٌ أخلاقياً بالتعامُل مع أعضاء فرقته كأبناء له، ولكنها هي العلاقة التي تأتي بتعقيدات كثير. وأهميَّة تطوُّر ورعاية مثل هذه العلاقات مذكورة بشكلٍ أوسع في الدراسات العسكريَّة منذ فترة طويلة، وفيلسوف الحرب الصينيَّة البارز من القرن الرابع قبل الميلاد أعلن: **«عامل جنودك كما أطفالك، ولذلك فإنهم سوف يتبعونك أينما كنت تقودهم. أنظر إليهم كأبناء مقرَّبين، وسوف يقفون إلى جانبك حتى الموت».**

لكن المرء لا يحتاج إلى أن يذهب بعيداً إلى الوراء في التاريخ لتأكيد هذه النقطة. فـ"السير وليام سيلم"، قائد القوَّات البريطانيَّة في الجيش الرابع عشر في بورما (١٩٤٤)، وكان استراتيجياً كبيراً تمكَّن من تنمية هذه العلاقة مع الجنود. ونتيجة لذلك، خفَّضت قوَّاته رتبته، وكانوا ينادونه ببساطة "العم بيل"، وهو لقبٌ أكثر حميميَّة. والقائد الفرنسي الكبير نابليون، حافظ على تنمية علاقات مماثلة مع قواته.

فرقة السيَّارة يتم تجهيزها باستمرار لتكون قابلة للقتال والتحرُّك في بضع ثوان. وسيارة الفرقة تحوي الغذاء والماء والذخيرة وأمتعة الجنود الشخصيَّة لتسهيل التنقل السريع. الجنود الأوروبيون يفضلون حمل الحقيبة التي تحتوي أيضاً المواد الغذائية والبطانيات وقطع المنسوجات الصوفيَّة والأمتعة الشخصيَّة.. إنهم يحملونها على ظهورهم، ولكنها من علامات الكارثة أن تترك هذه حقيبة المُعدَّات وراءك في ساحة المعركة. وجنود القوَّات المسلحة السودانيَّة يستخدمون أيضاً طرقاً مماثلة في حمل الأمتعة. والماء بالنسبة للجنود السودانيين أهمَّ عنصر في الحقيبة. ولكن "حركة العدل والمساواة" لديها إستراتيجيَّة مختلفة عندما يتعلق الأمر بعدَّة الجيش.

لثقل الحقيبة التي تخص الفرد العسكري، يتم وضعها على السيَّارة بعد استخدامها. ودعني أعيد وصف الحقيبة كما فعلت في مكان آخر. فهي: **«تشمل معطفاً ضخماً واقياً من المطر في حجم ملاية سرير مزدوج. وبها حصيرة، ولكن يمكنك طيَّها من حولك عندما تمطر. تحوي أيضاً فراشاً صغيراً، ووسادة، وناموسية، فضلاً عن بطانيَّة فاخرة من النوع الذي يمكن أن تجده فقط في فنادق باهرة في أفريقيا. وعلاوة على ذلك، تحتوي الحقيبة زوجاً من الأحذية الجلديَّة مع عدَّة الزي العسكري الكامل، وبالطبع تحتوي على بندقية»**.

حقيقة أن حقيبة جيش "حركة العدل والمساواة" الفاخرة تجذب الحَسَدَ من جانب جنود القوَّات المسلحة السودانيَّة. ففي أعقاب غزو "حركة العدل والمساواة" أم درمان عام ٢٠٠٨، عرضت حكومة الخرطوم واحدة من تلك الحقائب على شاشة التلفزيون من أجل تشويه سمعة الحركة. وقال الإعلام الحكومي إن "حركة العدل والمساواة" تملك المال الذي يأتيها من الدول الغنيَّة، وعازمة على زعزعة استقرار البلاد المُحِبَّة للسلام.

بالنظر إلى أن جيش "حركة العدل والمساواة" قد بدأ كفاحه في غرب السُّودان، كان من المتوقع أن تؤدِّي الجمال والخيول دوراً محورياً في حربها. فالجمال والخيول هي مناسبة للبيئة، والمُجنَّدون لا يحتاجون إلى تدريبٍ على امتطاء ظهور الخيل. وعلاوة على ذلك، فتاريخ حرب السُّودان ملئ باستخدام مثل هذه الحيوانات في الحرب، ولكن لا يمكن القول إن ذلك لم يسبِّب بعض المشاكل. فجيش المهدي (١٨٨٩-١٨٨٣) اعتمد في المقام الأول على المُشاة، على الرغم من أن الجماعات العرقيَّة التي انضمَّت إليه كانت تستخدم الخيول والإبل في أرض المعركة. وفي معركة شيكان التي دَحَرَ فيها المهدي جيش هكس باشا في سبتمبر ١٨٨٣، استخدم المهدي أربعة آلاف من المُشاة، الذين استخدموا الخيل. وهذا العدد لا يساوي

شيئاً عندما نضع في الاعتبار أن الحجم الإجمالي لجيش المهدي كان يبلغ نحو خمسين ألفاً.

كان لهيكس نفسه تجربة مريرة في استخدام الإبل في حملته القاتلة. وبينما استخدم ستة آلاف من الإبل، وجد نفسه في كارثة حقيقيَّة في ساحة المعركة بسبب انشغاله بأزمة إطعام هذا العدد الهائل من الإبل. وسلاطين باشا وصف المأساة بأنها: **«غابة من رؤوس الإبل ورقابها مجتمعين في وسط تشكيل مربَّع، وذلك ما جعل عدوه يسدر في احتفاليَّة صاخبة.. حتى إن أفقر قنَّاص يستخدم بندقية قديمة لا يمكن أن يخفق عندما يُصوِّب نحو هذه الجمال التي تشكل ما يشبه الغابة. ولا عجب إن تمَّ تدمير جيش هيكس إلى آخر رجل»**.

لدى الخيول مشاكلها أيضاً. فهي ضعيفة في الحرب، ناهيك عن عبء تغذيتها من ناحية توفير الماء لها. وعلاوة على ذلك، فإن الجيوش البريطانيَّة قللت من القدرات القتاليَّة للخيول السودانيَّة. ففي معاركها المُبكِّرة ضد أنصار المهدي في شرق السُّودان بين عامي ١٨٨٣ و١٨٨٤، فضَّل البريطانيون المُهور الهنديَّة المُستوردة إلى السُّودان عبر مصر. ولكنها أيضاً لم تخلو من جلب المتاعب، ولكونها استُورِدَت عن طريق السِّكك الحديديَّة، فإنها كانت تعُضَّ بعضها بعضاً، فضلاً عن كثرة جموحها.

لقد استقرَّ رأي "حركة العدل والمساواة" على تجاهُل استخدام الخيول والجمال في حربها، واختارت بدلاً من ذلك سيَّارات "بيك آب"، لطبيعة قتالها السريع، وقُدرتها على الحركة الدائمة. فالخيول والجمال تتطلب إسداء الاهتمام بها وذلك ما لا يمكن توفره، وحركتها بطيئة وتعيق التنقل السريع الذي هو أمرٌ أساسي لإستراتيجيَّة الحركة العسكريَّة.

الأسطُر أعلاه تبيِّن الجانب التنظيمي المهم لجنود "حركة العدل والمساواة"، ولا سيَّما أعضاء فرقة السيَّارة. فهُم في

الواقع ليسوا من المُشاة الذين يعتمدون على أرجُلهم ولا يوظفون الحيوانات في حركتهم. ومصطلح "المُشاة" لا ينطبق على جيش الحركة، وبهذا هذا المعنى فإنه لا توجد كتائب مُشاة في "حركة العدل والمساواة" على الإطلاق.

الشيء الآخر، أن "حركة العدل والمساواة" تضع التدريب كأهميَّة قُصوى، وليس لديها الصبر على تبذير رصاصة واحدة. وعندما تتحدَّث مع أي جندي من الحركة، فإنه سوف يقول لك إنه يتم تدريبه على إطلاق الرصاصة المميتة فقط. وجنود "حركة العدل والمساواة" في كثير من الأحيان يسخرون من جنود القوَّات المسلحة السودانيَّة، كون أن تدريبهم يكلف مجرَّد خمس طلقات، اثنين منها لإحماء البندقيَّة، وثلاث لمحاولات التصويب. وبالتالي فإن جنود حركة العدل والمساواة بحُكم تدريبهم هُم أبعد ما يتم تصنيفهم بأنهم من الجُنود المُشاة.

كون أن نقول إنه ليس لدى "حركة العدل والمساواة" مُشاة فذلك قد يخلق إشكاليَّة مصطلح أخرى. وقوَّات "مُشاة الخيول" هو مصطلحٌ آخر يستخدم، ما يُسهم في تبديد الصورة التقليديَّة لمقاتلي المُشاة الذين يسيرون على الأقدام. وهذا ما يخلق المزيد من الارتباك بشأن الفرق بين المُشاة و"مُشاة الخيول". وفي تاريخ الحروب، يُشارُ إلى مُشاة الخيول بأنهم الجنود المُدرَّبون بمستوى عالٍ، إذ يقاتلون من على الخيول. وبالتالي يمكن للمرء تصوُّر أفواج الإبل التابعة للقوَّات البريطانيَّة والتي استُخدمت ضد أنصار المهدي و"مقاتلي الفيلة" الذين استخدمهم هانيبال قبل الميلاد.

هناك سلالة جديدة من الخيول ظهرت في وقتٍ لاحق في الحربين العالميَّتين الأولى والثانية مع بداية اكتشاف السيَّارات. وقاموس أكسفورد يعرف هذه الفئة من الجنود باسم "الجُنود الجُدُد الذين يقاتلون من على المركبات المُدرَّعة". ومصطلح المركبات المدرَّعة لا ينطبق على جنود "حركة

العدل والمساواة". فمركباتها ليست على ذلك النحو، على الرغم من أن الجنود يقاتلون من دون ترجُّلٍ.

بسبب كل هذا، فإن جنود "حركة العدل والمساواة" يظهرون بصورة غير تقليديَّة وتخالف التصنيفات العسكريَّة. فهُم ليسوا الجنود المُشاة، أو مُشاة الخيول، وليسوا أي شيء آخر يمكن أن تصنفهم به الدراسات العسكريَّة. لكنهم يجمعون بين عناصر من المُشاة، ومُشاة الخيول، والمركبات المدرَّعة.

ذكرتُ في وقتٍ سابق، أن "حركة العدل والمساواة" تقسِّم وحدات جيشها إلى ثلاثة أجزاء. وهكذا نجد فوق مستوى الفرقة توجد ثلاث فرق تكوِّن فصيلة، وثلاث فصائل تكوِّن سريَّة، وهكذا دواليك. ويستخدم هذا النمط من التجزئة في هيكليَّة الترتيب العسكري في النظام البريطاني، ولكن القوَّات المسلحة السودانيَّة و"حركة العدل والمساواة" لديها تقديراتها الخاصة في تكوين جيوشها. ففي الحركة، عندما تصبح الوحدة فصيلة، تشرع في القتال. ويمكن للقائد الإبقاء على الاحتياطي المناسب من دون الحصول على خسائر في القوَّة البشريَّة.

بالتأكيد، فإن "حركة العدل والمساواة" ورثت التقسيمات الثلاثيَّة الأبعاد لوحدات جيشها من الثقافة العسكريَّة للقوَّات المسلحة، وهي في الأصل بريطانيَّة. وكان جيش المهديَّة يُقسِّم وحداته إلى رباعيَّة الجمع، ويمكن بالتالي أن تخفض كمصدر لحركة العدل والمساواة في هذا الصدد رُبع الوحدة العسكريَّة للمهديَّة هو بمثابة هيئة إداريَّة، ولكن هذا يُسبِّب عامل تكتيكي معقد. مهما كان المصدر، فإن تقسيم "حركة العدل والمساواة" لوحدات جيشها تعطي معقوليَّة عسكريَّة.

جيش المهدي مقسَّم بناءً على خُطوطٍ ذات طابع عرقي، وكل واحد تحت راية محدَّدة مع اللون المميز. وهكذا يكون لديك العلم الأسود لـ"الراية الزَرْقا" من غرب السُّودان، والعلم الأحمر لـ"الراية الحَمْرَا" لشعوب نهر شمال الخرطوم، والعلم

الأخضر لـ"الراية الخَضْرَا" التي تتشكَّل من المنطقة الوُسطى. وكل راية مُقسَّمة إلى أرباع، يتكوَّن كل منها من مئة جندي، ويقودها قائد يحمل عنوان "رأس المِيَّه". والوحدة التي تتكوَّن من ١٠٠ يتوزَّعون إلى أربع وحدات لكُلٍ منها، وكل ٢٥ تُدعَى "مقدميَّة"، بقيادة "مُقدَّم". وكلما تذهب إلى أسفل الهرم، تجد المجموعات أكثر تجانُساً عرقياً، وهُنا تختلف المهديَّة عن "حركة العدل والمساواة". وأتردَّد في القول بأن الطابع العرقي لقوَّات المهدي كان أمراً مقصوداً، وإنما كان ناتجاً من الخلفيَّة الإثنيَّة لقادة المجتمع، الذين يتوافدون لدعم المهدي. فهُم ينضمون مع إثنيَّاتهم التي تجمع في كثير من الأحيان أقاربهم وجيرانهم، ومن هنا كان التقسيم الهيكلي لجيش المهديَّة قد بدا على أساس عرقي.

أما الطابع العرقي لسياسة سودان اليوم، فهو الذي أدَّى إلى الحال الراهنة التي تعيشها البلاد. وفي منشور "الكتاب الأسود"، شجبت حركة العدل والمساواة الطابع العرقي المُؤدِّي إلى هيمنة ثلاث مجموعات عرقيَّة على نظام الحكم في السُّودان على حساب كل الآخرين، وهُم "الجعليين"، "الشايقيَّة" و"الدناقلة". ومن الجدير تأكيده هنا، أن ليس كل أعضاء هذه الجماعات العرقيَّة تدعم هذا التوظيف الفوضوي للفكر السياسي فقد أظهر العديد من أبناء الشمال الالتزام القوي نحو قيم العدالة وعبَّروا عن معارضتهم بقوَّة للنظام الحالي المُختل. وبعضٌ منهم يقاتلون حالياً ضد هذا النظام مع "حركة العدل والمساواة" في حين أن آخرين يبذلون التضحيات التي سبَّبت لهُم فقدان الوظائف، والاعتقال في "بيوت الأشباح" والذهاب إلى المنفى.

إن توظيف العِرْق تمَّ في أجزاءٍ أخرى من البلاد لإجهاض أي إمكانيَّة لوحدة مُهمَّشي السُّودان، وهذه المساعي بلغت ذروتها في جنوب السُّودان، الذي أصبح دولة مستقلة، وقد عانت مناطق دارفور وكُردُفان من هذه السياسة. وهناك قد تمَّ تقسيم أوسع للناس على أساس أنهم عَرَب وغير عَرَب

بواسطة النظام الحاكم. وهناك عدد هائل من المصطلحات الفضفاضة التي لا معنى لها، توظف في هذا الجانب، مثل الهُويَّة العربيَّة وكذلك الأفريقيَّة، ومصطلح "الزُرقة"، "الرُحَّل" و"الأبَّالة"، وغيرها، وظهرت هذه المصطلحات لترسيخ الشقاق بين الناس الذين تقاسموا الفضاء والتاريخ والموارد منذ عدة قرون. ولقد وعت "حركة العدل والمساواة" منذ بدء تشكيل جيشها في وقتٍ مُبكِّر بمخاطر توظيف العِرْق وقُدرته على إعاقة قضيَّتها. ويُعتَبَر نموذج المهديَّة لتقسيم جيشها على أسُسٍ عرقيَّة ببساطة أمرٌ غير حكيم وغير مناسب لهيكليَّة قوَّات الحركة، وبالتالي تجنبت بوعي تقسيم جيشها على أسُسٍ عرقيَّة، بدءً من تكوين الفرقة إلى أعلى مستوى.

تجنيد جيش الحركة

"حركة العدل والمساواة"، مثل أي منظومة أخرى، سعت بنشاط إلى تجنيد متطوِّعين جُدُد للانضمام إلى جيشها. وطبيعة جيش الحركة وهيكلها وموقفها هو اتخاذ الحذر من عدوِّها، وذلك يتطلب اعتمادها على متطوِّعين حقيقيين. ولا توجد ثكنة مغلقة للحركة، وغالباً ما تقيم قواعدها على مسافة قريبة من المناطق التي تسيطر عليها القوَّات المسلحة السودانيَّة. والحركة لا تستطيع ببساطة منع جنودها الذين ينوون المغادرة، وبعضٌ منهم قد فعل ذلك في الماضي. ولكن الشرط الوحيد الذي يمكن أن تفرضه الحركة على هؤلاء الجنود، هو إجبارهم على ترك معدَّات الحركة من عربة أو أي وسيلة أخرى خلفهم. وعندما تسمح الحالة الأمنيَّة، فإن جنود الحركة يمكنهم أن يعودوا لحضور المناسبات الاجتماعيَّة، وأولئك الذين تعبوا من الحرب – ببساطة – يمكن لهُم الهرب إلى الحياة المدنيَّة. ومن خلال دراساتي السابقة للحركة، فإنها لا تبذل أي جهدٍ لمتابعة مثل هؤلاء الجنود.

قبول المُجندين الجُدُد في الجيش هو أيضاً أمرٌ محفوفٌ بالمخاطر. فالحركة والحكومة تسعيان إلى اختراق جيوش

بعضها بعضاً. لذا فلا بُدَّ للمتطوِّعين الجُدُد القادمين إلى "حركة العدل والمساواة" أن يتعرَّضوا إلى فحصٍ فائق، وذلك تفادياً لدفع الحكومة بجاسوس لاختراق الحركة، أو من هُو أسوأ من ذلك بكثير.

لتجنُّب مثل هذه المخاطر، فقد خططت "حركة العدل والمساواة" بالفعل أن يجتاز جميع المجندين الجُدُد في الجيش التدقيق الأمني قبل بدء التدريب. وعندما يتعلق الأمر بتجنيد مقاتلين جُدُد، فإن الحركة أثبتت نجاحاً باهراً في هذا الصدد. وفي غضون بضع سنوات، صار جيش الحركة ثالث أكبر جيش في السُّودان، قبل الانفصال، إذ يأتي ترتيب جيشها بعد جيشي الحكومة وجيش الحركة الشعبيَّة، قطاع الشمال.

إذا كان هناك حقلٌ واحد تحتاج الحركة أن تبذل فيه مزيداً من الجهود لتنميته، فهو حقلُ التجنيد. لصالحها وببساطة، لا تحتاج حركة العدل والمساواة إلى أن يطابق عدد قوَّاتها عدد القوَّات المسلحة ليصل إلى مئة وخمسين ألفاً. بعد كل شيء، وكما هو معلوم فإن حرب الغوريلا واستراتيجيات جيش حركة العدل لا تحتاج إلى مثل هذا العدد الهائل من المقاتلين.

البشير نفسه يجب أن يكون على علم جيد بهذه الحقيقة. فهو عندما أطاح بالحكومة الديمقراطية عام ١٩٨٩ لم يكُن ليحتاج إلاَّ لعددٍ لا يزيد عن ثلاثمائة مقاتل ملتزم. وتعزَّز نجاح حركة العدل والمساواة في التجنيد، وغيره، عن طريق عدَّة عوامل، بعضها جزءٌ من التشكيل التاريخي للسُّودان الحديث والخيارات السياسيَّة غير الحكيمة. فعلى طول السنين، لم تجد أجيالٌ من الشباب، خاصة في دارفور وكُردُفان قدراً مقبولاً من التنمية. فما يبذلونه من دور شاق في التعليم، وكذلك في المجالات الأخرى للحياة غير مُثمر.

أصبح من الشائع في أوساط الشباب أن يُدركوا أن المستقبل أمامهم أقل أماناً بكثير من أمان الأجيال التي سبقتهم.

فالتمييز الصارخ في سوق العمل الوطني لا يتيح لهم مجالاً للتوظيف. ورغم تحصيلهم العلمي، فإنهم يبقون عاطلين عن العمل، وبالتالي يضطرون إلى الهجرة إلى الدول المجاورة. هذه الحالة المثيرة للشفقة خلقت استياءً عميقاً في صفوف الشباب تجاه النظام. وباختصار، حوَّل هذا النظام الظالم كل الشباب إلى متمرِّدين.

"حركة العدل والمساواة" ظهرت في اللحظة الأنسب في تاريخ هذه المناطق المحاصرة بعد تصاعُد الإحباط، وكانوا على استعداد للقتال. وفي الثقافة السودانيَّة، مثلما هو الحال في واقع كثير من المجتمعات، أن الموت من أجل قضيَّة أشرف من الموت فقراً.

من ناحية أخرى، فإن قادة الخرطوم لم يتعلموا أن الحرب أيضا تحكمها أخلاقيَّات وآداب عامة. وكما عبَّر غرين، فإن: **«الحرب قذرة في حدِّ ذاتها، حيث كل شيء فيها مباح»**، ولذلك أصبحت إستراتيجيَّة "الأرض المحروقة" منذ بدء الصراع المسلح في المنطقة سياسة أصيلة للذين يخوضون الحرب لصالح الخرطوم، والبشير نفسه ساهم من خلال الخُطب التحريضيَّة في تأييد هذه السياسة على نطاقٍ واسعٍ في العديد من المناسبات، وبعض هذه الخُطب ساهمت في تعضيد لائحة الاتهام التي قدَّمتها المحكمة الجنائيَّة الدوليَّة ضده. ولعلَّ نتيجة هذه الخُطب واضحة وهائلة. فالمدنيون الأبرياء الذين لم يكونوا مقاتلين ظلوا يعيشون تحت وابل طائرات الأنتونوف. فحتى الآن قد أفرزت الحرب ما يصل إلى نحو خمسمائة ألف ضحيَّة وحرق نحو خمسة آلاف قرية وعشرة آلاف حالة اغتصاب والعديد من الجرائم المروعة الأخرى. وعلى النقيض من ذلك حافظت "حركة العدل والمساواة" على سياسة نظيفة لخوض الحرب. إذ يتم التعامُل مع أسرى الحرب وفقاً للقوانين الدوليَّة بلا أدنى تردُّد.

وتشهد العديد من المنظمات الوطنيَّة والدوليَّة على سلوك جيِّد للحركة في حربها ضد الحكومة، وبعض هذه المنظمات ساعد الحركة في صياغة سياسات حربها، بينما ساهم آخرون في إطلاق سراح سُجناء الحرب الذين احتجزتهم "حركة العدل والمساواة". وكانت وسائل إعلام الخرطوم حتى، وهي غير متعاطفة البتة مع الحركة، أثنت على سلوك جيش حركة العدل والمساواة أثناء غزوه أم درمان. وعلى عكس ما هو شائع في عمليات القوَّات المسلحة السودانيَّة، لم ينهب جنود الحركة المدينة أثناء الغزو على الإطلاق. فجنود "حركة العدل والمساواة" كانوا يدفعون النقود لتناول الشاي وتدخين السجائر والماء بيدٍ واحدة، مع الحفاظ على الزناد باليد الأخرى.

كانت الحرب القذرة من جانب حكومة الخرطوم، هي المحفِّز الرئيسي في النجاح الباهر لخطة تجنيد "حركة العدل والمساواة". ففي كل مرَّة يتم قصف قرية، يتدفق شبابها الباقين على قيد الحياة على بوابة الانضمام إلى "حركة العدل والمساواة"، وانضمامهم هذا إما للانتقام، أو تقوية المُثل العُليا للحركة. ولم تترك ممارسات التحرُّش والسجن والإذلال من خلال الإرهاب والاغتصاب ومصادرة وتدمير الممتلكات خيارا أمام لكثير من الشباب سوى الانضمام إلى أقرب حركة مسلحة، "حركة العدل والمساواة"، أو "حركة تحرير السُّودان".

ولحظنا أن مخيَّمات النازحين لا تمثل ملاذاً آمناً، وغالباً ما يخضع نفس الأشخاص المقيمين في هذه المخيَّمات إلى حراسة من الذين دُمِّرَت قراهم. فالنساء الذين يخرجون من المُخيِّمات لجمع الحطب يتعرَّضون إلى الاغتصاب، ولنا أن نتصوَّر العار التي يصيب الرجال الذين لا يتمكَّنون من حمايتهن، كما تُملي عليهم التقاليد.

والحالُ هكذا، يبقى أمام هؤلاء الرجال مع خيار واحد فقط، وهو القتال من أجل الدفاع عن شرفهم. فأخبار استشهاد

الأقارب والأصدقاء ليست مجرَّد مصادر للغضب والحُزن فحسب، بل إنها تولد الفخر والعار في نفس الوقت.. فخرٌ لأولئك الذين حققوا الشهادة والخزي والعار لمن اختار البقاء في المُخيَّمات، مع امتلاكهم لفرصة ضئيلة لتقديم أي مساهمة للأسرة والمجتمع. ولهذا ليس من المستغرب أنه بعد أيام من فقد جندي في الحرب يتزاحم إخوته وأبناء عمومته وأصدقائه للانضمام للحركة ليحلوا محله.

في الواقع، إنه ليس هناك أفضل شيء لنجاح أداة للتجنيد من إبراز الأداء الممتاز وتحقيق النجاح لجيش "حركة العدل والمساواة" عبر عشرات الانتصارات ضد عدوِّها. ففي كل مرَّة تنتشر أنباء عن انتصار جديد لـ"حركة العدل والمساواة" الجديدة تجد عدداً من المتطوِّعين يدُقون بابها. فبعد أسابيع فقط من غزوة أمدرمان، شارك رئيس "حركة العدل والمساواة" في تخريج ألفين من المجندين الجُدُد. ولقد أصاب القلق "حركة العدل والمساواة"، آنذاك، من ناحية كيفيَّة تدريبهم، وإطعامهم والاحتفاظ بهم.

التدريب

الواقع أن القوَّة العسكريَّة لـ"حركة العدل والمساواة" ملموسة من خلال انتصاراتها المتكرِّرة ضدَّ القوَّات المسلحة السودانيَّة الأكثر مهنيَّة. والسبب في ذلك يعود، إضافة إلى أسبابٍ أخرى، إلى التدريب المُمتاز الذي يجده المجندون. ففي عام ١٩٩٢، صادقت حكومة البشير على قانون الخدمة العسكريَّة، وذلك في محاولة يائسة لزيادة عدد مقاتليها غير النظاميين. ولكن اتضح فيما بعد خطأ إجازة القانون وتداعياته الواسعة في حاضر ومستقبل السُّودان. فلو أن المتوقع من التجنيد أصلاً هو الإسهام في هزيمة الحركة الشعبيَّة، ولكنه صار ضدَّ رغبات الحكومة التي دفعت ثمناً باهظاً في ذلك.

نذكُر أن قانون الخدمة العسكريَّة كان ينُصُّ على أن على جميع حاملي الشهادة الثانويَّة السودانيَّة تسليم أنفسهم إلى وزارة الدفاع من أجل استكمال تسجيلهم في الجامعات، وبالطبع لا يمكنهم فعل شيء سوى استكمال التدريب العسكري. والنتيجة كانت مذهلة. فالشباب المتعلم في جميع أنحاء البلاد، هو الآن أكثر كفاءة في التعامُل مع مدفع رشاش بشكل أفضل من التعامُل مع الفأس، وهذا وضعٌ مثير للشفقة في بلدٍ غير مستقر وصار عُرضة للتمرُّد المسلح.

فمع القليل من الجهد، يمكن لأي شخص ريفي المغامرة بتشكيل جيش بواسطة حفنة من رشاشات. وهكذا استفادت الحركة بشكل مباشر من هذا القانون. فالعديد من المتطوِّعين الجُدُد يأتون إليها وهُم على قدرٍ معقول من التدريب، وبعضهم يأتون برشاشاتهم. إن ثقافة غرب السُّودان ساعدت أيضاً المُدرِّبين العسكريين لـ"حركة العدل والمساواة"، فالإقليم يَعِجُّ بالبنادق، وأي احتفالٍ لا يكتمل إلا بعد بضع جولات من إطلاق الرصاص. فضلاً عن ذلك، فإن هوايات الشباب هناك استخدام الرشاشات بانتظام في الصيد.

بل إن أي شاب في المناطق الريفيَّة في دارفور وكُردُفان حين يصل إلى سن السادسة عشر، يكون قد حقق بعض الكفاءة في إطلاق النار عبر بندقيَّة. ولستُ بحاجة للذهاب إلى أبعد من السيرة الذاتيَّة الخاصة بي. فعندما كنتُ في سن الرابعة عشرة، أطلقت أوَّل طلقة قتلت بها نسراً. ولم يكُن هناك شخصٌ قد أشرف على التجربة سوى والدي، وتلك علامة قويَّة محفِّزة لهذه الممارسات. وما بين الخامسة والسادسة عشر كنتُ بالفعل أملك المهارة في صنع أعيرة ناريَّة قبل إعادة تعبئة الخراطيش المستخدمة عبر توظيف مواد محلية الصنع. وإذا كنتَ قد وجدت فرصة لمقابلتي وجهاً لوجه، ونظرتُ إلى أسناني الأماميَّة، تأمَّل في أسناني العُليا على اليمين، إذ أنني بطريق

الخطأ كنت أحاول التصويب نحو هدف من خرطوش ردئ، ولقد حدث ما حدث.

على افتراض أنك ما تزال على قيد الحياة، جندياً في الحركة، فبعد انقضاء لحظة المعارك ستكون على استعدادٍ للذهاب إلى صيد "الدباس"، أو السناجب، أو الأرانب. وإذا كنت في جولة صيد كبيرة للغُزلان والنعام، والظباء بالبنادق، فلا بُدَّ أن تعود ثمَّ تنصرف إلى ورشة عمل لمراجعة خطة صيد الحيوانات هذي، من أجل الاستعداد لخُطة أكبر.

فاستخدام البنادق في غرب السُّودان تعزَّز من قبل بما يُسمَّى بـ"صناعة الكوخ"، والتي ازدهرت في زمن السُلطان علي دينار في دارفور، بين الأعوام ١٨٩٨ و١٩١٦. فالبنادق محليَّة الصنع متاحة بسهولة بواسطة نفس الحدَّادين، الذين يصنعون مختلف الأدوات الزراعيَّة. مثلما أن البُدرة السوداء التي تصلح للبارود متوفرة في الصخور المحليَّة.

بذات الطريقة التي يعيد بها ميكانيكي السيارة القديمة إلى الحياة، فإن شخصاً ما يستطيع أن يجعل البنادق المحليَّة الأداة المُفضَّلة للقنَّاصة. وعلى مستخدم البندقيَّة أن يراجع درجة الخطأ في سلاحه ومراجعة الخلل في تهديفه. وباستعمال مثل هذا السلاح، يجب على المستخدم أن يضع في حسبانه مدى قدرته على الانحراف إلى اليمين، وإلى اليسار، وإلى الأسفل، تارة، أو تعديل تهديف البندقية وفقاً للحاجة، تارة أخرى. فالانتباه إلى مثل هذه المتطلبات يتوجَّب مهارة أكثر مقارنة بمهارة استخدامك للبنادق المستوردة، والتي يتم تصنيعها وفقاً لمواصفاتٍ أعلى.

يجب علينا أن نتذكَّر أن حمل البندقيَّة يُعَدُّ بين العديد من المهارات التي يتم تناولها في التدريب العسكري، ولا سيَّما الحاجة أكبر بالنسبة للمجندين الجُدُد، إذ يتم حفزهم على

التكتيكات القتاليَّة، والانضباط، وقواعد الاشتباك، بما في ذلك علاج المقاتلين، وغير المقاتلين.

الإمدادات

قوَّات "حركة العدل والمساواة" ليست مختلفة كثيراً عن جميع قوَّات حرب العصابات، في مجال قُدرتها على استخدام موارد العدو للحفاظ على فاعليَّتها. وهذا المنهج في الدعم معروف بأنه يحول دون استنفاد موارد جيش المتمرِّدين. بل ويعفيه من جهد إنشاء وحراسة خطوط الإمدادات الغذائيَّة، وهذا المنهج مِمَّا يسبِّب صداعاً دائماً للجيوش الرسميَّة للدولة.

بمعنى آخر، فإن جيش المتمرِّدين يخطط للعيش على العدو. فالرئيس السابق لـ"حركة العدل والمساواة"، الدكتور خليل، له حكمة بليغة في هذا المجال، لا تصل إلى وسائل الإعلام غير المتعاطفة مع الحركة. وكما أعلنها، فهو يقول إن "حركة العدل والمساواة" تقاسم ميزانيَّة وزارة الدفاع السودانيَّة مع القوَّات المسلحة. وكان خريف عام ٢٠١٠ خير مثال لذلك. ففي معركة عديلة، سجَّل جيش "حركة العدل والمساواة" انتصاراً على القوَّات المسلحة السودانيَّة، واستولى على مواد موسم كامل للقوَّات المسلحة السودانيَّة في دارفور. وشملت بعض الغنائم وقود الطائرات الذي لم تكُن "حركة العدل والمساواة" لتفعل به شيئاً باستثناء بيعه عبر الحدود للتجَّار المعنيين.

غنيٌ عن القول أن هناك المعدَّات العسكريَّة التي استولى عليها جيش الحركة، وصارت من الأشياء المحجوزة. ولكن جيوش حرب العصابات أيضاً تستفيد من دعم الشعب الذي تناضل من أجله. وتبيِّن كتب التاريخ أن الرئيس ماو كان يعتمد على الفلاحين المتعاطفين معه لإطعام جيشه. هذا الوضع واجهته "حركة العدل والمساواة" أيضاً. ومثلما يقول القائد بخيت: **«نحن نشتري خمسة من الأغنام من الرُحَّل، ولكن**

هناك من يتبرَّع بواحدة إضافيَّة ويقذف بها في الجزء الخلفي من السيارة».

تجدُرُ الإشارة إلى أن جنود الحركة لا يستخدمون البدو في جهد تغذية أنفسهم. فتجربة جيش مثل "حركة العدل والمساواة" منضبطة، إذا جاز التعبير، وحريصة على دعم نفسها بنفسها، ذلك ما جعل السُكَّان يستجيبون إلى خطاب الحركة. فمعركة "مهاجريَّة" التي حدثت عام ٢٠٠٩ تعطي مثالاً آخر في هذا الصدد. فبعد انتصارها على القوَّات المسلحة السودانية في المنطقة، وجدت "حركة العدل والمساواة" استقبال الأبطال في البلدة، إذ توافد النساء لتحيَّة قوَّات الحركة، وحملن صواني الطعام، في حين هرع الرجال لذبح الحيوانات إكراماً للجيش. وكان موظفو "يوناميد" قد شهدوا هذا الحدث، جنباً إلى جنب مع بعض موظفي المنظمات غير الحكوميَّة.

المثير للدهشة، أن تلك كانت المرَّة الأولى التي تتمكن فيها قوات "يوناميد" من دخول المدينة. فهُم كانوا يتردَّدون خوفاً من تعرُّضهم للهجوم من السُكَّان الذين كثيراً ما يرون أنهم يرتبطون بحكومة الخرطوم، بعد أن تنامي لديهم انطباع أنهم ينحازون إلى الخرطوم. ومع ذلك، أظهر التاريخ حالات قليلة من دعم أولئك السُكَّان للحكومة، وهو دعمٌ يمثل خصماً على الذين يقاتلون من أجل تحريرهم. ويوميات "تشي غيفارا" مليئة بقصص تروي كيفيَّة خيانة الفلاحين البوليفيين لمجموعته وإبلاغهم العدو بمواقع مخيماتهم في الغابة.

زيّ الحركة

الفرق الكبير بين جيش الحكومة وبين جيش الغوريلا هو طبيعة المساواة في أوساط أفراد الأخير. فجيش الحركة يستخدم زياً عسكرياً للتمويه، وهو يتجسَّد بشكلٍ متساو، وليس بالضرورة يُعبِّر عن مستوى رُتب الأفراد مثلما يحدُث للجيش النظامي. وفي معظم الأحوال، هذا الزي يحصُل عليه من

السوق المحليَّة للأقطار المجاورة.. تقريباً من تشاد. إلا أن جيش الحركة يستخدم الزي الذي يتحصَّل عليه من جيش الحكومة بحريَّة، وما دام أن هذا الزي يستخدم للتمويه فليس هناك أدنى مشكلة.

إلا أن غطاء الرأس فهو الذي يُميِّز جيش الحركة. فبدلاً من الطاقيَّة الأجنبيَّة الأصل، والمستخدمة بواسطة القوَّات المسلحة والجيوش الأفريقيَّة الرسميَّة، فالحركة تستخدم الغطاء التقليدي المعروف في دارفور بالتحديد. والغطاء المُشار إليه، هو "الكدمول" وهو يقوم مقاماً أكبر من كونه يمثل غطاء للرأس. و"الكدمول" هو عبارة عن مترين ونصف، وطوله اثنتي عشر ذراعاً، وهو مريح للاستخدام.

هذا هو انطباعي عن هذا الزي، كما وصفته في مكان آخر. فـ"الكدمول" يُعَدُّ من أكثر الملبوسات المفيدة التي لم يصنع شبيه لها. فوقاً عن أنه يصلح كغطاء للرأس، فإنه يمكن أن يكون وسادة، ومنديلاً، ومنشفة، وملاية للسرير، وهو البطانيَّة، والضمَّادة. وإذا قُتلت في المعركة فإنه يصلح أيضاً أن يكون كفناً لجسدك.

العديد من جنود "حركة العدل والمُساواة" يُزيِّنون "الكدمول" بالتميمة (الحِجَاب). وهذه التميمة تتكوَّن من الآيات القرآنيَّة المكتوبة والملفوفة بالغطاءات الجلديَّة، وتعلق العديد من هذه التمائم في سلسلة، ويتم ارتداؤها حول العُنق والذراعين. وتستخدم على نطاقٍ واسع التمائم القرآنيَّة في دارفور وأجزاء أخرى من السُّودان بمظنة الحماية من كل الشرور، بما في ذلك الأسلحة الناريَّة. إنها مصنوعة بواسطة حفظة القرآن المحليين، ويمكن الحصول عليها في أسواق متعدِّدة في البلاد، بما في ذلك الخرطوم. وإذا كنت في أي وقت مضى قد امتطيتَ سيارتي، ونظرت حولها، فقد تشاهد تميمة أو تميمتين، وأنا دائماً احتفظ

بها في سيارتي، ويمكنني أن أفقد رخصة القيادة وليس تمائمي.. لذا فانتبه!

الاستراتيجيّات العسكريّة والتكتيكات:

في نواح كثيرة وجدتُ أن تكتيكات حرب "حركة العدل والمساواة" مشروطة بحُكم طبيعتها كقوَّة تنشط في حرب العصابات. فهذه القوّات تبدو في حركة دائبة، وبالتالي فهي في كل مكان دون تخصيص. وحراكها هذا يعطيها ميزة هائلة على العدو، الذي هو بالضرورة متموضع في موقف حرج للغاية، مع عدم وجود هدف واضح لديه للضرب، وحتى إنه يمكن أن يتعرَّض لكمين في أي وقت. فالهجوم المفاجئ عليه، هو السمة المُميِّزة لإستراتيجيَّة جيش "حركة العدل والمساواة". وهو يعتمد إستراتيجيَّة الجنرال الإفريقي العظيم "شاكا"، والذي يبدو أن جُنده ينمو من الأرض ويواجه عدُوه بشكلٍ لا يتوقعه.

السرعة هي عنصرٌ آخر لدى جيش الحركة، وهي تستخدمه بشكلٍ أسطوري. ومِمَّا يضاعف تفوُّق جنود "حركة العدل والمساواة" على العدو إطلاقه النار عليه أثناء التنقل. فقادة الحركة لديهم القليل من الصبر على طريقة "مونتغمري" البطيئة التي تتم بشق الأنفس، ولكن طريقتهم هي أقرب كثيراً إلى مرسوم نابليون الذي هدف إلى أن تكون الجيوش سريعة وليست في وضع خطي، وذلك على العكس تماماً من إستراتيجيَّة القوَّات المسلحة السودانيَّة.

وفي كتابٍ صدر حديثاً عن الحرب والنزاع في أفريقيا، يقلل وليامز من تشكُّل "حركة العدل والمساواة"، وبالتالي يصف الصراع في دارفور بأنه نتاج خلافاتٍ حول تفسير الإسلام، ووصف غزو "حركة العدل والمساواة" للعاصمة بمثابة الحرب الخاطفة.

لا يمكن الاتفاق مع مثل هذا الوصف كليَّة دون بعض التعديل المفاهيمي لمصطلح "الحرب الخاطفة"، التي يحدِّدها

"فريسر" في المقاطع التالية: **«...عليك بالتوظيف الممركزة لقوات المدرَّعات والقوات الجوية لإرباك العدو بالمفاجأة والسرعة وتطويقه، بعد نجاح اختراق، عن طريق التوجهات بعيدة المدى. والهدف هو هزيمة العدو بسرعة عبر عملية قرار موفق...»**.

وبينما تكتيكات "حركة العدل والمساواة" تتخذ السرعة والتفريغ الهائل لطاقة القوَّات، فهي تعتمد على الوقاية المدرَّعة المحدودة. فجيش الحركة ليس لديه قوَّة جويَّة، ويعتبر المدرَّعات والدبابات بطيئة جداً وربَّما هي تمثل عبئاً في حدِّ ذاتها أثناء العمليات. وعلى حد علمي، لم يتم دمج عدد قليل من الدبابات التي استولت عليها جيش الحركة من القوَّات المسلحة السودانية في استراتيجيات معاركها.

فتطويق العدو في الحرب الخاطفة هو تكتيكٌ آخر يتجنبه قادة "حركة العدل والمساواة". طريقة الأفريقي شاكا التوظيفيَّة الانتشاريَّة لجيشه في تشكيل "قرون" لإغلاق جيشه لا تجد تفضيلاً بواسطة جيش "حركة العدل والمساواة". إن مقاتلي حركة العدل والمساواة يلقون بالاً فقط للقول المأثور القديم، ببلاغية كلماته واقتبس منه: **«...لا تحاصر العدو على الإطلاق، بل أترك له مخرجاً.. فالمقاتلون حينما يدركون أنفسهم في مواجهة الموت فإنهم يفضلون الموت في مقابل الهروب. بل إنهم يقاومون بروح قتالية عالية على اعتبار أنه لا يوجد خيار لهم إلا القتال بروح عالية»**.

من المهم أن ندرك هنا أن "حركة العدل والمساواة" لا تهدف إطلاقاً في معاركها إلى إبادة الخصم مثلما يفعل الزولو والأفغان، الذين قاتلوا البريطانيين في عام ١٨٧٨ و١٨٤١ على التوالي. ففي كلٍ من هذه الحالات لم تكُن للمنتصرين مصلحة في إعادة تأهيل جنود العدو أو كسب قلوبهم.

لقد رأى أولئك المقاتلين أنه من المنطقي تماماً بالنسبة لهُم إبادة خصمهم، وبالتالي، جلب "شاكا" خصمه البريطاني إلى وضع أقرب إلى الفناء. وكان مصير البريطانيين في أفغانستان أكثر قسوة من ذلك بكثير. فكامل الجيش البريطاني وعائلاتهم ذُبِحُوا باستثناء أحد الناجين المحظوظين، وهو "الدكتور برايدون" الذي فر بأعجوبة إلى برِّ الأمان، ولكن دون أن يتذكر القليل من تفاصيل محنته.

إن "حركة العدل والمساواة" تعمل تحت ظروف ومعنويات مختلفة، فهي تريد الانتصار على المقاتلين الأعداء على اعتبار أن معظمهم من الذين غُرِّر بهم، أو لديهم القليل من الخيارات في القضية كلها. وعلاوة على ذلك، فإن الخلفيَّة العرقيَّة لجنود القوَّات المسلحة السودانيَّة تأتي من نفس خلفية مقاتلي حركة العدل والمساواة. وهناك قصص كثيرة عن جنود العدو الذين تمكَّنت "حركة العدل والمساواة" من أسرهم لتكتشف أنهم إخوة وأبناء عمومة لأولئك الذين اتخذوهم كأسرى حرب.

حسناً، يجب أن أكون صادقاً وأعترف، فأنا عضوٌ بارز في "حركة العدل والمساواة"، ولكن لديَّ شقيقين يعملان في القوَّات المسلحة. أنها ليست سوى مسألة وقت، وسوف يجدون أنفسهم في مواجهة فتيان "حركة العدل والمساواة". لجميع هذه الأسباب، تركز إستراتيجية معارك "حركة العدل والمساواة" على تحييد العدو، وليس إبادته، وعلى أن تترك له مجالاً ليهرب من المعركة، وهذه خطة متبعة بشكل صارم بواسطة قوَّاتها.

هناك عنصر أخير، يستحق الذكر في تكتيكات "حركة العدل والمساواة"، وهو توظيف قوَّتها الناريَّة بالكامل عندما تكون في المعركة. فاستخدام أسلحة مضادة لدبابات العدو ليس من المألوف في معارك جيش الحركة. ومن جانب آخر، ليس

لديها الوقت الكافي لاستخدام خُطة المُربَّع في معاركها، كما تفعل تشكيلات القوَّات المسلحة السودانيَّة التي تعتمد عليه. فالمُربَّع يستخدم جناحاً خارجياً مغلقاً، وآخر في المنتصف لحراسة القائد ومنزلته. وسيرى القارئ لاحقاً في هذا الكتاب كيف أن قائد جيش العدل والمساواة "وافي" ينتقد كثيراً انشغال القوَّات المسلحة السودانية بالمُربَّع. فعند المعركة ولتجنب النيران الصديقة، يستخدم جنود القوَّات المسلحة السودانيَّة جناحاً واحداً فقط في أي وقت من الأوقات. وكما يقول "وافي" فإن القوَّات المسلحة تجد نفسها مقيَّدة باستخدام ٢٥٪ فقط من قوَّة نيرانها من خلال خطٍ واحد من تشكيلة مُربَّعها.

أما جيش "حركة العدل والمساواة" فيُفضِّل استخدام النار الكامل، ١٠٠٪، هذا إذا ما استثنينا وحدة الاحتياطي البعيدة عن ساحة المعركة. والحركة لا تهاجم الأجنحة كما نصح من قبل القائد نابليون العظيم، وفقاً لتقرير روبرت غرين: **«...تعلم من المعلم الكبير نفسه [نابليون]: المهاجمة من الأمام مفضلة كثيراً. الجنود الذين هُم في مواجهتك سوف يكونون معبأين بقوَّة تركيز لاستخدام القوَّة لمقاومتك. أذهب إلى جناحهم، وهو جانبهم الضعيف. هذا المبدأ ينطبق أثناء المعاركة مع العدو، أو لمواجهة أي حجم منه...»**.

نعم، لمهاجمة الجبهة المحصَّنة للعدو، وهذا هو بالضبط ما تفعله "حركة العدل والمساواة". والهدف هو المُضي مباشرة إلى قلب المُربَّع، حيث قائد العدو. ومن أجل أن تبدأ ذلك الهجوم، إذا كنت قائداً في "حركة العدل والمساواة"، عليك أن تكون على استعداد لقيادة القوَّة الخاصَّة بك في المعركة، لا أن تتركها مخبأة في سلامة مربع صغير في وسط آخر أكبر. فقائد جيش "حركة العدل والمساواة" الحقيقي يتخذ نمط هانيبال. فهو أوَّل من يدخل المعركة، وآخر من يغادرها.

قلب ساحة العدو هُو مركز الثقل بالنسبة له، وهو محور قوَّته، وعند هذه اللحظة يتطلب اختراق ساحته، حتى تتحلل قوَّة

العدو وتتشتت في كل الاتجاهات. ثم بعدها يمكن مطاردة الجنود والتقاطهم بسهولة.

بمجرَّد أن يعطي قائد عملية "حركة العدل والمساواة" إشارته، فانه يُسرعُ لتنفيذ خطته، بينما السيارة الثانية تتحرَّك في موقفٍ مواز ليمينه. والسيارة الثالثة في خط التحرُّكات على يساره، والرابعة إلى مزيد من يمينه، وتتكرَّر هذه الطريقة دواليك، ويبقى الكُلّ في سُرعةٍ لا تصدَّق. وفي غضون ثوان سوف يواجه العدو موجة من سيارات في شكل الهلال تندفع نحو الخط الأمامي من منطقة المُربَّع. وتسمَّى هذه العمليَّة بخُطة المظلات، كونها تشبه افتتاح محتوى المظلة التي تستخدمها قوَّات المظلات. ولكن هذا ليس كل شيء، فـ"حركة العدل والمساواة" تفضِّل تشكيل الهجوم على شكل الحرف اللاتيني "L".

ففي الوقت المناسب، تندفع موجة أخرى من السيارات في هجوم مماثل، إما على الجهة اليُسرى أو اليُمنى من العدو، وهي الإستراتيجية التي تتطلب التنسيق الدقيق من أجل تجنب أي ضرر من النيران الصديقة.

وعلى القارئ أن يتساءل: كم من الوقت يستغرق من أجل الوصول إلى قلب ساحة العدو؟! لن يمضي وقت طويل كما أود أن أقول، فالعدو يكون على مقرُبة جداً عندما يأمر قادة "حركة العدل والمساواة" الهجوم عليهم. فتتحرَّك القوة في سرعة بأعلى مستوى ممكن، وتحت هجوم تستخدم فيه أقصى درجات إطلاق النار. وتتحمَّل الحركة مخاطر أخذ وطأة أول شحنة من مدفعيَّة العدو الثقيلة إذا كانوا على استعدادٍ في ذلك الوقت لاستخدامها، ولكن نادراً ما يفعلون. وقد تكون تلك فرصة المدفعيَّة الوحيدة لأنها ببساطة تعجز أن تكرِّر توجيه نيرانها. ففي الوقت الذي تحمِّل المدفعيَّة من أجل إطلاق الشحنة الثانية يكون مقاتلي "حركة العدل والمساواة" على بُعد بضعة أمتار من العدو.

في مثل هذه الهجمات، فإن مركبات "حركة العدل والمساواة" تتحوَّل أيضاً إلى أسلحة قاتلة. وتستخدم محرِّك وأبواب السيارة للقضاء على أي مقاتل عدو في الطريق. وأي جندي غير محظوظ يجد نفسه في هذا الموقف المُرعب فإنه يكون مع واحد فقط من خياراته الكئيبة: إما أن يفقد حياته، أو يرمي بندقيته، أو يطلق ساقيه للريح. هذه هي واحدة من اللحظات التي لا يتمكَّن فيها جنود "حركة العدل والمساواة" من التعامُل بإحسان مع العدو. ومع ذلك، يساعدهم جنود العدو السريعين بالهرب، لأن تلك هي الإستراتيجيَّة المنقذة للحياة، وبالتالي توفر لمقاتلي "حركة العدل والمساواة" التركيز على أولئك الذين هُم غير حكيمين بما فيه الكفاية في التمسُّك ببنادقهم.

لا تتسرَّع في تجاهُل جنود "حركة العدل والمساواة" وعدِّهم بأنهم مجنونون أو انتحاريون. ولكن إذا قمتَ بذلك، فقد لا يتسق حكمك مع يقول به إستراتيجيو الحرب. وغالباً ما يشير جميع الكُتاب إلى مقاتلي المهديَّة إلى أنهم انتحاريُّون لأنهم يطيرون مباشرة إلى الرشاشات المتفوِّقة حاملين نوعاً من الرماح والسيوف.

وكثير من أنصار المهدي لقوا حتفهم بشراسة المواجهة، لكن بقية منهم انتصرت بالعدد الكبير الهائل من قوَّاتهم. ومع ذلك، هناك القليل من المقارنة بين المقاتلين المهديين وقوَّات "حركة العدل والمساواة". فالمهديون اتخذوا حربهم كبوَّابة لحياة أفضل، واستشعروا أن خالقهم طالبهم بأداء تلك الرسالة. وببساطة، كثير منهم يفضل "الشهادة" في ساحة المعركة عوضاً عن البقاء على قيد الحياة. وفي هذا السياق، فإن مقاتلي "حركة العدل والمساواة" هُم بالتأكيد ليسوا انتحاريين ولا يملكون أوهاماً حول الصُعود إلى السماء. إنهم، على العكس من ذلك، يرون نضالهم بحسب أنه أفضل وسيلة للحفاظ على الضحايا كحدٍ أدنى، وتقارير الحرب عن خسائرهم تشهد بوضوح على ذلك.

على الرغم من هذا، فإن فكرة إضفاء لمسة من الجنون على هذا النمط من القتال يصعُب معارضتها. ففي عام ٢٠٠٨، قاد الدكتور خليل إبراهيم، رئيس "حركة العدل والمساواة"، أو الدكتور "K"، كما يُدعى في بعض الدوائر، قوَّاته عبر الحدود متوجِّها إلى أنجامينا، عاصمة تشاد. وكان الهدف من ذلك منع تحقيق الهدف المُدبَّر من قبل عدوِّه، حكومة الخرطوم، لتغيير حكومة الرئيس دِيبِّي. فالسماح للخرطوم بتحقيق ذلك الهدف سيكون خطأً إستراتيجياً كارثياً، ومن شأنه في نهاية المطاف محاصرة "حركة العدل والمساواة"، ووضعها في ما يُشبِهُ الكمَّاشة.

عندما وصل الدكتور خليل إلى ضواحي انجامينا، انتشرت أخبار قوَّاته في العاصمة التشاديَّة مثل النار في الهشيم. وكانوا يقولون: «عدلي، عدلي، عدلي»، وهي الكلمة التي تشير إلى "حركة العدل والمساواة"، وذلك على طريقة اللهجة العربيَّة التشاديَّة. كانت كلمة "عدلي" كافية لإثارة الرُّعب من تدخُّلٍ محتمل من قِبَلِ "حركة العدل والمُساواة" بما يجبر مدبِّري الانقلاب التخلي عن مناصبهم والتلاشي في الصحراء. وهكذا نجحت "حركة العدل والمُساواة" في إجهاض الفكرة، دون استخدام القوَّة على الإطلاق.

المُتآمرون كانوا على حكمة بالفعل لتجنب أي اشتباك مع "حركة العدل والمساواة"، لأنه ليس هناك أحد بكامل قواه العقليَّة يود محاربة الناس المجانين الذين لديهم القليل للخسارة، وهُم مستعدون لمواجهة الموت وجهاً لوجه. لذا دعنا نقول: «تهانينا لـ"حركة العدل والمساواة". مجنون أم لا، وبغض النظر عن ما إذا كنت تستحق هذه التسمية، لم يترك من ذلك».

تعليقات غرين، الخبير الاستراتيجي الحرب الرئيسي هو المفيد: أولاً، الناس هُم أكثر عُرضة للهجوم عليك إذا كانت رؤيتك للناس ضعاف. الثاني، أنها لا يمكن أن نعرف على وجه

اليقين أنك ضعيف، بل تعتمد على علامات نعطيها لكم، من خلال سلوكك، سواء في الحاضر والماضي. الثالثة، فهي بعد انتصارات سهلة وسريعة وغير دموي. وهذا هو السبب في أنهم يتغذون على الضعفاء وضعيفة (غرين ٢٠٠٧/١٢/٤).

إذا كان قادة "حركة العدل والمساواة" يبحثون عن شيء في الحرب لإضفاء الشرعيَّة على جنونهم، من شأنهم ألا يكونوا سوى مثل "هانيبال". فالرومان كانوا خائفين جداً من قتال هانيبال وكانوا يتجنبونه مثل الطاعون. الجنون هو الغرق في عالم المستحيل. فمن جيش يتكوَّن من ٢٦ ألف مقاتلٍ، ذهب هانيبال عمداً إلى حرب روما والتي كانت تضم أكبر جيش، هو الأكثر تقدماً بالنسبة لجيوش جميع أنحاء العالم في ذلك الوقت، وكان يبلغ مجموعه سبعمائة وخمسين ألفاً من المقاتلين. وغنيٌ عن القول، فقد هزم هانيبال الرومان، وجعلهم متواضعين، ويقول البعض حتى يومنا هذا إنه غيَّر مجرى التاريخ.

كيف يصف قادة "حركة العدل والمُساواة" تكتيكات حربهم؟! هذا هو السؤال الذي طرحتُه على العديد من أعضاء "حركة العدل والمساواة". القائدين "وافي" و"حافظ" كانا في تناغُم مع تقييم وليامز، في وصف تكتيكات الهجوم العسكري، فهُم يستخدمون مصطلح "الحرب الخاطفة". وهناك مزيد من التوضيح الملهم الذي يقدِّمه قادة "حركة العدل والمُساواة" عبر صفحات هذا الكتاب. ومصطلحا "البرشوت" و"المظلة" عادة يستخدمهما جميع المقاتلين في "حركة العدل والمساواة". وعلى كلِّ حالٍ، فإن كلا المصطلحين معربان من أصل لغوي أوروبي.. إنهما مستمدَّان من الفرنسيَّة التشادية وليس من اللغة الإنجليزيَّة للقوَّة الاستعماريَّة التي كانت تسيطر على السُّودان. وعلى مرِّ السنين، غزا المتمرِّدون التشاديون بلادهم انطلاقاً من أراضي دارفور على وجه الخصوص. واعتماداً على كيفيَّة تعريفك لمصطلح مجموعة عرقيَّة، وهذه معضلة في حدِّ ذاتها، ربَّما يكون هناك نحو ٢٩ مجموعة مقسَّمة بين الحدود

السودانيَّة - التشاديَّة. وخلافاً لتنميط حدود أفريقيا، فقد خاض العديد من الدارفوريين حروباً مع المتمرِّدين التشاديين، وبعضهم ترقى إلى أعلى مراتب السُّلطة في تشاد.

"حركة العدل والمساواة" لديها أيضاً العديد من القادة والجنود الذين شاركوا في الحروب التشاديَّة. وهذا ما يفسِّر التأثير القوي لتجربة المتمرِّدين التشاديين في ثقافة العَدْلِ والمُساواة في القتال. وكما يُذكرنا اللغويون، فإن الكلمات تُكيَّف دائماً في السياق الحربي مع تجاهُلٍ مميَّز لعلم أصول اللغة.

المجتمعات الشفاهيَّة وغير الشفاهيَّة، لديها ميزة إضافيَّة. فغياب النص المكتوب واللزوميَّات التي تجمِّد اللغة تترك مجالاً واسعاً للتحوُّل الإبداعي للكلمات. ويمكن رؤية هذا بوضوح في أوصاف معارك "حركة العدل والمُساواة" حين يستخدمون عبارة "الأبنص" و"البرشوت". فكلمة "أبنص" تأتي من الكلمة الفرنسية "avancer"، ومعناها التقدُّم أو مُنتهى الإسراع. حرف "V" لا وجود له في اللغة العربيَّة، لذا حُوِّر ليُستخدم حرف الـ"B" بدلاً من ذلك. وبالمثل، أحياناً نجد أنه يتم الاستعاضة بحرف الـ"F" بدلاً عن حرف الـ"P" الذي هو في كلمة "Politics" وتعني السياسة بالعربيَّة.

الواقع أن "حركة العدل والمساواة" لا تستخدم الطائرات في الهجمات القتاليَّة حتى يكون لمصطلح "البروش" صلة بحالة الإنزال المظلي التي تتم من الجو. إنه يعني ببساطة النزول الأرضي على العدو في شكل هجوم مفاجئ، أو في شكل يشبه انتشار المظلة. وفي هجومهم، يبدأ مقاتلو "حركة العدل والمساواة" مع سياراتها في خطٍ واحد. وعندما يلوح القائد في السيَّارة الأمامية بإشارة بدء الهجوم فإن المركبات الأخرى تتحرَّك لتشكيل خط واحد في كلا الجانبين. وتسمَّى هذه العمليَّة "فتح" أي نشر المركبات، إذ يكون الجيش جميعه في مواجهة العدو. بمعنى آخر "فتح" تعني "القفز بالمظلات" على العدو،

إذا جاز التعبير. وهكذا، فإن مصطلحي "الأبنص" و"البرشوت" المعنيَّان بمفاجأة العدو بسرعة الهجوم عليه يقدم دعماً جديداً لوصف فكرة الطريقة الهجوميَّة لـ"حركة العدل والمساواة" وكأنها الحرب الخاطفة مع وجود بعض الاحتياطات الضروريَّة.

قادة الحركة الميدانيون

القائد أحمد آدم بخيت

في أوائل عام ٢٠٠٢، أطلقت "حركة العَدْلِ والمُساوَاة" أوَّل رصاصة في الصراع الرَّاهن، وطوال أربع سنوات من ذلك الحدث، ظلَّ قليلٌ من أعضاء الحركة يعرفون "أحمد آدم بخيت" بأنه واحد من قادتهم المُؤثرين، إذ إنه كان ثالث ثلاثة من أكثر المسئولين النافذين في الحركة. أما الآن، فيشغل القائد بخيت منصب نائب رئيس الحركة، والمسئول عن قطاع دارفور، فضلاً عن حيازته عضويَّة المجلس التنفيذي للحركة.

يبلغ طول القائد بخيت نحو ستة أقدام، لكن الناظر إليه لا يُدرك علوَّ قامته نسبة لبنيته التي تخفيه. شعرُهُ الرمادي يسمه بهالة من الأبوَّة، وهي الأبوَّة التي تُبرزُ قُدرته على الاستماع دون تعجُّل في الحديث. وعندما يتحدَّث، يختار كلماته بعناية، جامعاً بين الحكمة ولين الجانب. فلا غرو، إذ كلما نشب نزاع جلل في الحركة، كان دور القائد "بخيت" لا غنى عنه للتفاوض من أجل إحداث التسوية.

حسناً، أنا متأكد من أن حكومة البشير لا توافقنا على ذكر هذه الصفات الإيجابيَّة للقائد "بخيت"، ولستُ مندهشاً لذلك على الإطلاق. فوكلاء أمن البشير ينظرون إليه بأنه يُشكِّل خطراً على الوطن والأمَّة، ولا يمكن أن ينتظروا دون إخراجه من دائرة الحياة. وعدهم بالتخلص منه ليس تهديداً فارغاً. فالقائد "بخيت" مطلوب بالفعل تحت المادة ٧٨ من قانون مكافحة الإرهاب. إنني أعلم هذا القانون جيداً، فلديَّ قطعة من

صحيفة علقتها في مكتبي، واسمي مُضمَّنٌ فيها أيضاً كمطلوبٍ ضمن قائمة إرهابيي الدولة لعدالة البشير! أما بالنسبة لـ"بخيت" فكان اغتياله هدف النظام لبعض الوقت. فالذين تمَّ القبض عليهم وحُوكموا كانوا بعضاً من شُركاء "بخيت" وينتظرون الآن تنفيذ حُكم الإعدام عليهم بعد التصديق الرئاسي.

القائد "بخيت" قد يجادل حول الحُكم بأنه يُشكِّل خطراً على الأمَّة السودانيَّة. ولكن عليه أن يعترف أن تهديده للحكومة سيظل حقيقياً. وكما تؤكد سيرته، فإنه رجلٌ خطير بالنسبة لها، وتوجُّس رجال الأمن في الخرطوم منه هو بالحق أبعد من الوهم. فـ"بخيت" حارب إثني عشر معركة ضد الحكومة، خرج منها بإصابات متجسِّدة فيه، إذ فقد عينه، وكُسِرَت عظم الترقوة، وهناك عددٌ لا يُحصى من علامات رصاصات وشظايا في أجزاء من بدنه.

علاوة على ذلك، فقد شارك القائد "بخيت" في ثلاث محاولاتٍ لتغيير الحكومة. ومن المفارقات، أنه قد أثمرت واحدة من مشاركته باستلام البشير السُّلطة، وهو ذات الديكتاتور الذي يريد له الموت الآن. ولجعله يسرد بطولته الخاصة، دعني انسحب وأسمح لـ"بخيت" البوح، وبالتالي فإن مصطلح "أنت" يشير إلى المؤلف، وسوف يكون دوري على سبيل المثال صياغة كلماته:

اسمي أحمد آدم بخيت آدم دخري التوم.. وُلدتُ في قرية صغيرة تسمَّى "قوز البيضا" على بُعد نحو ستة أميال إلى الشمال الشرقي من بروش. "قوز البيضا" معروفة على نطاقٍ أوسع باسم "حلة يوسف". و"يوسف" هو بمثابة خالٌ لجدِّيٍ الكبير دخري. خلال زمنه، كان "يوسف" يمثل كل شيء في القرية، كان أحد الأعيان الكبار، وزعيماً دينياً، وقائداً عسكرياً.

خلَّف "يوسف" تراثاً واسعاً من الحكايات التي أثرت في طفولتنا وأسهمت في تربيتنا. بعض هذه الأساطير التي تُحكى

عن يوسف أنه كان رجلاً لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه، وأن شجاعته في الحرب مشهديَّة.

أورثنا جدَّنا "يوسف" حكاية أخرى، وجدتُها مضحكة جداً في ذلك الوقت. فجماعة مجاورة لنا قتلت رجلاً يمُتُّ بصلة لقبيلتنا، المقيمة في بلدة قريبة من "أم سدرة" بنحو ستة أميال. كانت طبول الحرب قد ضُرِبَت لحشد الرجال للثأر. وكما هو في الوقت الحاضر، كانت الطبول تُضرَبُ بطُرقٍ مميَّزة لاستدعاء الناس إلى التجمُّعات. كانت الضربة الأسرع تعني أنها نداءٌ لأشياء مثل الحروب، أو الحرائق، والحوادث التي تتطلب سرعة الاستجابة. الرجال الذين يظهرون متأخرين في الحلبة يتعرَّضون للإحراج في القرية. بل ويتم تغريمهم من قبل رئيس القرية لاستجابتهم البطيئة.

وبينما كانت طبول النداء تئن وترجحن، ذهب يوسف إلى أخت له تسمَّى "شقرة"، وكان يقطن بجوارها. اقترض منها ثوباً أحمر، لا يرتديه الرجال بالطبع. في ذلك الوقت، كانت الألوان نادرة جداً، وبالتالي كان اللباس مميزاً للغاية. وما لبث يوسف أن ركب حصانه واندفع متوشحاً بثوبه الأحمر نحو الحشد. صاح في الرجال، ولامهم: **«ماذا تنتظرون؟ دعونا نتقدَّم ونسحق العدو سحقاً.. ولو رأيتُم رجلاً يرتدي لباساً أحمر هارباً من المعركة فذلك سوف أكون أنا الذي أمامكم»**.

في تلك اللحظة الحرجة، انطلق جدَّك أنت أيها المؤلف نحو القرية، والذي كان يُدعى "مهدي". رأى يوسف من بعيد ثم اندفع نحوه. ودون أن يترجَّل من حصانه، أمسك "مهدي" لجام حصان "يوسف" قائلا له: **«عليك الله يا يوسف.. هدئ روعك كان الرجل المتوفي ليس قريباً لكُم حقاً بما يستدعي الانتقام لوفاته!»**.

كان "مهدي" رئيس منطقة يقوم مقام "الشرتاي" فضلاً عن أنه صديق مقرَّب من عائلة "يوسف". ولأنه "شرتاي"، أراد

استخدام سُلطته، وتسوية المسألة سلمياً، ومنع تفشي حرب عرقيَّة. كان حرياً بيوسف الاستماع إلى "مهدي" المعروف بقدرته على السيطرة على الأمور في أوج تفاقُمها. آنئذٍ، هدأ الأمر بفضل مجهود "يوسف" وبالتالي دُفعت الديَّة وحُسمت الأزمة.

قصة "يوسف"، أو بالأحرى لباس شقرة الأحمر، ظلَّ يُحكى للعديد من الأجيال المتتالية. فوفقاً لقواعد المجتمع، فإن الرجال مفترض فيهم حراسة شرف الجماعة والدفاع عنها. بفعله ذاك أراد "يوسف" تأنيب رجال القرية، وقال لهُم: يجب أن تصبحوا مثل جميع النساء إذا تقاعستُم عن شرف القبيلة. وبالتالي استخدم ملابس الإناث ليُريهم شجاعته بأنه قادر على الثبات في أرض المعركة. وكان لون لباسه مميزاً ليعرف بهُويَّته إذا هرب من ساحة المعركة. إن اللون الأحمر كان له رمزيَّته الخاصة.. إنه لونُ الحرب.

كان "يوسف" في الواقع رجلاً شجاعاً بشكلٍ يفوق الوصف. ولقد نشأتُ مستمعاً إلى حكايات جعلتنا نفخر بانتمائنا لجَدٍ بطولي. وهنا أتذكر آدم عبدالقوي قريبنا المشترك، الذي توفي قبل بضع سنوات. التقى بي ذات مرَّة بينما كنتُ هارباً من عيون الحكومة الحالية، فقال لي: **«اسمع يا صبي، إذا كنت قد ورثت مزاج جدك يوسف الشجاع، فإن رئيس هذا البلد ''البشير" سوف يجد صعوبة معك. ببساطة أنأى بعيداً عن حكومته!»**.

في وقت طفولتنا، لم يكن لدينا أي كتاب للأطفال، ولا تلفزيون، ولا ضوء في الليل. ولهذا كان والدي يسلينا بقصص الحرب هذه التي خاضها أجدادنا. في كل ليلة يسليني وإخوتي بمثل هذه القصص قبل ذهابنا إلى حجرة النوم. كان هذا ما تعلمناه من تراثنا، وتاريخنا، وأجدادنا. وأنا متأكد من أنك تعرف هذا لأنك مررتَ بالتجربة نفسها.

إن جدي "يوسف" لم يكن هو الوحيد ضمن أجدادنا الذين كانوا مشهورين بإقدامهم في خوض الحروب. وكان أبي يقول

لي إن الجُبن لم يتجسَّد في شرايين دمائنا. نحن ببساطة لا نخشى ملابسات الحرب.. وفي الآونة الأخيرة اكتشفت أهميَّة الحرب في تاريخ أسرتي، وكيف أن ظروفاً محدَّدة في الماضي شكَّلت سمات أجدادي.

ثقافة الحرب التي تورَّط فيها أهلنا في الماضي لم تكن من اختيارهم.. إنهم كانوا يعتقدون أن الله قدَّر لنا لنبقى في هامش المركز البعيد. والآن نحن في الحركة مُمتعضون من هذا البُعد من مراكز سُلطة الوسط النيلي، والتي سعت بقصدٍ إلى تهميشنا. والواقع أنه طوال تاريخنا، حتى أثناء الاحتلال التركي للسُّودان عام ١٨٢١، كنا تحت سُلطة سلاطين دارفور. وبعد الثماني عشر سنة التي أعقبت الاحتلال البريطاني من ١٨٩٨ إلى ١٩١٦، بقيت منطقتنا جزءً من دارفور المستقلة، ويجاورنا إقليم كُردُفان، الذي كان تحت السيطرة البريطانيَّة.

الأسوأ من ذلك، أننا كنا أقليَّة في المنطقة. فنحن ننتمي إلى قبيلة "البرتي"، ولكن نُنسب إلى فرع منها، وهو عشيرة "كواتو". المركز التقليدي لـ"البرتي" كان وما يزال بعيداً عن مليط مئة ميل، وفصلنا عن الجماعات العرقيَّة العدائيَّة. كانت عشيرتنا لا يُحسبُ له حساب عند ملوك "البرتي" في مليط أو سلاطين دارفور، والذين كان "البرتي" يدينون لهُم بالولاء بينما مقاعد سُلطتهم في الفاشر، نحو مئة وخمسة وعشرين ميلاً.

عشيرتنا كانت صغيرة جداً، لا تعتمد في دفاعها عن نفسها وفقاً لولائها للسُلطان الحاكم. لكُلِّ هذه الأسباب، كان لا بُدَّ لعشيرتنا الـ"كواتو" أن تدخُل في تحالفٍ مع جماعتين، هُما أقليَّتان مثلنا. كما أن الجماعات التي تحالفنا معها شملت النوبة، وحمر كُردُفان، والبديريَّة، والبرقو، وجماعات البرتي الصغيرة الأخرى التي تزاوجنا معها.

إذا كنتُ قد أصبتُ ذهنك باندهاشٍ إزاء هُويَّتي الإثنيَّة، فلست مندهشاً جملة وتفصيلاً. فنحن ننتمي لـ"برتي كواتو"،

والآن بعض الناس ينسبونا لـ"كاجا" أيضاً. ذلك أمرٌ حق لأن لفظ "كاجا" يعني حزمة من العصي في قطعة واحدة. هكذا خلصنا إلى هويَّتين. قُل نحن "برتي" و"كاجا" في ذات الوقت.

التحالف الذي أبقانا كـ"كاجا" كان متعدِّد الأوجه. فنحن عشنا وتزاوجنا وقاتلنا مع بعض ولعلَّ القتال نفسه كان مهماً بالخصوص لجماعة تحيا في بُؤرة عدائيَّة. يمكن أن تقول إن غرض التحالف كان للدفاع. فـ"كاجا" يحمون أنفسهم كجماعة واحدة. ولدى زمن السلام، تعالج المشاكل التي تنجُم عن القتل وإفساد الملكيَّة بالتعويض والديَّة. فمال الدم نحن ندفعه مع بعض كـ"كاجا"، وذلك ما جعل تحالفنا يسير إلى يوم الناس هذا.

أعود لأقول إن "يوسف" لم يكن الوحيد في أسرتي الذي كان معروفاً كمحارب استثنائي. وكما حدثتك من قبل، فإن أسمي احمد آدم بخيت الدخري آدم التوم. فجدي "التوم" يماثل أو يتجاوز بقدرته "يوسف" في طريقة خوضه الاستثنائي للحرب. وكان معروفاً باسم "آدم كرا"، و"كرا" اسمه المستعار لكن نشأ ليُزيل اسمه الحقيقي "آدم". ذلك الاسم المستعار الذي حاز عليه يمثل اعترافاً بشجاعته وقيادته لحميات الوغى. الكلمة "كرا" تعني "تقدَّم" أو "هاجم"، وهي معاكسة تماماً لأهرب أو فر، بمصطلح الحرب.

تقليدياً، نحن لدينا عُرفٌ بأن يكون هناك أشخاص معيَّنين ليكونوا مسئولين عن خوض الحرب ورعاية الآبار، والمزارع. هؤلاء هُم الذين يقودون ويُحرِّضون لتجمُّع الناس حالة الضرورة، لكنهم أيضا يشرفون على الحفاظ على الآبار عند لحظات موسم الجفاف وبدء موسم الحصاد في الموسم المطري وإعلان الحرب في زمن النزاع. وليس من المفاجئ أن يكون "آدم كرا" مسئولاً عن شئون الحرب لشعبه ويحمل لقب "عقيد العُقدا"، وهو مصطلح تستخدمه الجيوش العربيَّة الحديثة أيضاً. وهكذا كان "كرا" القائد الأعلى للحرب مع رتب عسكريَّة تحت إشرافه.

"كرا" ترك خلفه بطولات عدة في الحرب. وأهلي يقولون إنه يدخل الحرب مبتسماً بأسنانه اللامعة، ولكن هيئته تتغيَّر حين يصطدم بالعدو. وفي المعركة لا يُخرِجَ "كرا" سيفه حتى يلاقي مثيله القائد في الاتجاه الآخر. وكان موهوباً في استخدام صوته لإخضاع الأعداء المُبرِّزين الذين لم يكن بحاجة لاستخدام سيفه معهم. "كرا" ترك خلفه قصَّة عظيمة ظلت تُحكى مرَّاتٍ ومرَّات بواسطة الأجيال المتعاقبة.

إنها قصة حرب أعطت شهرة مقدرة لقرية "أم ضحيوة" التي تبعد خمسة أميال جنوب شرق "بروش". ومصطلح "أم ضحيوة" مشتق من ضحوة. وكما تحكي القصة، كان هناك نزاعٌ بين أهلنا وجماعتهم المجاورين بني فضل، حيث يعيشون في المكان الأقرب لمكان نشأتك. في النزاع، قتل بني فضل عدداً من جماعتنا في موقع لبئر. وأثناء ذلك، لم يكُن "كرا" حاضراً في موقع الحدث ولكنه غضب لهذا الفعل الشنيع. وبما أن الواجب يقتضي على قائد المحاربين تجميع رجاله لينتقموا لعمليَّات القتل، فقد نجح "آدم كرا" ببراعة في الدعوة إلى الحرب. ولاحقاً أدَّى واجبه بإخلاص متناه للعشيرة، حتى أن بني فضل فقدوا تسعة وتسعين رجلاً. وهذا الفقد يعد كبيراً حين نضع في ذهننا قلة عدد الناس في ذلك الزمن. إن عمل "كرا" كان أكثر من فكرة تحقيق نصر. نعم، كانت مذبحة، ولكن لـ"آدم كرا" أسبابه كحامي حمى الجماعة.

في الواقع، أنه لحظة نشوب المعركة كانت عشيرة "كرا" جزء من سلطنة دارفور، وتحت ولاية السلطان محمد فضل، وكانت رئاسته في الفاشر. ونهج "آدم كرا" كان دائماً دبلوماسياً أكثر من كونه نهج زعيم عشيرة. لحُسن الحظ كان السلطان محمد فضل صديقاً مقرَّباً لوالده التوم. اعتمد عليه للدفاع عن حدوده الشرقيَّة ولقد تاجر وتبادُل الهدايا والخدمات معه أيضاً. فوق كل ذلك، كلا الجانبين أعتزَّ بالولاء الذي دفعه التوم لقصر الملك لفضل.

قرَّر التوم زيارة السلطان الفضل لعرض موضوعه شخصياً قبل أن يذهب الآخرون إليه ليُوقعوا بينه والسلطان بسبب تلك المعركة. أخذ معه تسعة وتسعين من الفرسان، ورقم مشابه من الحصين، وحمل بعض الهدايا لجلالته. كان مدَّ السلطان بالفرسان أمراً ملزماً لقادة المناطق التابعة له، وعلى أن يتم ذلك طوعاً أو بطريقة أخرى. فـ"كرا" وأسرته يدينون للسلطان فضل بأنه هو الذي منحهم الأرض والتي ما تزال السلطات المتتالية تعترف بها، وتتألف من مثلث من الأرض يحاد بمناطق "أب قدوم"، و"أم هشابة"، و"أم ضحيوة"، وبين "بروش" و"جبل حلة"، والتي تبعُد تسعة أميال شرق بروش.

عند مدخل القصر الملكي، انتظر التوم ووفده ليُؤذَنَ لهم بمقابلة السلطان. نعم، هُم قد كانوا ضيوف القصر الملكي ولكن لا مناص من أن ينتظروا سانحتهم للمقابلة. في اجتماعه مع السلطان، أعلم التوم السلطان بالهديَّة التي بعثتها عشيرته للقصر، ومن ثمَّ سأل السلطان الغفران قبل أن يعرض موضوعه. قال له السلطان: **«أنا أعرف صديقي العظيم التوم وذريته أناس مقدرون. ما دام أنكم أتيتم هنا للغفران فأنا قد منحته لكم ولكن قولوا لي ما الذي فعلتموه»**.

بدأ التوم يتعاطى مع اللحظة بحذر ليُعلم السلطان بما جرى. وعند نهاية حديثه قال له السلطان: **«يا بني أنتم هلكتم الناس هلاكاً لا مثيل له، لكن على الأقل قلت كلمتي من قبل وغفرت لكم»**. وهكذا طالت إقامة التوم عند بوابة القصر. وما كان عليه إلا أن ينتظر حتى يتم إطلاق سراحه بشكل منظم ومعلوم. وفي خاتم الأمر بقي محظوظاً، فقد عاد إلى عشيرته ومعه تسعة وتسعين بقرة وعدد مماثل من الرُعاة وخيراتٍ غير معلنة من السلطان. وفوق كل هذا، تمكن أن يضمن سلامته من أي قضية ضده من بني فضل في محكمة السلطان.

دعنا نترك قصص الحرب السابقة هذه وراءنا. إننا لا نستطيع تجاوز حقائق أساسيَّة، إن جدارتي للحرب وتواضع انجازاتي العسكريَّة في حروب الحركة ليست ببساطة منتجة بواسطة التاريخ القديم لسياسة السُّودان الحديثة. إنها رجعُ الصدى لتاريخي وتراثي وتربيتي. نحن شعبٌ فخورٌ ومُكرَّم، وحين نُهان فإننا نقاوم بلا خوف. إننا نأخذ سبيل الموت دفاعاً عن حق المرء وفخره دائماً بنفسه. نحن جاهزون لذلك التحدي.

أنا واحدٌ من السُّودانيين الذين وُلدوا في الأول من يناير. حين ترى ذلك، فإنك تتأكد أن تحديد ميلادي اعتماداً على تقدير طبي أنجز بعد سنين عديدة من الميلاد. في "قوز البيضا" حيث ولدتُ، لم تكن هناك مستشفى ولا قابلة مدرَّبة، ولا ثقافة لحفظ أيام الأحداث. ما كان مهماً لأهلنا هو أنك وُلدتَ ويجب أن تعيش، ليس مهماً أنك وُلدتَ يوم السبت أو الاثنين، أو في شهر رمضان أو ما بعده.

حين واصلتُ في التحصيل العلمي في المدرسة الابتدائيَّة، كان لا بُدَّ أن استخرج شهادة ميلاد. نلتُ واحدة من مستشفى الفاشر والتي تتضمَّن أنني وُلدتُ في الأول من يناير ١٩٥٩. أهلي يُقدِّرون ذلك، ولكنهم لا يتدخَّلون. إنهم يُرجعون ميلادي إلي "سنة البطيخ". وذلك تاريخٌ صادف تكاثف زراعة البطيخ، لدرجة أن فاكهة البطيخ غمرت البيوت. والدي يعتقد أنني وُلدتُ سنة ١٩٦٠، ولكنه غير متأكد، ولا أحد منا يهتم بالأمر. تعليمي كان تجربة ممتعة. لا استطيع أن أقول إننا أغنياء ولكن لم نكن نعاني نقصاً في المال. مال يتيح لنا مواصلة التعليم في المدرسة أو على الأرجح في الأماكن المرعبة التي تبدو كمدارس.

كل إخواني أكملوا الدراسة، وأحدهم حصل على الدكتوراه في الاقتصاد، وهو الآن بروفيسور في الجامعة. بالنسبة لي، ذهبتُ إلى جامعة الزقازيق في مصر حيث حصلت على

بكالوريوس الفيزياء عام ١٩٨٥. وحصلتُ لاحقاً على دبلومين من جامعة الخرطوم. واحدٌ في التخطيط الإنمائي سنة ٢٠٠٠، والثاني في إدارة الأعمال سنة ٢٠٠٢، وسجَّلتُ للماجستير في إدارة الأعمال في جامعة جوبا الكائنة في الخرطوم. ولكني قطعتُ دراستي بسبب التخفي قبل مقاومة الحكومة.

علاقتي بالسياسة بدأت بعد إكمالي مرحلة الفاشر الثانويَّة في عام ١٩٧٥، وقبل ذلك الزمن لم يكُن لي اهتمام بالسياسة. وهكذا تدريجياً انضممتُ لـ"الإخوان المسلمين"، أو "الجبهة الإسلاميَّة القوميَّة" كما عُرفَت لاحقاً. كانت الجبهة أكثر تنظيم سياسي ينشط في المدرسة وخلفيَّتي دفعتني إليهم. قبل ذلك لم أكن اعلم شيئاً عن الإسلاميين، ومع ذلك أتذكَّر أن والدي كان يذكرهم على الأقل بغير ضجر. أنا جئتُ إليهم من أسرة دينيَّة وربَّما يقول بعض العارفين أنها أسرة طاهرة. فجدي "التوم" كان رجل دين، أو رجلٌ مقدَّس لو جاز القول، إذ ترى الناس يزورون قبره ويعتقدون في معجزاته. القبر يبعد أميالاً قليلة من شرق "أم جريوات" بالقرب من "بروش" في وسط منطقة نملك أحقيتها. في طفولتي كنا نزور القبر كل مرة وحتى الآن. ننظفه ونضع بعض الأشياء، ولكن بعض الناس يزورون القبر ويقدمون طلب عودة أقرباء بعدوا عنهم، أو يطلبون عودة حيوان مفقود. أسرتنا لا تفعل ذلك ولكننا نبذل احترامنا للقبر وننظر إليه مثل قبة مقدسة.

صحيح أنه بسبب خلفيَّتي الدينيَّة كان سهلاً أن تكسبني عضوية الجبهة الإسلاميَّة إلى جانبها، إذ كنتُ حقاً من المتلقين الجيِّدين لما تقول.. أتذكر أنني كنتُ ارتادُ الجامع بانتظام، وهناك يلتقي أعضاء التنظيم كل يوم، وفي بعض المرَّات يلتقون أكثر من مرَّة. لقد استفادوا من المكتبة الصغيرة في المسجد، إذ يمكن للمصلين أن يجلسوا في الخلف ليقرأوا ما تيسَّر. ومع ذلك كان للتنظيم كتبه الدينيَّة والتي كانت متاحة لنا حين نلتقي في المسجد. لا استطيع القول إنني كنت ناشطاً

سياسياً في مدرسة الفاشر الثانويَّة، ولكن حين ذهبت إلى الجامعة نمَّيتُ وصلي بالسياسة، وحينما أكملتُ دراستي في مصر كنتُ كادراً جاهزاً من كوادر شباب التنظيم.

لقد كان واجبي هو تدريب الشباب وتجنيدهم للحزب. ومثل كل فردٍ في سني، كان يجب علي أن أتلقى تدريباً عسكرياً عبر تنظيم "الدفاع الشعبي" والذي كان إلزامياً لكُلِّ الطلاب الخريجين. الآن انظر بعين الخيبة للزمن الذي أنفقته في الجبهة الإسلاميَّة ولكن ذلك هو تاريخي وتعلمتُ من خلاله الكثير من الدروس. لقد اقتنعنا حينذاك بمثاليَّتهم، وكنا مأخوذين بوعودهم الجميلة التي أعطانا إياها القادة. لقد تعاملنا باستجابة كبيرة لأفكارهم، وقدَّمنا دعماً لهُم غير حدود، إذ ضحَّينا بمستقبلنا وقاتلنا لصالحهم، ولكن نمكُث معهم كثيراً حتى نتعلم كيف أنهم خدعونا. فيقظتنا الحقيقيَّة جاءت بعد انقلاب البشير عام ١٩٨٩، وخصوصاً التجاهُل الذي أثبته المجلس العسكري للإنقاذ الوطني، تحديداً للمناطق المُهمَّشة مثل دارفور، وكان من الصعب إنكاره. وعلى خلاف الوعود المعلنة للمجلس العسكري، إلا أنه استمرَّ في ذات الطريق الذي سارت فيه الحكومات السابقة التي عمل البشير على الانقلاب ضدَّها بالأساس. لقد استمرَّت هيمنة نهر النيل بذات الطريقة التي مارستها الأحزاب التقليديَّة التي حكمت بها القطر قبلهم.

في الواقع أنه لا يستطيع أحد أن يقول إننا لم نقاوم الفساد والاستبداد، وعدم المساواة، وغياب الشفافيَّة. لقد فعلنا كل شيء ليستبين لهُم أنهم سائرون نحو الطريق الخطأ. ومع ذلك سخروا منا وتجاهلونا وتحرَّشوا بنا وهدَّدونا واتهمونا باقتراف الخطيئة الدينيَّة. باختصار، لقد فعلوا أي شيء ما عدا معالجة أسباب ضيمنا، ولكنهم أوصلوا إلينا الرسالة على الأقل، ولم تكن مريحة. رسالة عنوانها، أنه لا أحد يستطيع تحدِّي الهيمنة النيليَّة إلا بالقوَّة، ومضمون الرسالة هو أنه إذا كنا نريد الحريَّة والعدالة والمُساواة فلا بُدَّ من مقاومتهم.

عند بداية التسعينات، وما أعقبها، بدأنا تكوين خلايا الحركة. لقد قُمنا بحملة خاصَّة وسط الأصدقاء من الأقاليم المُهمَّشة، بينما أبقينا وجودنا في الحكومة أيضاً كما الجهات الأخرى. حينذاك احتجنا إلى شرعيَّة وغطاء لعملنا حتى يبقى جوهر إستراتيجيَّتنا هو العمل ضد الحزب الحاكم، وفي ذات الوقت أن نكون جزء منه. وبهذه الصورة شكَّلنا جماعة مضغوطة تمتد تأثيرها لكُلِّ الأحزاب، وبعض الأعضاء ما يزالون يعملون حتى الآن كخلايا نائمة في عددٍ من الأحزاب السياسيَّة. هذه الإستراتيجيَّة أملتها ضرورة السيطرة القويَّة لحكومة الإنقاذ وقبضتها الأمنيَّة القويَّة على كل القُطر.

هكذا كنتُ عضواً في الحركة من اليوم الأوَّل، وشاركتُ في تأليف "الكتاب الأسود" وكنتُ واحداً من المُؤلفين لقانون الحركة المُؤسِّس. كل ذلك حدث أثناء امتلاك عضويَّتي في الحزب الحاكم. وهكذا عملتُ أكثر من ثمانية سنوات تحت الغطاء لصالح الحركة، قبل إعلان انضمامي الكامل إليها. وأذكُرُ أن أركان الحكومة منحوني تسمياتٍ مختلفة، مثل الراغب في السلطة، والخائن، وعضو حزب الترابي.. إلخ. لقد نعتوني بكل شيءٍ ما عدا الاتهام بأنني عضوٌ بحركةٍ، ناهيك عن أنني واحد من مؤسِّسيها.

حدثتُك من قبل أنني عملت في الخدمة الإلزاميَّة، إذ أرسلتُ إلى الجنوب لفترة من الزمن. لا استطيع أن أقول إنني اكتسبتُ تجربة هناك. ففي تلك الأدغال تبدو محظوظاً حين تخوض بالتناوُب معركة واحدة في خمسة أو ستة أشهر. ولكن مع العَدْلِ والمُساوَاة فإن كل هذه التجارب التي تكتسبها عبر السنين في الجنوب تتحصَّل عليها عبر شهر أو شهرين فقط. على كلٍ، ما كان مهماً كان مشاركتي في انقلابات الخرطوم. فقد كنتُ مشاركاً في ثلاثة منها حتى الآن. لكن للأسف، نجح الانقلاب الأوَّل الذي جلب البشير للسلطة عام ١٩٨٩، أما المحاولتان الثانية والثالثة اللتان قامت الحركة بهما فقد فشلتا.

وربَّما هناك أناس قليلون يعرفون أسرار تلك المحاولتين، حتى إن الحكومة كانت تشير إلى تورُّط الترابي فيهما باعتبار أنه المدبِّر الأوَّل. ولقد حاولت الحكومة أن تجيِّر دعم العالم الغربي لصالحها، وتخويفه في ذات الوقت بأن الإسلاميين الإرهابيين كانوا يسعون إلى السيطرة على القطر.

الواقع أنه لم يكن لدى الترابي شيئاً ليفعله معنا حين دفعنا بهاتين المحاولتين لإسقاط الحكومة. بعض الذين ساعدونا أخطأوا التقدير بأننا نتحالف مع التُرابي، ولذلك كانوا على استعداد لمساعدتنا وذلك لم يكُن ليضر بنا. فقد ساعدنا بعضهم لكراهيَّته في الطغمة الحاكمة وقناعتنا وقتذاك أنه في مثل هذه الظروف لا بُدَّ أن نقبل بأي نوع من المساعدة في مشروعنا ما دام أنه لا علاقة له بنظام البشير.

حسناً، دعك من دوري في انقلاب البشير، وهو دورٌ ما عُدتُ أذكر تفاصيله. إن جزءً من مشاركتي في الانقلاب كان على الأرجح غير مهم على أي حال. فحالاً بعد الحرب في دارفور، أدركنا أننا لا ندري وحشيَّة النظام حين توقعناها حرباً نظيفة، إذ يواجه المقاتلون بعضهم بعضاً، لكن ذلك لم يحدُث وإنما أرادت النخبة الشماليَّة أن تتخذ سبيلاً قذراً في الحرب عندما تورَّطت في تأجيج العرقيَّة. إنها عاملت شعب دارفور بمزيدٍ من المذابح والاغتصاب وحرق القرى وتحطيم النسيج الاجتماعي. ولذلك السبب، قرَّرنا إسقاط الحكومة بالشكل الذي عُرف في العالم الثالث. ومثلما اتخذ البشير ذلك الشكل، فقد حاولنا نحن أيضاً. ولعلَّ انقلابنا لتحرير شعبنا كان شرعياً ومبرَّراً أخلاقياً أكثر من انقلاب البشير الذي أسقط حكومة منتخبة.

كان انقلاب الحركة الأوَّل قد تمَّ في مارس ٢٠٠٤، ولم يتعدَّ كونه تخطيطاً أولياً. وقبل الوصول إلى ساعة الصفر، سُرِّبَت الخطة وذهبنا إلى الاختفاء بعيداً عن المراقبة الأمنيَّة. غير أن الجنرال سليمان صندل، وهو القائد العام العسكري للحركة قُبِضَ عليه وقُدِّم لمحاكمة أودعته السجن. لم يكُن وحده،

بل كان معه كثر من إقليمي دارفور وكُردُفان. ذلك الانقلاب الفاشل أعطى الحكومة فرصة فريدة لاعتقال عدد من النشطاء المتحالفين مع الترابي، وفعلت الأمر نفسه في المحاولة الثانية. وأذيع حينذاك أن الانقلاب من تدبير التُرابي وعددٌ من أعضاء حزبه الأبرياء الذين تمَّ سجنهم. وبعدها مباشرة فكَّرنا في تدبير انقلاب آخر. وفي الوقت الذي وجدنا فرصة للتعلم من الانقلاب الفاشل استفاد جهاز الأمن نفسه من التجربة وعرفوا في أي منحى يمكن تركيز نشاط المراقبة. لقد بدا واضحاً لهم أن الحركة لم تكُن صنع صحراويين محاربين بعيداً هناك في الإقليم ولكنها قوَّة ضاربة ساعية للسيطرة على الخرطوم وبقيَّة القُطر.

برغم ترتيبنا الحذر للانقلاب الثاني في سبتمبر ٢٠٠٤، فقد أكثرت قوَّات الأمن من رصدنا. وبينما خذلنا شخصٌ من الجنينة في ذلك الوقت، كان حظي أنه قُبِضَ عليَّ مع اثنين وسبعين شخصاً. وعليه وجدتُ نفسي معتقلاً في "بيت أشباح" عند كُبري بري شمال الخرطوم. ولاحقاً في المحكمة.. سمَّينا ذلك المكان بـ"أبو غريب" تزامُناً مع شيوع اسم السجن العراقي الشهير. في المعتقل بقيت ثلاثة أشهر في غرفة ضيِّقة بدون قدرة على رؤية الشمس على الإطلاق. كانوا يفتحون باب الزنزانة ثم يرمون بالأكل ثم يختفون بدون أن يحدثونا بكلمة. بالطبع اعتقالنا في "أبوغريب" كانرمرتبطاً بتعذيب غير مسبوق، وهو ذلك القدر الهائل من التعذيب أشاع مصطلح "بيوت الأشباح".

لقد استخدموا كل أداة تعذيب متصوَّرة لأخذ المعلومات منا، ومع ذلك كانت قناعتنا أن التعذيب هو مصير كل من يسعى إلى إسقاط الحكومة. وأذكر أنه حين تحصَّل رجال الأمن على معلوماتهم، حوَّلونا إلى السجون لانتظار المحاكمة، والتي كانت نُزهة بالقياس إلي "أبو غريب".

تمَّ التحفظ علينا في سجن كوبر، وتمكنا من ملاقاة محامينا والزُوَّار الأقارب. بعدها شكَّلت المحاكم الخاصة التي

قصد بها القضاء علينا. وبرغم ذلك اجتهدنا مع محامينا لتحويلها إلى محاكمة سياسيَّة للحكومة نفسها. كانوا في أي زمن يأتوا بنا إلى المحكمة تسدر عائلاتنا بالتعاون مع الأصدقاء في احتفال يهتفون فيه بشعارات ضد الحكومة، ولا يتوقف الهتاف إلا حين ندخل إلي قاعة المحكمة. كنتُ المتهم الأوَّل، ومع ذلك فإن سلطات الأمن ركَّزت على سبعة آخرين منا.

المُدهش أن أحد مساعدي البشير حكا لي لاحقاً بعد خروجه من النظام قصَّة مثيرة. حدثني فقال إنه حضر اجتماعاً للبشير ونائبه علي عثمان محمد طه، إذ قرَّرا فيه أن سبعة أفراد منا يجب أن يوضعوا خارج المحاكمة ويُقتلوا بواسطة رجال الأمن. ولكن مساعد الرئيس عارض مقترح اغتيالنا ذاكراً أن ذلك سيخلق سابقة سيئة في البلاد. ثم اقترح تأسيس محكمة خاصة لإعدامنا، وحينها وافق البشير الذي مَدَحَ حِكمة مساعده، ومن ثمَّ شُكِّلت لنا المحكمة الخاصة بإعدامنا. وهكذا تمَّ تجهيزنا للمحاكمة المُبيَّتة النيَّة، والتي أنقذنا منها المحامون، وتعالي أصوات الضغوط القويَّة من المجتمع الدولي والداعية إلى محاكمة عادلة، وذلك ما صعَّب من تنفيذ حكومة الخرطوم خُطتها للقضاء علينا.

لقد استمرَّت المحاكمة إلى خمسة أشهر، وبالتالي تعمَّقت المضايقات على الحكومة بسببها، بل وجدت نفسها في دائرة واسعة من الضغوط المحليَّة والدوليَّة. وأذكر أنه منذ الوهلة الأولى شعرنا أن القاضي كان ضدَّنا، رغم جهده لتأمين قدر من التقاضي المهني. بيد أن الطريق أمامه كان وعراً بتكتيك محامينا الذين قدَّموا له قائمة من ستة آلاف شاهد ليكونوا محلَّ تساؤلٍ في المحكمة. رفض القاضي الطلب في بادئ الأمر، ثم قرَّر المحامون انسحابهم من المحكمة وقُمنا بتأييد خطوتهم. ولاحقاً قدَّم القاضي ثلاثة خيارات لنا.. الأوَّل، هو أن ندافع عن أنفسنا بدون محامين.. الثاني، قبولنا لمحامين دفاع تشكل المحكمة فريقهم.. والثالث، تغيير محامينا والاستعانة بآخرين.

رفضنا كل الخيارات الثلاثة رغم أن القاضي ترجَّانا لتغيير مواقفنا، ولكن لم نستجب. ولما فشل مسعاه، قرَّر القاضي في خاتمة المطاف تحديد يوم لنا لتقديم مرافعتنا الأخيرة ومن ثمَّ رفع الجلسة.

حين فُتحت الجلسة في اليوم المحدَّد، طلب مني القاضي شخصياً أن نقدِّم مرافعتنا الأخيرة. وقفتُ بكل احترام وقدَّمتُ له ورقة تحوي استئنافاً لرئيس القضاء بتحدِّي قرار المحكمة. تفاجأ القاضي بهذه الخطوة المفاجئة، إذ لم يكن يتوقع حرصنا الزائد على حقوقنا القضائيَّة بهذا الشكل. ولأنه لم يكن ليستطيع تجاوز سلطة قاضي القضاة، صرخ في وجهي بغضب: **«أجلس.. أجلس..»**.

جلستُ وسط مراقبة لصيقة من بعض الحُضور في المحكمة. لقد قنع القاضي بإهانته، وفقد الاحترام الذي حافظ عليه أمامنا. ولزيادة الطين بلة، نهضنا كلنا هاتفين ضدَّ الحكومة:

تسقط.. تسقط.. الديكتاتورية..
ثوري.. ثوري.. يا خرطوم..
إلى المحكمة الدوليَّة يا مجرمين..
العار.. العار.. عليكم يا حُكام..
لا عدالة في السُّودان..

غضب القاضي لحال محكمته المضطربة، بينما تعالى هتافنا مع أقربائنا، وردَّدنا شعاراتٍ ضد الحكومة، ما جعل الشرطة في بعض المرَّات التدخُّل لاحتواء الموقف. وأخيراً تمَّت إعادتنا إلى زنزانات كوبر. وبعد مُضي أسابيع، عاد محامونا للدفاع عنا. وهكذا استمرَّت المداولات في المحكمة.

لقد قرَّر القاضي براءتي وأفرج عني مع آخرين. وشمل قرار البراءة أيضاً أربعة وأربعين متهماً، بينما أدين ثمانية وعشرين آخرين بمُددٍ في السجن متراوحة. والمُؤكد أن اثني عشرة مسجوناً ما يزالون يقضون مدَّتهم إلى يومنا هذا. والذين

تمَّت براءتهم معي، هُم: عامر أليكا كوكو، بدرالدين (الاثنان تمَّت محاورتهم بخصوص هذا الكتاب)، ولا حاجة لي للقول إن بعض هؤلاء الذين حُوكموا لم يكُن لهُم علاقة مع المحاولة الانقلابيَّة، وذلك يرينا كيف أن الأمور تُدارُ داخل النظام القضائي السُّوداني.

برغم قرار براءتي، إلا أنني اعتُقِلتُ مرَّة ثانية بواسطة جهاز الأمن. وبطبيعة الحال، لم أسلم من التعذيب.. ففي هذه المرَّة اتُهِمتُ بالتورُّط في انقلاب الحركة الأوَّل، والذي سبق المحاولة الثانية بستة أشهر. حُبستُ لعشرة أشهر في سجن "أبو غريب" بهدف أن أقدَّم للمحاكمة.

آنذاك أذكر توقيع اتفاقيَّة السلام الشامل مع الحركة الشعبيَّة. ووفقاً للاتفاقيَّة، فإن كل السُجناء السياسيين يجب أن يُفرج عنهم. ولكن كان اعتقاد السُّلطة أن اعتقالي تمَّ بجريرة جُرم جنائي، ولذلك دخلتُ في إضرابٍ عن الطعام وطلبتُ أن أحوَّل من سُلطة الأمن إلى الشرطة لتنعقد محكمة عادلة تتيح لي الفرصة على تعيين محام خاص. حينذاك تدهورت صحَّتي فيما ركَّز الإعلام على وضعي الصحِّي. ولما اهتمت خمس منظمات عالميَّة على الأقل بأمري رأت الحكومة أن تدبر مخرجاً.

زارني في المستشفى اثنان من أفراد الحكومة، وهُما المُدَّعي العام لجهاز الأمن، والثاني كان المُدَّعي العام في قضيَّتي. كانت زيارة تظاهُريَّة، وقالوا لي أن غرض زيارتهم كان لوجه الله ولا علاقة لها بالحكومة. كنتُ مرتبكاً أمام هذا التصرُّف ولم استطع تمييز الكثير مِمَّا قالوه. أتذكَّر أنهم طالبوني أن أتوقف عن إضرابي عن الطعام بأمل أن يروا نهاية عاجلة لمأساتي. كنتُ أعرف أنهما لم يفعلا ذلك حُباً في مرضاة الله، ولكن الهدف كان لتقليل ضغط منظمات حقوق الإنسان العالميَّة.

تمَّت إعادتي إلى زنزانتي، وبدلاً عن فك أسري مثلتُ في محكمة استمرَّت إلى شهرين. وعجزوا عن إدانتي، وقضت المحكمة بغياب الأدلة لإدانتي وأعلنت براءتي بعد أن ناضل محامو للدفاع عني، وكذلك بعد امتلاكي خبرة في التعامُل مع المحاكم.

بعد فكِّ أسري، راجعتُ نفسي الغاضبة وقرَّرتُ ألا اسمح لنفسي بأن أعتقل مرَّة ثانية بلا مقاومة دمويَّة. وهكذا ظلَّ رجال الأمن يراقبون منزلي في الفترة من ٢٠٠٢ إلى ٢٠٠٤، واقتحموا منزلي خمس مرَّات. ولقد كُنتُ ذكياً، فحين كانوا يقتحمون المنزل كل مرَّة لا يعثرون عليَّ. وظننتُ حينذاك أن محاولات الأمن للتعامُل معي عبر المحكمة فشلت، وعرفوا أنهم في حاجة إلى ضبطي متلبساً، ولذلك قرَّرت أمراً.

الهروب من الخرطوم

كرهتُ فكرة تحويل الاختباء من مكانٍ إلى آخر، وكذلك المراقبة اللصيقة لمنزلي. لذا قرَّرتُ الانضمام إلى مناضلي الحركة الذين كانوا يقاومون في دارفور. فكَّرتُ أولاً في الهرب عن طريق إريتريا، ثم الذهاب إلى إثيوبيا. ذلك كان الأمل المتاح، ولكن لا يتيح لي الذهاب إلي دارفور بسهولة. وأخيراً قرَّرتُ المغامرة بالسفر إلى دارفور مباشرة. بدأتُ الرحلة ووصلتُ إلى "آم كدادة" وفي منطقة "بروش" قضيتُ شهرين هناك.

رغم أن الكثير من الناس هناك عرفوا وجودي لكن لم يكن لفرع الأمن في المنطقة كبير اهتمام بي. وما ساعدني أن كل فردٍ من حولي كان متمرِّداً وجاهزاً للمساعدة حماية لي من الحكومة. جيشُ الحركة كان يبعُد عني نحو أربعة أميال شرق "أم كدادة"، ولكن الوصول إليه يتطلب رحلة تستغرق أياماً بالجمال. كنتُ على اتصالٍ معهم بانتظام، وبعثوا لي رسالة تتضمَّن فكرة تحريري من قبضة الاختباء. ولكن في النهاية

قرَّرتُ فكرة السفر عبر طريق يمُرُّ بمنطقة لجماعة عرقيَّة عدائيَّة، كان لها علاقة بالحكومة، وهي تسكن بين "أم كدادة" وأقصى الشمال حيث تتواجد كتيبة الحركة.

من "أم كدادة" سافرتُ في طريقي إلى الفاشر بلغ طوله ١١٦ ميلاً، ولم يكن هناك نقصٌ في خلايا الحركة لتأمين مساري. ثم رتب بعضهم أمر دخولي الفاشر، ولكن كان يجب أن ننتظر إشارة الدخول. بعد انتظار، تلقيتُ اتصالاً من رجلٍ أعرفه، ذهب للحصول عل قطع غيار لعربات الحركة في المدينة ووعد بالالتقاء بي عند الثامنة صباحاً. ولكن لسوء الحظ أن الحكومة تلقت أخباراً أن عناصر من الحركة تسللت إلى المدينة. ونتيجة لذلك قام الجيش بإحاطة المنطقة، بينما في كل الطرق المُؤدية كان رجال الأمن يقومون بالمراقبة. وهكذا فسد أمر دخولي الفاشر.

بعد أيام من الانتظار، قرَّرتُ تغيير الخُطة. استغليت مركبة ذاهبة إلى الأبيِّض عبر طريق لم يكُن مراقباً، وهو الطريق الذي يقود أيضاً إلى أماكن وجود الحركة. بعض رجال الأمن قاموا بتفتيشي في مشارف الفاشر، ولكنهم لم يتعرَّفوا عليَّ.. أعطيتهم اسماً مُزوَّراً وحدَّثتهم أنني أعمل في الخرطوم وأخذوا المستندات للمراجعة. وأخيراً مررتُ بـ"أم كدادة" ومن ثمَّ بمدينتي "بروش". توقفنا قليلاً هناك وتحاشيتُ انتهاز أي فرصة للاتصال بأقاربي في المدينتين. تصرُّفي ذاك كان معقولاً، إذ حاولتُ إبعاد الأهل من أي أزمة مع الحكومة.

بعد يوم، وصلتُ إلى الأبيِّض حيث يكثُر فيها رجال الأمن بشكلٍ أكثر تنظيماً، وظننتُ أنهم يستطيعون التعرُّف عليَّ، غير أن صديقاً أخذني من مشارف المدينة بعد توقف المركبة. وفي اليوم الثاني، وجدتُ نفسي في بص مغادر إلى الخرطوم، التي استطيع فيها التجوال بعيداً عن أعيُن رجال الأمن. هناك في الخرطوم اتصلتُ بدكتور خليل، وكان الأمر

مفاجئاً له بأن يجدني عائداً للمدينة. لقد جعل مكالمتي معه قصيرة وطالبني أن أخرج بأسرع وقت.

أثناء وجودي في الخرطوم، تلقيتُ معلوماتٍ أن رجال الأمن كانوا يراقبون منزلي باستمرار خلال فترة الشهرين التي غبتُ فيها عن المدينة، ثم توقفوا. ولكن بقيت المشكلة في كيفيَّة خروجي من الخرطوم، التي لم يكن لديَّ همٌ بالمُكوث فيها. فخطتي أن أسافر إلى إريتريا عن طريق الشرق.

كان الطريق إلى إريتريا مفتوحاً أمام حركة السودانيين. وكان للحركة مكتب في الحدود، ولذلك من السهل أن ينظموا هروبي. ولكن كانت هناك مشكلة، فالعلاقات بين البلدين كانت جيِّدة، ما جعل حكومة السُّودان تنشط في مراقبة المعارضين الذي يسافرون إلى إريتريا. وعندئذٍ اتصلتُ بعُشر، أخ زعيم الحركة ووعد بترتيب خروجي إلى إريتريا إذا سافرت عن طريق القضارف.

بعد أيام اكتملت خُطة رحلتي إلى شرق السودان. كانت الخطة أن أسافر كعامل زراعي راغب للعمل في مشاريع القضارف الزراعيَّة. ولذلك اشتريتُ بعض المعدَّات الزراعيَّة مع "جُراب" يستخدمه الفُقراء. وهذا الجراب يُسمَّى محلياً "أبكركو"، إذ إن الذين يحملونه يبدو أن لا نصيب لهم من التعليم ولا علاقة لهم بالسياسة.

معركة مهاجريَّة الثانية

حتى ذلك الوقت، شاركتُ في عشر معارك في مختلف مناطق السُّودان، ليس هناك كثيرون يماثلوني في هذا التصنيف في الحركة. والسبب بسيط، إذ أن مهمَّتي عبر الحركة غالباً ما تأخذني بعيداً عن حقل المعركة. خبرتي الأولى في المعارك اكتسبتها عام ١٩٩٣ في الجنوب. في تلك المهمَّة قضيتُ خمسة أشهر في جبال سندورو جنوب جوبا. يجب أن أقول إننا لم نخُض معارك كثيرة كما كان يجب أن يفعل الجيش الحكومي.

كانت هناك مناوشات صغيرة، مقارنة بما نفعل في الحركة، إذ من الطبيعي مقاومة معركتين في شهر واحد وبعض المرَّات أكثر. أذكر أن الحركة خاضت في عام ٢٠٠٩ تسعة معارك خلال ٤٥ يوم.

معركة "مهاجريَّة" الثانية حدثت في العشرين من يناير. فالحركة قاومت معركة أخرى في نفس المنطقة في جنوب دارفور ضد قوَّات مناوي. وقتها قوَّات مناوي كانت تتعاون مع القوَّات المسلحة بعد توقيع اتفاقيَّة أبوجا.

زرنا "مهاجريَّة" لبعض العمل الإداري، وهو نشاطٌ عادي في حملتنا. وبينما كنا هناك اكتشفت استخباراتنا أن العدو يتحرَّك نحونا بغرض تحطيم قوَّات الحركة في المنطقة. عقدنا اجتماعاً عاجلاً لتدارُس الموقف، وتقييم قوَّة العدو، ومن ثمَّ وضعنا إستراتيجيَّة لمواجهته. قوات الحكومة كانت متآلفة من ثلاثة فيالق وهي مزيج القوَّات المسلحة والجنجويد. الفيالق الثلاثة بدأت مهاجمتنا، لكن جاهزيَّتهم أحرجتهم.

الفيلق الأكبر كان متوجِّها نحونا من "أم ساونا" شرق "مهاجريَّة"، وكان يتألف من ١١٠ عربة، وست دبابات مدعومة بطيران القوَّات المسلحة. الفيلق الثاني كان آتياً من "شعيرية" من جهة الشمال قليلاً منا، ولديه مئة عربة، وهناك عدد من الجنجويد وسطهم. الفيلق الثالث كان آتياً من نيالا جنوب "مهاجريَّة" وعرفنا أن ذلك كان الفيلق الأخير الذي عانى من قيادة متفرِّقة ولم يكُن جاهزاً لدخول المعركة. تجهيزاتنا الإستخباراتيَّة كانت مشهديَّة. عرفنا بالضبط حالة الفيالق الثلاثة وقدراتهم للمقاومة، ومشاكلهم اللوجستيَّة، وعدد المقاتلين، والدعم الجوي ومشاحنات قيادتهم. الرجل الذي هو في مسئولية دعمنا اللوجستي قيَّم تجهيزاتنا بأنها كافية لمعركتين كبيرتين. كانت لدينا مئة عربة جاهزة للفعل. تفرَّقنا داخل أربع مجموعات: الأولى والثانية كانت بقيادة بخيت دبجو، الثالثة

والرابعة كانت تحت قيادة محمد الحسن.. القائد بدرالدين وألماظ وشخصي ذهبنا مع الفليق الأول، بينما جيلوي وابوبكر حامد ذهبوا مع الثاني.. في اجتماع خُطتنا قرَّرنا المقاومة خارج مدينة "مهاجريَّة" لتفادي الخسائر المدنيَّة.

خرجنا من المدينة واتخذنا طريقاً مختلفاً، والسبب هو تضليل مخابرات مِنَّاوي. حال مغادرتنا المدينة، تلقينا إشارة من جيش الحكومة لاحتلال المدينة بعد إخلائها. وبينما نحن خارجون، عرفنا من بعض جنود القوَّات المسلحة الذين قبضناهم أن الجنود منحوا أمر بحرق المدينة على ألا يتركوا حتى الحيوان. ونحن على بعد أميال قليلة من المدينة، شاهدنا طائرة هليكوبتر تقود العدو الذي امتلك مئة وخمسين عربة. بعض المدفعيات بدأت إطلاق النار. كانت خُطتنا قد حدَّدت البدء بالفيلق الكبير أولاً. اعتقدنا أن فيلقنا سوف يشغلهم أولاً قبل أن تنضم فيالقنا الأخرى لاحقاً. فيلق الحركة الثاني كان بعيداً على بعد أميال منا، لكن قائده كان مدركاً لخُطتنا.

أعطينا الإشارة وركبنا مع المُشاة بينما مدفعيتنا ركزت على سلاح العدو الثقيل. الهليكوبتر اختفت لكنها انضمَّت لاحقاً ولكن كان الأمر متأخراً بالنسبة للقوَّات المسلحة ومعاونيها من الجنجويد. كانت معركة سهلة. هاجمنا المشاة مستخدمين عرباتنا أكثر من سلاحنا. ففي الوقت الذي تكون عربتك قد وصلت نهاية خطوط العدو المُشاة تكون قد قتلت خمسين جندياً.

بعد دقائق توغلنا في مركز مربعهم، فانقسمت قوَّة العدو وهرب الجنود في كل الاتجاهات، وبسرعة أخذ قادتنا مسئوليتهم للسيطرة على المنطقة وملاحقة عربات العدو. المعركة بما فيها تأمين الحقل أخذت حوالي ١٥ دقيقة، بينما أخذت مطاردة عربات العدو ساعة كاملة. مليشيات الحكومة كانت أهمَّ من جنودهم. فهُم يستطيعون إنقاذ قائدهم بطائرة هليكوبتر كما فعلوا في معركة الملم في فبراير ٢٠٠٩.

قادة العدو جاءوا من جماعات عرقيَّة مختلفة، ولذلك كانوا مجبرين على فقد نتيجة المعركة. الجنود ليسوا مهمين. الحقيقة أنه يمكن إبدالهم من السكان المُهمَّشين من السُّودان بأي حال. مطاردة العربات كانت ناجحة. تحصَّلنا على شاحناتٍ وعرباتٍ محمَّلة بذخيرة. جنودنا جهَّزوا أنفسهم للاستيلاء على أنواع أخرى من السيارات، لكن حاملة المدرَّعات كانت أكثر قيمة لنا. بعد عام تقريباً جاءت مهمَّة الأمم المتحدة لتكشف مصدر الحاملة. وقتها لم نكُن ندرك أن الحاملة كان محرماً للحكومة استيرادها بناءً على حظر الأمم المتحدة للسُّودان من شراء الأسلحة. واتضح لاحقاً أنها استوردت بواسطة الصين وذلك يمثل خرقاً لقرار الأمم المتحدة.

مليشيات الحكومة فقدت أيضاً طائرة "ميج" في المعركة. وقعت بعيداً من أرض المعركة، والقرويون اكتشفوا جناحها وأرسلوه لقادة الحركة. طبعاً فقدنا أصدقاء أعزاء في تلك المعركة. في معركتنا التاسعة بما فيها "مهاجريَّة" الثانية فقدنا خمسين مقاتلاً، وجرح نحو مئة من بينهم شخصان تعرَّضا لجُرح كبير. حين ذهبنا إلى "مهاجرية" كان كل السُكَّان قد جاءوا للاجتماع بنا. أمدونا بالأكل والشرب ومارسوا الرقص التقليدي الذي جاء تعبيراً للنصر. السُكَّان المحليون تدافعوا لمساعدة جنودنا المجروحين في المستشفى، حيث حضر أطباؤنا. الـ'يوناميد' والمنظمات العالمية جاءوا للوقوف على كيفيَّة أدائنا.. واجب الاهتمام بالمدينة التي توقعوا أن تأخذها منا القوَّات المسلحة. وقتها تمكن طاقم الـ'يوناميد' دخول المدينة وتفقد أحوال أهلها. في السابق لم تكن بعثة 'يوناميد' تتجرَّأ على زيارة المدينة، ولذلك بقيت معظم الوقت في مشارفها. لكُلِّ هذا ظلَّ السكان المحليون ينظرون إليهم بحسبهم متعاونين مع الحكومة.

حسناً، لا توجد استراحة للمحارب، فقد تلقينا اتصالاً من د. خليل، أمرنا فيه بإخلاء المدينة. واضح أن أمريكا اتصلت به

ونصحته بسحب جنودنا، إذ نادت بضرورة حماية السكان المحليين. ربَّما كان الأمريكان على حقٍ، وذلك على خلفيَّة أن الحكومة سوف تقصف المدينة أثناء وجودنا فيها. وأتذكَّر أن قصفاً جوياً وقع على بُعد خمسين ياردة من معسكر 'يوناميد' ما أدَّى إلى مقتل طفل. حين أحسَّ سكان "مهاجريَّة" بمغادرتنا المدينة غضبوا لكن قرار الانسحاب اتخذ على كل حال. حكومة السُّودان وعدت أمريكا أن "مهاجريَّة" سوف لن تتعرَّض إلى أذى إن انسحبنا. وللتاريخ، فإن حكومة السُّودان لم تحترم وعودها. فلاحقاً أتى جنودها إلى "مهاجريَّة" وأرهبوا السكان المحليين وعسكروا في المدينة.

كان انسحابنا نحو الجنوب الغربي باتجاه "جبل مَرَّة". آنئذٍ، التقطنا إشارة بأن حكومة السُّودان كانت تستعد لتجهيز خمسة فيالق لملاحقتنا. قرَّرنا مواجهتها، ولكن دكتور خليل أمر بمواصلة الانسحاب، وطالبنا بألا نتمسَّك بالأرض والمُضي قُدُماً نحو موقع معيَّن في "جَبَل مرَّة".

بعد أن فشلت في هزيمتنا في المعارك، جاءت حكومة السُّودان بخُطة خادعة لتدمير مركباتنا. أتذكَّر أننا اشترينا شحنة كبيرة من زيوت العربات من تاجر ودفعنا له باليورو. لاحظ أحد أفراد قوَّتنا أن الزيت غير جيِّد فقرَّرنا التحقق من ذلك. اختبرنا ذلك في مركبة واحدة، وبعد عشرة كيلومترات من السير، خرج الدخان من عادم السيَّارة بكثافة في الهواء. اتضح أن الزيت فاسد، وهدفوا بذلك إلى تدمير سياراتنا.

بعد يوم حَصَلنا على رسالة من أحد خلايانا النائمة في مدينة قريبة. لقد أرسلت حكومة السُّودان اثنين من شاحنات الوقود نحو طريقنا متوقعين أننا قد نشتريها أو ننتهز هذه الفرصة للاستيلاء عليها، بحسب أنها غنيمة من العدو. وكان في الوقود خللٌ أيضاً، إذ يحتوي على عناصر من شأنها أن تذيب المعادن المحرِّكة للماكينة.

لحُسن الحظ، تمكَّنت استخباراتنا من إحباط هذه المؤامرة قبل الوصول إلى وجهتنا. ثم مررنا بـ"شنقل طوباي"، وهناك اكتشفنا قوَّة كبيرة للـ"جنجويد" بقيادة "حميدتي"، الذي أرسلته حكومة السُّودان لاعتراض طريقنا، وكان مغبوناً منا بسبب أسرنا للـ"جنجويد". حضَّرنا خُططنا للتعامُل معه، لكن فجأة غيَّر طريقه بعيداً عنا.

ببساطة، اتضح له أن لدينا قوَّة كبيرة يصعُب التعامُل معها، ولذلك خاف من قُدرتنا على سحق قواته. ولإهانتهم أكثر، أطلقنا سراح مقاتلي "الجنجويد" الذين قبضنا عليهم، وذلك حقق لنا سمعة طيِّبة وسط الجماعات العربيَّة التي تشكِّل مصادر تجنيده. نتيجة لإطلاق سراح العرب السُجناء، والحوار الذي تلا ذلك مع مجموعاتهم العرقيَّة، فقد "حميدتي" ببساطة مؤيِّديه المحتملين الذين يتأهَّبون لمحاربة "حركة العدل والمساواة".

مقاربة استراتيجيَّات المواجهة العسكريَّة

في ساحة المعركة، لدينا ميزة لا جدال في نجاعتها، مقارنة بالقوَّات المسلحة السودانيَّة والميليشيات المُتحالفة معها. فالقوَّات المسلحة السودانيَّة ما تزال تعتمد على إستراتيجيَّة قديمة للدفاع ضد العمليَّات الهجوميَّة. مُربَّعهم يملك خطوطاً على اليمين واليسار، كلها تعمل من الخارج إذا ما أرادوا تجنب الضرر بنيران صديقة. كل جانب من مربَّعهم محروسٌ بواسطة خطٍ من الجنود، تتباعد المسافة بينهم. ووسط مربَّعهم، يأوي قادتهم والدعم اللوجستي. مثل هذا الترتيب يجعل حس القتال ضعيفاً لديهم، ولكن ذلك من الأشياء المتأصِّلة جداً في عقليَّة القوَّات المسلحة السودانيَّة، وهي الإستراتيجيَّة الوحيدة التي يعرفونها. أما نحن فمختلفون.. لم نعتمد في أيٍ وقتٍ مضى على تشكيل "المُربَّع"، ومع ذلك قد نستخدم شكلاً دائرياً عندما لا نشرع في التحرُّك. ومع ذلك، فنحن نأخذ بسرعة موقفاً دفاعياً إذا لزم الأمر.

في هجماتنا نستخدم شكلاً في حرف "L" وهو الموقف الذي يتيح لنا استخدام قوَّاتنا على أكمل وجه. وثمَّة صعوبة طفيفة لدينا، هي تنسيق عمليات الخطوط من أجل تجنيب الجنود إطلاق النار على أنفسهم. عندما نهاجم لا نضيع الوقت، فنحن ننتبه قليلاً إلى التخفي كما يفعل جنود القوَّات المسلحة السودانيَّة. نحن نتحرَّك للأمام وبسرعة عالية، بينما نطلق النار على العدو. هدفنا هو تدمير قيادة "المُربَّع" وتحييد قوَّة العدو في وسطه. بمجرَّد أن يتم تحييد القوَّة، فإنها تتفرَّع إلى حالة من الفوضى، ونتيجة لذلك لا يبقى خيار أمام الجنود سوى أن يُديروا ظهورهم لنا ونناجي الله أن ينقذهم.

هناك بالتأكيد فرقٌ كبير في القتال لدى إرادة الجيشين. فجنودنا يحافظون على وجهات نظر بازدراءٍ نحو خصومهم. يعتقدون أنهم حفنة من المخلوقات البائسة التي جاءت إلى الحرب وتفتقر إلى إرادة القتال. في دارفور، هناك مثلٌ يقول "مافي دواس بلا غبينة"، ويُعنى به أنه ليس هناك حرباً بلا غُبن، إذ إنه من أجل خوض معركة جيِّدة عليك أن تعبئ نفسك بالغضب ضد عدوِّك. فجنود القوَّات المسلحة السودانيَّة انضموا إلى الجيش بوصفه مصدراً وحيداً للأجور، ويتم نشر معظمهم في منطقة الحرب بلا إرادة لديهم. وغالباً ما يحتجزون هناك تحت حراسة مشدَّدة حتى لا يهربوا. هذا هو السبب في سفرهم خلال يوم كامل لمنع انشقاق الجيش. إذا تنقل الجنود ليلاً، فإنهم يقفزون من على شاحنات النقل نحو المساحات الشاسعة للكثبان الرمليَّة الناعمة، وفي الصباح يُفاجأ القادة بوجود نصف الجنود فقط. أما جنود "حركة العدل والمساواة" فمختلفون.. هُم من المُتطوِّعين ويُقاتلون من أجل قضيَّة واضحة. مُعظمهم يملك أحقاداً شخصيَّة ضدَّ نظام أحرق، ونهب متاجر، وسرق الحيوان، واغتصب أختاً، أوً قتل قريباً. أنت لا تحتاج إلى جهدٍ لغرس إرادة القتال في مثل هذا الشخص. وهناك احتمالات بأن

لديه إرادة أقوى للمحاربة مقارنة مع القائد المسئول عن تعزيز روحه القتاليَّة.

هذا هو ما يجعل مقاتلونا يبكون من الإحباط عندما نقوم بوضعهم في تقسيم الاحتياطي كقوة قتاليَّة. إنهم جميعاً يريدون القتال مع الشجاعة الفائقة. لا أستطيع أن أقول إنني شهدتُ العديد من المعارك مع "حركة العدل والمُساواة". ومع ذلك، في كل معارك عايشتها لم أشهد جندياً من "حركة العدل والمساواة" قد هرب من ساحة المعركة، بينما رأيتُ جنود العدو وقادتهم يقومون بالهرب في كل معركة تقريباً حاربتُ فيها. إرادة القتال ربَّما كانت أكبر عامل مميِّز بيننا وبين جنود العدو. فالقوَّات المسلحة يُمكن أن يُقال عنها أنها أفضل تجهيزاً، ومواردها على نحو أفضل وأكثر عدداً. ولكن جميع الأسلحة تقريباً التي نستخدمها أخذناها منهم. وكان الدكتور خليل على حق تماماً عندماً قال: **«...إن "حركة العدل والمساواة" تقاسم ميزانية وزارة الدفاع السودانية مع القوَّات المسلحة السودانية»**. حتى الزي العسكري لدينا، والأحذية، والساعات والمال يأتي من القوَّات المسلحة. على الرغم من هذا، فنحن نهزمهم بانتظام، ولكنهم يبدو أنهم منتصرون فقط في وسائل الإعلام الحكوميَّة والتابعة لهم.

إن القوَّات المسلحة السودانيَّة تدمِّر جنودها قبل فترة طويلة قبل إرسالهم للمعركة. فتدريب جيشهم تأسَّس على مبدأ كسر إرادة المُجنَّد الجديد. تدريباتهم لا تتجاوز طريقة "يمين دور.. شمال دور". حتى تدريب الضبَّاط في الأكاديميَّة العسكريَّة لا يختلف عن هذا النوع من التدريب. تخيَّل للحظة أن ضابطاً أثناء فترة التدريب يقتحم غرفة النوم الخاصة بك في تمام الثانية صباحاً بينما أنت وهُم مستغرقون في النوم. حينها يفرض عليك ذلك الضابط أمراً عاجلاً بأن تقف صعوداً والبقاء في حالة تأهُّب. وبعدها يشغلك بمحاضرة طويلة يمتد زمنها إلى ساعة حول الوسادة التي تنوم عليها. إنه يقول لك إنها مصنوعة

من القطن، وكيف أن القطن يُزرع ويُسوَّق، وكم هو مهم للاقتصاد السُّوداني، وكيف أنه أقلَّ شأناً من غيره من المنتجات، وهكذا دواليك.

لاحظ أن الضابط هذا يحاضرك عن القطن ولا شيء غيره. ولكن الهدف من العمليَّة كلها هو ليُعلمك إطاعة الأوامر، وليرى التحمُّل البدني والعقلي لمثل هذه التدريبات المُهينة. إذن فلا عجب أن النتيجة مخيبة للآمال. أما جنودنا فأمرُهُم مخالف. فالرغبة في القتال نمت داخلهم قبل أن ينضموا لـ"حركة العدل والمساواة". هؤلاء الجنود هم أيضاً الأصغر سناً نسبياً، وجثمانياً مجرَّبون. إنهم يأتون من التضاريس المتعدِّدة في مناطقهم، إذ تُفرض عليهم باستمرار أعمالاً شاقة، مثل قلع الأشجار، وجلب المياه من الآبار العميقة، ومطاردة الحيوانات، وصنع الفحم وغير ذلك.

بالطبع جنودنا يدرسون سلوك الجيش وقواعد المخاطبة، وهيكل القيادة، وهكذا دواليك. ما هو مهم هو أن نعلمهم كيف يطلقون النار بشكلٍ جيد. العديد منهم يأتي لنا ويعرف كيفيَّة التعامُل مع البندقيَّة، ولكن نحن بحاجة لتعليمهم كيف تكون المهارة في ذلك، وليس مجرَّد كيفيَّة استخدام البندقيَّة. إطلاق النار في الحرب أمرٌ مختلف مقارنة بألعاب الصيد. فمطاردة أرنب يمكن أن تضرُّك. ويمكن لجندي عدو في عداد المفقودين أن يكلفك حياتك الخاصة. جنودنا يعرفون أن إطلاق النار وضرب الهدف هو ما نطمح إليه، وليس كما يفعل الجيش على طريقة "يمين دور.. شمال دور".

أستطيع أن أقدم لكم مثالاً حول أثر قوالب التدريب في تفكير الجندي. ففي واحدة من معاركنا في شرق السُّودان، ألقى الجنود القبض على قائدهم، وقيَّدوا يديه، وألقوا به في سيارة واقتادوه إلى القاعدة. منطق تعامُلهم المُهين هذا مع قائدهم بسيط. فالجنود انتصروا في معركتهم، لكنهم لم يستطيعوا تحديد

موقع بعض من المقاتلين في الغابة الكثيفة، حيث دار القتال. كانوا يعلمون أن طائرات العدو في طريقها، وكانوا بحاجة للخروج من المنطقة بأسرع ما يمكن، ولكن قائدهم وقف أمام رغبتهم وأصرَّ على أن يكون آخر شخص يغادر الغابة. وكان للجند خُطة بديلة، لكن قائدهم لم يلتفت إلى وجهات نظرهم، وكان تركيزهم لاتخاذ قائدٍ يُؤمِّن المكان ويترك لوحدات صغيرة أمر البحث عن المفقودين. وأخيراً تمَّ نقل القائد إلى القاعدة من قبل القوَّة. وكان ذلك القائد هو منصور أرباب.

إن أي جندي من القوَّات المسلحة السودانيَّة الذين خضعوا للتدريبِ لا يستطيع فعل ذلك. جنود "حركة العدل والمساواة" وحدهم يمكنهم التصرُّف هكذا. لأنهم قادرون على توظيف نوع مميَّز من الروح المعنويَّة.

إننا نُبقي قوَّاتنا جاهزة باستمرار للعمل. وليس لدينا مجموعات تسير وراء الجيش. السيارة هي كل شيء بالنسبة لنا. إنها تحمل لنا الطعام والمشروبات والذخيرة. بالطبع نمنح الذخيرة لكل جندي تبعا لبندقيَّتة. وأثناء اشتداد المعركة، ترى الجنود يأتون فرحين إلى صناديق الذخيرة. إنهم يفتحونها بحرابهم، وأحياناً بالبنادق بسرعة لا تصدَّق. إنك تسمعهم يصرخون وسط صوت المعركة بلغات الزغاوة، والمساليت، والفور، والعربيَّة، والميدوب. وهكذا تكون صرخاتهم أثناء الحرب مثل جلسة للأمم المتحدة بلغاتها المتعدِّدة.

فرقة السيارة هي آلة القتال لدينا. لا، بل إن سيارتنا هي آلة المقاومة. هي فاعلة كما المدفعيَّة، ونستخدمها لقتل جنود العدو. إنك تجد سيَّارتي الخاصة وهي مليئة بثقوب الرصاص ١٤ مرَّة وفقاً لتعداد قيادتي. جنود القوَّات المسلحة السودانيَّة يفضلون التهديف أثناء الثبات مع غطاءٍ على الأرض. نحن لا نفعل ذلك. نحن نقاتل بينما سيَّاراتنا تسير بأقصى سرعة وهكذا نضرب أهدافنا بالصورة التي تدرَّبنا عليها.

جنود القوَّات المسلحة السودانيَّة يخلطون عند مهاجمتهم. نظام تساوينا يجعل من الصعب على جنود القوَّات المسلحة السودانية تحديد موقع قادتنا. نحن نرتدي نفس الزي، لا توجد النجوم على أكتافنا ولا أي هراء. إذا كان واحد من جنودي قهر قائداً أعلى للجيش وصادر زيه يمكن أن يرتديه دون أي مشاكل. قادتنا لا يمكن تمييزهم ببساطة من خلال نوعيَّة من نسيج زيهم. بالطبع نحن لدينا القائد العام، نائب القائد العام، وقائد العمليات.. هذا الأخير يقود الجيش في الهجوم وهُو عادة ما يكون في المقدِّمة. ومع أسلوب القتال، فنحن لا وقت لدينا للعدو ليميِّز من هُو قائد العمليَّات.

أما بالنسبة للقوَّات المسلحة السودانيَّة، فنحن نعرف بالضبط أين قادتهم، وهذا بشكلٍ واضح في موقع المُربَّع الذي يتخذونه، ونوعيَّة سياراتهم وتوزيع واقية نفوذ من حوله، وهذا هو المكان الذي يريد جنودنا الذهاب إليه لاقتحامه. طريقتنا في اقتحام وسط الميدان رائعة. إنها العناصر مجتمعة لهجوم مفاجئ وتوغُّلٍ سريع في ساحة عدونا، عبر ما نعرفه بـ"الأبنص" و"البرشوت"، والذي يحدِّد محاربتنا. هذه وسيلة رائعة لتدمير الجيش مع جميع موارده. إنه "حسين جاموس" المتمرِّد التشادي الذي اخترع هذه الطريقة في القتال. وكان قد قُتِلَ في وقتٍ لاحق على يد خصمه في ذلك الوقت، الرئيس التشادي السابق حسين حبري في "كُلبُس"، في غرب دارفور. كان إدريس ديبي، الرئيس الحالي لتشاد، نائباً لجاموس، ولكن حلَّ محله بعد وفاته. ديبي انتصر في وقتٍ لاحقٍ على حسين حبري، وخلد جاموس بأن سمَّى مطار انجمينا باسمه.

سمعنا مؤخراً أن القوَّات المسلحة السودانيَّة تحاول تعلم طريقة "الأبنص" و"البرشوت"، ودمجها في تكتيكات الحرب الخاصة بهم. الشركة المُصنِّعة لعربات الـ"لاندكروزر" اليابانيَّة أُعلموا بمذكرة عن استخدام وتكيُّف سياراتهم في هذا النوع من المعارك. ويُشاع أن الشركة توفر عدداً كبيراً من سيارات

"لاندكروزر" لتشاد كل عام مجاناً تقديراً للسُمعة التي منحوها لسياراتهم في أفريقيا.

نحن محظوظون لأننا بدأنا الانتفاضة في دارفور. وقاطنو الحدود هُم أكثر قابليَّة لقبول ما يترتب من أمر تغيير الحكومات. فهم يرون المتمرِّدين ينتقلون من مناطقهم لتغيير نظام ظالم. الأهل في وسط السُّودان غير مواجهين بهذا الخيار. فهُم يهتدون بالمثل القائل، إن: "كل من يتزوج أمك فهو والدك". هذا موقف مثير للشفقة للسُّلطة لأنه لا يقدِّم شروطاً للقوى الحاكمة لإنجاز العدالة. ولكن الغريب كيف تأتى لأهل دارفور المتمرِّدين بطبعهم تحمُّل النُظم الظالمة المتعاقبة لفترة طويلة؟! ربَّما كنت غير عادل.. فهُم قد بذلوا قصارى جهدهم لتحدِّي النظام عدَّة مرَّات، ولكن دون نجاح. الحق أنه منذ بداية التمرُّد في دارفور كان الأهل داعمين لخُطواتنا، ولذلك كنا قادرين على البقاء على قيد الحياة حتى اليوم.

أنا لا أريد التحدَّث عن حركاتٍ أخرى، ولكن استطيع أن أقول لكم الكثير عن "حركة العدل والمساواة" التي أعلم عنها بشكلٍ أفضل. فنحن أبداً لم نصادر أملاك الناس الأبرياء، ولم نستجديهم ليمنحونا الغذاء. إنما نحن نعتمد على ما يمكن أن نحصُل عليه من الحكومة بالقوَّة، ومع ذلك كانت الناس سخيَّة جداً معنا. فلا أقلَّ من أنهم كانوا يساعدوننا في إجلاء جنودنا الجرحى من المعارك. حتى الفقراء البدو، الذين يتنقلون في الصحراء مع الماعز، يقومون بالتعاطف معنا. إذا كنت اشتريت زوجين من الماعز من أحد البدو، فإنه سوف يمنحك حملاً مجاناً. عندما نسافر من خلال مناطقهم، يحمل لنا جمع النساء صواني الطعام على رؤوسهن، ورجالهم يُزوِّدوننا بالحليب والزبادي وبعض المحاصيل. إن أولئك الأهل يُميِّزوننا عن القوَّات المسلحة السودانيَّة، التي تنهب وتستولي على حيوانات البدو الفُقراء. نحن لم نفعل ذلك أبداً، ولذلك تعاطف معنا البدو.

في حرب الصحراء، نحن لا نستقر على قاعدة بعينها. نواصل دائماً تحرُّكنا، وبالتالي نحرم عدونا من أي هدف محدَّد للضرب. ولقد تعلمنا ذلك من جنوب السُّودان. فـ"الحركة الشعبيَّة" لا تستقر على قواعد ثابتة لأن ذلك يعد أمراً مكلفاً جداً.

في ذلك الوقت، اضطرَّت الحكومة الفرنسيَّة إلى عقد اتفاق مع حكومة السُّودان شمل تسليم الإرهابي الفنزويلي "كارلوس"، والذي كان يقيم في الخرطوم.. سلمته حكومة السُّودان لفرنسا. وفي المقابل، زوَّدت فرنسا حكومة السُّودان بخارطة تحدِّد قواعد الحركة الشعبيَّة. وذلك الأمر عوَّق إمكانيَّة تحقيق الحركة الشعبيَّة انتصاراتٍ على الحكومة. تعلمنا من تلك التجربة، وقرَّرنا منذ فترة طويلة بألاَّ نستقر في مكان يوفر حماية أفضل لقوَّاتنا. في الواقع نحن احتلينا "الطينة" في شمال دارفور مرَّتين، ولكن وجدنا أن لا فائدة من الاحتلال. وكانت لدينا قاعدة في "جبل مون"، لكن قرَّرنا تركها. الحفاظ عليها يعني تخصيص قوَّة كبيرة للحماية، والتي يمكن أن تُستخدم بشكلٍ أفضل لعمليَّات بعيداً عن تلك القاعدة.

كنا فكَّرنا أيضاً في تحرير دارفور من القوَّات المسلحة ومليشياتها في ظرف ستة أشهر. عقدنا ورشة عمل في الميدان للتفكير في ذلك الخيار. وكانت نتيجة ورشة العمل قاطعة، إذ رأينا أننا نملك القُدرات لذلك الفعل، ولكن التكلفة ستكون عالية بالنسبة للسُكَّان المحليين، وذلك أمرٌ لا يبرِّر هذا المشروع. فضلاً عن ذلك، فإن "حركة العدل والمساواة" ليس لديها خبرة في إدارة المُدُن، وإذا حدث أن تعطلت الإمدادات لهذه المُدُن فإن السُكَّان المحليين سيُعايشون أزمة حقيقيَّة. في النهاية رأينا أن هذا احتلال دارفور سيجلب انتصاراً رمزياً لـ"حركة العدل والمساواة"، ولكن كان يمكن أن يكون كارثة لشعبنا. لذلك تخلينا عن الفكرة تماماً.

تسألني عن حرب الصحراء، وأنا لن أقول لكُم أن ليس هناك جهة خبيرة بها كي تماثلنا في ذلك. ومع ذلك، فإننا لم نختبر القتال في تضاريس أخرى. صحيح أننا قاتلنا مؤخراً ثلاثة حروب في جبال النوبة. وقبل ذلك، قاتلنا بالقرب من حدود إريتريا، والتضاريس هناك كانت مختلفة عمَّا هو عليه الحال في دارفور. في غرب السُّودان، بما في ذلك كُردُفان، لديك تضاريس الصحراء مع الأشجار الصغيرة. نحن في حاجة إلى شجرة هنا وهناك لنلصق فيها السيارة كشكلٍ من أشكال التمويه. ولكن الكثير من الأشجار تصبح عقبة، إذ تعطل وضعنا القتالي. هذا هو الحال في مناطق السافانا الغنيَّة في جنوب كُردُفان والنيل الأزرق، وهناك يتم الآن تجنيد مؤيِّدين لـ"حركة العدل والمساواة" المحلية في القتال عبر كتائبها.

في هذه الضواحي، فإن الأشجار تعرقل "حركة العدل والمساواة" السريعة، وتوفر للعدو المجال الجغرافي للتغطية. لهذا السبب، شرعت الحركة بالفعل في إحياء استخدام جنود المُشاة. الحكومة بدأت أيضاً تعلم تكتيكات "حركة العدل والمساواة" مع مساعدة من المرتزقة التشاديين. ولكن الوقت سوف يحدِّد من هو الأذكى، عندما يتعلق الأمر باستخدام حِيَل الحرب الجديدة.

قصة "ابن ودّاي".. القائد محمّد آدم بدرالدين

في حال تجاذُبك أطراف الحديث مع القائد "بدرالدين" للحظة سوف تكتشف أنك قد خرجت بانطباعٍ مُؤدَّاه أنه يملك صفاتٍ مثيرة للإعجاب. فهو موهوبٌ بشعورٍ قوي بالقُدرة المثابرة على التخطيط. أفكاره مرتبة بشكلٍ جيد، ويختار عباراته بعناية، ويفتقر أنسه إلى التناقُضات المُعتادة التي دائماً تجدها في جميع "المؤانسات".

القائد "بدرالدين" اكتسب قوَّة التمرُّد من والده الرَّاحل، الذي قاتل من أجل العدالة. ولذلك فقد تفاني "بدرالدين" لمشروع عمله كما روى ذلك في حوار لي معه. فقد أشار إلى شموليَّة الحكومات الأفريقيَّة، وسعيها إلى البقاء في السُّلطة بأي ثمن. ورأى "بدرالدين" أن هذه الحكومات تخنق روح المبادرة، وتعطل نمو الأعمال. فهي بفعلها هذا، إنما تضمن استمرار الفقر، والانهيار الاقتصادي اللذين من شأنهما أن يقودا، في نهاية المطاف، إلى سقوطها.

سيرة تمرُّد القائد "بدرالدين" تشمل القتال في خمس عشرة معركة تعرَّض في واحدة منها إلى إصابة كبيرة، فضلاً عن المشاركة في محاولتين لإسقاط الحكومة، وسُجِنَ لمدة خمس سنوات. دعونا نسمح له ليحكي روايته..

اسمي "محمد آدم بدرالدين". وُلدتُ في "نيالا"، عاصمة جنوب دارفور في منتصف الخمسينات. أنتمي إلى مجموعة "ودَّاي" العرقيَّة التي حكمت المنطقة المُمتدَّة من بحيرة تشاد

إلى أجزاء كبيرة من دارفور، من ١٦٠٠ إلى ١٨٠٠م. ونحن أيضاً معروفون باثنين من الأسماء الأخرى، وهُما: "البرقو"، و"الصليحاب". أما لقب "ودَّاي" فيشير إلى الجذر الأساس للقبيلة.

كان والدي يعمل خياطاً وكان واحداً من مؤسِّسي حركة التمرُّد التي غزت في وقتٍ لاحق تشاد، وغيَّرت النظام السياسي هناك. خلال طفولتي المبكِّرة، كانت الحياة طبيعيَّة، وبكل المعاني ممتعة. ومع ذلك، حين كنتُ ابن الثامنة، ضربت الكوارث جميع أفراد الأسرة. بعد مقتل والدي في معركة ضد القوَّات التشاديَّة الحكوميَّة، بالضبط عبر الحدود من مدينة "الجنينة"، هاجرنا إلى "أبوعُشَر" في وسط السُّودان، حيث مشروع الجزيرة. كان جدي يعيش هناك وقرَّر أن نكون بجانبه. كان جدي شيخ القرية، وكان يؤجر مساحة في المشروع الزراعي الكبير. في "أبوعُشَر" أكملتُ الابتدائيَّة والمتوسِّطة قبل أن انتقل إلى مدرسة حنتوب الثانوية، وهي على بُعد خمسين كيلومتراً من منطقتنا.

اضطرَّني السعي إلى التعليم الجامعي التوجُّه إلى مصر، حيث درستُ الهندسة الزراعيَّة. تخرَّجتُ في جامعة أسيوط مهندساً زراعياً العام ١٩٨٦. اختياري دراسة الزراعة كان أكثر ملائمة لي لأنني نشأتُ في بيئة محاطة بالخُضرة في مشروع الجزيرة. ففي كل اتجاهٍ تنظر في "أبوعشر" سترى مزارع بعد مزارع، أو "الحوَّاشات" على حدِّ وصفهم، وهي تملأ الأفق. أنا أحب الزراعة كثيراً، وكنتُ دائماً أفتن برؤية المشروع الأخضر. على الرغم من هذا، كان هناك شيء يُسبِّب لي استياءً، وبالأحرى إنه كان يزعجني كثيراً. فقد كان متاحاً لجدِّي أن يُؤجِّر في المشروع بنفسه، ولكن لم يكُن الجميع يواجهون ذات الحظ.

تقريباً جميع الناس من أبناء شعبنا الذي جاءوا إلى المشروع من غرب السُّودان لم يحوزوا على عقودٍ لإيجار

الأرض. كانوا لا يملكون أرضاً زراعية. إنهم فقط يعملون كعُمَّالٍ ومستأجرين من قبل الميسورين الذين يُحبُّون الإشارة إلى أنفسهم بأنهم "عرب الجزيرة". كان العمال يعيشون في قرى بائسة تُسمَّى "الكنابي"، وكان لاستخدام "الكنابي" كمصطلح لهذه القُرى أكثر من دلالة تقديريَّة. فـ"الكنابي" ترتيب سكاني عابر، برغم أن سكانها كانوا هناك مقيمين في الأرض منذ عشرينات القرن الماضي.

في "الكنابي" لم يكن ليُسمح للسُكَّان المحليين امتلاك سكن دائم، حيث يمكن إزالة المباني ومسكنهم، أو ترحيلهم في أي وقت. وبالمثل، لا يمكن الحصول على إذنٍ لبناء المرافق العامة العادية، مثلما يحدُث في القرى والمُدُن القائمة في كل مكان. وبالتالي، لا يمكن لسُكَّان هذه "الكنابي" الحصول على موافقة حكوميَّة لبناء مدارس، أو عيادات أو مراكز المياه، حتى ولو كانوا يتحمَّلون بأنفسهم تكاليف البناء كاملة. أدَّى هذا القانون المشابه لقوانين الفصل العُنصري إلى غياب المرافق العامَّة في هذه القرى، التي واجهت هذه القواعد التمييزيَّة.

غنيٌ عن القول، حصل عددٌ قليل فقط من أطفال "الكنابي" على فرص للتعليم – هذا إن لم يعايشوا أمراض سوء التغذية والفقر بقيَّة حياتهم. اعترف أن تحمُّل الفقر وسط هذه البيئة كان مسألة مُحبطة، ولكن مع ذلك تحمَّلناه، نظرياً، بقسوة. غير أن ما كان صعباً تحمُّله، عملياً، هو واقع الفقر وسط الوفرة.

كان المشروع ينقسم إلى فئتين، حرفياً: المستأجرون الذين كان الطعام شبه مضمون بالنسبة لهُم، وهناك عُمَّال الزراعة الذين لا يملكون شيئاً يمكن الاعتماد عليه. الطبقات المُعدمة ـ إذ يشكِّلها أهلي فائضو العمالة ـ يمكن لهُم العثور على عملٍ فقط عندما يكون المستأجرون غير قادرين، أو غير راغبين في القيام بإيجار الأرض.

كان جدي يقف على رأس جيش كبير من الفقراء الذين لا يملكون عملاً، أو أرضاً. لم أكن لديَّ الفرصة لمغادرة المنزل لأشهد الفقر أولاً. على العكس من ذلك، فإن العمال يأتون إلى منزلنا مع مشاكلهم، إذ يمكنني حرفياً رؤية الفقر المُدقِع في عيونهم، وأجسادهم، وملابسهم، وألسنتهم حين أتحدَّث إليهم. ما زلتُ أتذكَّر جيداً تجمعاً لهؤلاء العُمَّال المحتجين في منزلنا يوماً. والعمال كانوا غاضبين لأن إدارة المشروع رفضت التماسهم بتشكيل نقابة خاصة بهم، بل وأصرَّت على أن يكونوا فقط ممثلين من خلال اتحاد المستأجرين.

رأى العمال أولئك المستأجرين كمنافسين وعمَّالٍ لهُم في نفس الوقت وذلك كان سبب رغبتهم في تكوين نقابتهم الخاصة. بعد فترة طويلة ونقاش غاضب، أدرك العمال ضعفهم، فما كان عليهم إلا التراجُع عن مطلبهم. لم يكُن لديهم أي خيار آخر، بينما كان من التدبير القانوني لإدارة المشروع إزالة كنابيهم بدون إخطارهم بإنذارٍ مُسبَق. وتمَّ تصنيف مخيَّمات العمال قانوناً كمستوطنات عابرة، حتى ولو كانوا هناك لعدة عقود. وعندما غادر هؤلاء العمال المنزل، كانوا غاضبين لدرجة كنا فيها خائفين بأن يسعوا إلى إحداث الشغب في المشروع، لكنهم لم يفعلوا، وحمدنا الله.

مع ذلك كنتُ أتساءل دائماً عن صبر هؤلاء العُمَّال المُعدَمين من الأرض، بشكلٍ يُحسدُ عليه في تحمُّل القهر، والإذلال، والظلم. كان من الصَّعب التساؤل إلى متى ينفذ صبرهم قبل أن يحملوا السِّلاح مثلي؟!

تحديات صنع الحياة

عندما تخرَّجتُ، اعتقدتُ بسذاجة إمكانيَّة الانضمام إلى المشروع كمهندسٍ زراعي، وأن أصبح صوتاً لمن لا صوت لهُم، صوت أولئك العُمَّال الزراعيين. بالطبع لم يأخذ مني التفكير وقتاً طويلاً حتى استيقظتُ على فداحة الواقع. ما زلتُ

أجهل إلى الآن: كيف أنني كنت ساذجاً في ذلك الوقت فيما كان يجب عليَّ أن أكون على وعي تام بأنه لم يكُن هناك مهندس واحد في مشروع الجزيرة يشاركني الهمَّ الكئيب ذو الخلفيَّة "الكنابيَّة".

فبينما كنتُ في مدرسة حنتوب الثانويَّة، التحقتُ بـ"الحركة الإسلاميَّة". لحظتها كنا صغاراً ومتمرِّدين ويتملكنا بعض نفور من نظام النميري وثورته. شعرنا أيضاً أن الحزبين الكبيرين، الأمَّة والاتحادي، عطلا قُدراتنا. معظم الشباب الذين رغبوا في التغيير ما كان أمامهم سوى الانضمام إلى الجبهة الإسلاميَّة، أو الحزب الشيوعي. جذبت الجبهة الإسلاميَّة الشباب من المناطق الريفيَّة الأكثر تقليديَّة. أما الحزب الشيوعي فقد جذب سُكَّان الحضر، ولم يكن هناك شئاً لنفعله غير ذلك.

الإسلاميون كانوا منظمين جيداً، ومتحدثين بلباقة، وفتنونا بكلماتهم الرائعة. إنها أشعلت أحلامنا، وقدَّمت لنا الأمل لبلد أفضل، وسودانٍ من العدالة والازدهار. فأنا نشأتُ في أسرة محافظة وكان من الطبيعي أن انجذب إلى الإسلاميين. وهكذا عندما فشلت في العثور على وظيفة باستخدام شهادتي الجامعيَّة، قدَّمَت لي الجبهة الإسلاميَّة ملجأ وعندما اقتربتُ من الإسلاميين أكثر في عام ١٩٨٦، كانوا سعداء أن يكون هناك شخص مثلي هو على استعداد للذهاب إلى دارفور، والعمل على تنظيم الحملات، وتجنيد طلاب من الفئات الأصغر سناً من المواطنين.

صحيح أنني قضيتُ معظم شبابي في "أبوعشر" في وسط السُّودان. ومع ذلك، لم أنس ذكريات الطفولة في "نيالا" بدارفور. أوَّل زيارة لي إلى نيالا كانت لمشروع طموح. ذهبتُ مباشرة إلى البيت الذي كنتُ قد وُلدتُ فيه. لقد جُبتُ شوارع المنطقة شارعاً بشارع. كان الأمر مبهجاً بالنسبة لي للتعرُّف على نفس الأشجار، والحجارة، والطوب، والجُدران التي كانت تحمل بعض الرسومات التي كنا قد أسبغناها عليها منذ فترة

طويلة. كنتُ مبتهجاً بذكريات الطفولة المُبكِّرة في مدينة "نيالا"، المدينة الوحيدة التي أردتُ العيش فيها. كان عملي في تجنيد من استهدفتُ للانضمام إلى جبهة الإسلاميَّة قد سار بخير، ولكن لم أجد جزاءً عليه. منذ ذلك الوقت، بدأت مظاهر التصدُّع تظهر بيننا نحن الإسلاميين، وأدركتُ الأمر أثناء عملي الذي استغرقني بعيداً عن حُب حياتي الزراعيَّة. لقد نشأتُ في وسط مشروع زراعي، وتلا ذلك الحياة الجامعيَّة. على عكس المهندسين الزراعيين الآخرين في البلد، كنتُ على استعدادٍ للعمل بيدي، وهذا ما انتهى بي الأمر لعمله.

في عام ١٩٨٩، تركتُ منصبي الوظيفي وقرَّرتُ العودة إلى الزراعة. دخلتُ في شراكة مع شخص في "نيالا" بمهمَّة عمل مزرعة في ضواحي المدينة. في هذا الوقت، تزوجتُ وكوَّنتُ أسرة صغيرة. العمل في المزرعة سار على ما يرام، لكنه لم يكُن ليُقدِّم ما يكفي من الدخل لتغطية رعاية عائلتي. لم تكُن لديَّ أي أموال لتحسين المزرعة، ولهذا عجزنا عن دفع الضريبة المقرَّرة في المدينة. في ذلك الوقت، غطينا النفقات العامة، ولم يكُن هناك ما يكفي من الدخل لي وشريك العمل، لذلك بدأتُ أبحثُ عن مصدر دخل بديل.

في عام ١٩٩٢، صرتُ مديراً للهلال الأحمر في "الفاشر"، عاصمة إقليم دارفور. عملي تواصَلَ بشكلٍ جيِّد للغاية، حتى وضعت الحكومة سياسة جديدة تمشياً مع تقسيم المنطقة إلى ثلاث ولايات منفصلة. وأخيراً، انتهى بي الأمر لأشغل منصب مدير منظمة الهلال الأحمر، فرع "نيالا"، ولكن كانت رئاسة العمل في "الفاشر". للأسف، كان لإنشاء الأقاليم الثلاث بعض تأثير سلبي على المنظمة. وتمَّ عمل فرع لها في ولايتي جنوب وغرب دارفور. تمويل عمليَّة منظمة الهلال الأحمر خارج الفاشر كان صعباً. المنافسات اندلعت بين الأقاليم وأصبح من المستحيل حصولنا على دعم مالي في فرع المنظمة في "نيالا"، عاصمة جنوب دارفور. عانيتُ في محاولة

التمويل، وناضلنا حتى لدفع رواتب الموظفين. ولحُسن الحظ، لاحت لنا فرصة. فقد لاحظتُ عندما وصلتُ إلى "نيالا" وجود مشكلة رهيبة. فالمدينة تفتقر إلى وجود المراحيض العامَّة. "نيالا" بأكملها تستخدم أحد المراحيض العامة المتهالكة في مركز السوق. ولك أن تتخيَّل هذا النوع من المخاطر الصحيَّة الناجمة على الأحياء المجاورة. بالطبع المساجد دعمت بمراحيض بديلة، ولكن لم تكن هناك مساجد تكفي، وليست كلها تملك المرافق الكافية المرتبطة بها، وبالتأكيد لا يوجد عمال يقومون بنظافتها بانتظام.

قرَّرنا في الهلال الأحمر عمل خُطة لبناء مرحاض تجاري عام كعنصر من عناصر مشاريعنا للصحَّة العامة. وكان المرحاض قد سجَّل نجاحاً فورياً. كان نظيفاً، ويعمل بشكلٍ كاملٍ وكان على المستخدمين أن يدفعوا رسوماً رمزيَّة لاستخدام المرحاض.

لدهشتنا، أصبح المرحاض مصدراً رئيسياً لدخل مكتب الهلال الأحمر، وأصبح يدخل نحو ٣٢ ألف دينار في اليوم. ليس ذلك فحسب، ولكن المرحاض مكَّننا من دفع رواتب الموظفين بشكلٍ منتظم. ولنكُن أكثر دقة، كان العُمَّال يتحصَّلون على رواتبهم بانتظام في بداية كل شهر، ولكني لم أكُن أحصُل على راتبي بهذه الطريقة. ربَّما كنتُ المدير الوحيد في البلاد، وربَّما في العالم كله، الذي كان يتلقى راتبه عبر مبالغ صغيرة، مع متبقيات يتعيَّن أخذها نهاية الشهر، وهكذا ثابرنا.

والي الولاية أُعجِبَ بخيال حلنا لمشكلة المرحاض، حيث بفكرة بسيطة عالجنا مشكلة مزمنة في المدينة. دعاني إلى مكتبه لمناقشة ومعرفة ما إذا كنتُ أقدر على مساعدته على معالجة المشكلة التي تضايقه. وكما أعرب في الاجتماع، قال لي إن هناك فائضاً في خُردوات السيارات التي لا بُدَّ من التخلص منها في الولاية. عرض عليَّ الوالي وظيفة لجرد هذه

المركبات، بالإضافة إلى خُطة للتخلص منها. كان هدف تفكيره الجوهري هو جمعُ الأموال من أجل الولاية التي كانت تعاني ضائقة ماليَّة. اتفقنا على مدَّة محدَّدة لتُمكِّنني من إعداد دراسة جدوى للمشروع.

بعد أسابيع قليلة، ظهرتُ في مكتب المحافظ مع خُطتي للتخلص من فائض المركبات. لا بُدَّ لي أن اعترف أن الوالي إلى حدٍ ما أصابه الخَجَل أن حكومته تفتقر إلى إحصائيات موثوقة عن عدد المركبات التي تملكها، بل وليس لديها معلومات عن مكان وجود بعض منها. على الرغم من هذا، كان لدينا بعض الأرقام للعمل بها. وفقاً لاقتراح قدَّمته إلى الوالي، أن نعمل مزاداً في المكان الذي توجد فيه هذه المركبات. ونحن أيضاً أدركنا أن المزاد العلني من شأنه أن يجلب المنفعة الاقتصاديَّة، وعبر لجنة سيتم تشكيلها للإشراف على المشروع.

كانت بعض المركبات في المناطق النائية، وطرحها في المزاد العلني ربَّما لا يغطي تكاليف سفر فريقنا لمواقعها. بعض الخردوات لا قيمة لها، ولكن يمكن استخدامها لأغراضٍ فرديَّة. هُنا اقترحنا للوالي أن تمنح بعض المركبات مجاناً للجمعيات الخيريَّة المحليَّة والمنظمات والمدارس. أو ببساطة، تمنح كمكافأة لأصحاب المعاشات والزعماء التقليديين الذين كانوا على استعداد وقادرين على الاستفادة منها. وفي كلتا الحالتين، كان التخلص من كل سيارة واحدة يتطلب الموافقة من الوزير المختص، وبالتالي أكَّد الوالي كامل السيطرة على الإجراءات والإيرادات.

شعر الوالي بسعادة غامرة، وأعطاني الضوء الأخضر مع العمل، بشرط أن أورِّد نحو ٢٠ مليون ديناراً في نهاية أوَّل عام للمشروع. كانت تلك عائداتٍ كبيرة في ذلك الوقت. شرعنا في العمل كما هو مُخطط له. وكان المشروع ناجحاً جداً، وتجاوز الحد المتوقع، وارتفعت الإيرادات إلى نحو ستة

وأربعين مليون دينار. لكن كانت هناك مشكلة. فالعمل كشف النقاب عن مخالفاتٍ في العمل محرجة، وبالتالي جلبت لي الكثير من الأعداء لمشروع أنتج خاسرين، وكذلك مستفيدين. ولاحقاً بدت لنا مشكلة أخرى تتعلق بدفع تكاليف متعلقة بمن تمَّت الاستعانة بهم، وببعض الالتزامات الماليَّة الأخرى. وكما قلتُ، جذب عملي العديد من الأعداء ضدِّي شخصياً، ولكني ثابرتُ لفترة من الوقت وتشجَّعتُ بواسطة العديد من الذين أشادوا بالعمل.

بعد ذلك بقليل، أُعفِيَ الوالي وحلَّ محله الوالي الجديد صلاح علي الغالي وهو من قبيلة "الهبَّانية". حارب آل الغالي من أجل استقدام أعضاء القبيلة في الوظائف العُليا، فيما عُرف وقتها بـ"هبننة" الولاية. قدَّم هذا التحوُّل في الأحداث فرصة ذهبيَّة لأولئك الذين كانوا عاجزين عن إجبار المحافظ السابق على التخلص مني.

تمَّت إقالتي وكانت استثنائيَّة، إذ أعلنت على شاشة التلفزيون. حسناً، لم أكُن الوحيد الذي تعرَّض لهذا الإذلال الذي لا لزوم له. كان الأمر أقرب إلى انقلاب سياسي طال بالتطهير مناصري الحاكم السابق، الذين تمَّ ضمهم إلى قائمة الإقالة التي أذاعها التلفزيون. وكانت إقالتي قاسية وبطريقة متميِّزة، ذلك أنها تزامنت مع انقسام الإسلاميين في الخرطوم بين البشير والتُرابي. ولأنني لم أؤيِّد البشير، افترضوا أنني كنتُ مع الترابي. كان ذلك غير صحيح. فدعم مجموعتنا للجبهة الإسلاميَّة كان قد توقف قبل فترة طويلة من التحرُّكات المخيِّبة لقادتها. والحالُ هكذا، فقد أوصلنا مظالمنا إلى علم الكُلِّ، بما في ذلك التُرابي ولكن دون جدوى. في الواقع أثناء إقالتي كنتُ أعملُ بالفعل لـ"حركة العدل والمساواة"، وليس لديَّ ولاءٌ سواءٌ للتُرابي أو البشير. بعد عزلي من منصبي كان عليَّ الذهاب إلى المحكمة لإجبار الوالي الجديد على دفع مكافآت عملي، والتي هي حق كل موظف.

عملي مع الهلال الأحمر تعرَّض أيضاً إلى هجوم من السُّلطة الحاكمة الجديدة. ولأني المدير للهلال الأحمر، كانت لي سيَّارة المنظمة، وكان من المسموح لي استخدامها للحاجيات الخاصة. في ذات يوم، جاء رجالُ الأمن واحتجزوا السيَّارة وطالبوا بأن أذهب للتحدُّث معهم، ورفضتُ الانصياع. ولما كنتُ أعرف وزيراً في الحكومة، طلبت منه التحدُّث مع المسئولين في الأمن من أجل الحصول على السيَّارة التابعة للهلال الأحمر كمؤسَّسة مستقلة.

تمكَّن الوزير من استرداد السيارة، ولكن أصبح العمل في الهلال الأحمر لا يُطاق بالنسبة لي. فقد خُفِّض دوره ليكون منظمة لرعاية المرحاض قيد التشغيل، وذلك أمرٌ بعيدٌ كُلَّ البُعد عن دور الهلال الأحمر، الذي تصوَّرناه. لذلك غادرتُ حين أحسستُ أنه لم يكن لديَّ عجزٌ في وسائل أخرى لإطعام عائلتي، وتوقعتُ أنهم سيسمحون لي بالعمل الجديد.

نظراً لمُؤهِّلي في الزراعة، كان هناك الكثير الذي يمكن القيام به في هذا المجال. فبعد أن وظفت كل قرش وفرته اشتريتُ واحدة من أبقار سلالة "هولشتاين" وأبقيتُها في المنزل. وفي حال الاعتناء بمثل هذا النوع من الأبقار، وتوفير الاهتمام البيطري الكافي، فإنه يمكن أن تنتج أكثر من ٢٠ لتراً من الحليب يومياً. فقد كان الحليب في "نيالا" مكلفاً، وتعاني المدينة من عدم انتظام الإمداد لحليب طازج وغير ملوَّث. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه باستخدام التلقيح الاصطناعي، يمكن لمثل هذا النوع من الأبقار أن ينتج على الأقل كل عام عجلاً. كنتُ مؤهَّلاً في هذا الصدد، وبالتالي احتجتُ إلى خبرةً قليلة على أن أبقي تكاليف التشغيل على مستوى مقبول.

بقرتي الجميلة أنتجت بشكلٍ جيِّد جداً، بل كأننا أصبحنا صديقين حميمين. كان الزبائن يتوافدون إلى منزلي كلَّ صباح ومساء، ومع ذلك لم أفِ لهُم بكُلّ ما يطلبون. أدفعُ لبعض الجيران الذين كانوا فقراء جداً القليل من الحليب مجاناً، لأنهم

كانوا فقط يصُبُّون بعض الحليب في الشاي الصباحي. لم أكن الوحيد في المدينة الذي يملك البقر، أو الماعز، أو الحيوانات الأخرى في المنزل. وكان موظف الضرائب يحصُل أيضاً على المستحقات التي يحدِّدها في كُلِّ مرَّة يظهر في بيتي. لكن السياسة حلت بقُبحِها. فأفراد الأمن كانوا يكيدون المكائد. ففي ظنهم أنني كنتُ من مُؤيِّدي عدُوِّهِم اللدود "التُرابي"، ولذلك سعوا إلى تجويعي لحَدِّ الموت الكامل. وللأسف، لم أستطع أن أقول لهم إنني كنتُ أعمل لـ"حركة العدل والمساواة" وليس لصالح التُرابي.

في ذلك الوقت، لم تكُن "حركة العدل والمساواة" قد استهلكت مراقبة رجال الأمن، ولذلك تركتُهُم مشغولين بهَوَسِهِم حول التُرابي. خفضتُ رأسي لأسفل أثناء استمرار عملي مع "حركة العدل والمساواة" وحافظتُ في الوقت نفسه على رعاية أسرتي أيضاً. خلال تلك الأيام، ظهرت فرصة تجاريَّة طفيفة في ميدان الاتصالات الهاتفيَّة، واجتذب ذلك انتباهي. كانت الهواتف النقالة ليست شائعة في ذلك الوقت، وكان نظام الهاتف العام في المدينة غير فاعِلٍ. فكرتُ في ذلك، ثم وضعتُ خُطة بحيث يمكن أن أقوم بتثبيت نظام الهاتف ودعوة الزبائن لاستخدام هاتفي لقاء رسوم.

اشتريتُ بعض الدقائق من 'سوداتل'، وهي الشركة التي كانت توفر خدمة الاتصالات، وهكذا صرتُ مستثمراً صغيراً. لم يكُن لديَّ المال الكافي لاستئجار مكتب. لذلك بدأتُ العمل من خلال هاتفي. ولكن هذا النشاط أسهم في جذب أفراد الأمن الذين وظفوا عملائِهِم في مجلس المدينة للإيقاع بي. وأخيراً منعوني من ممارسة عملي الاستثماري بالطريقة التي صُمِّمت، وحطموا الأمل.

نقلتُ المشروع إلى منزلي، والعملاء استمرُّوا في شراء المكالمات. مكتب الأمن أطلق الذراع الأخرى، حيث جاءني

مكتب الضرائب، وطالبوا برسم الترخيص الذي تجاوز بكثير حجم العمل. وكنتُ على دراية بهذه التكتيكات المعروفة والتي يستخدمها السياسيون. ولقد نجحت الخُطة واضطررتُ إلى التخلي عن العمل تماماً بقناعة أنه لا حدَّ لبراعة الإنسان في إلحاق الأذى بالآخر.

عوداً للزراعة، فإن حُبي لها لم يضعُف. وكانت هناك فرص وافرة لاستخدام تأهيلي في هذا المجال. ففي وقتٍ ما قبل ذلك كُنتُ قد شاهدتُ فيلماً يابانياً صدر أصلاً في عام ١٩٨٣. كان الفيلم يتناول تحدِّي فتاة فقيرة اسمها "أوشين" والتي نهضت بحياتها الاجتماعية رغم كل صعاب الفقر المُدقِع، وأخيراً امتلكت سلسلة سوبرماركت في كل أقاليم اليابان.

كانت القصَّة مصدر إلهام بالنسبة لي بعد كل التحديات التي واجهتها في حياتي. فقرَّرتُ توظيف تحدي "أوشين" للأعمال التجاريَّة والزراعيَّة ذات الفائدة. كانت الفكرة هي الحصول على جرَّار وبناء الأعمال التجاريَّة من خلاله عبر خطة عشريَّة. وكانت فكرة امتلاك الجرَّار ليصبح مركزاً لأعمال أخرى، تبعاً لاحتياجات العملاء المُوسميَّة. فالجرَّار يمكن أن يُلحق بمقطورة لنقل البضائع، أو خزان لتوصيل المياه أو محراث وحاصدة زراعيَّة، وغيرها من المهام الأخرى. الاحتمالات كانت لا نهاية لها، وكنتُ على استعدادٍ للقيام بمعظم العمل بنفسي.

خلال موسم الأمطار، تركتُ "نيالا" للمنطقة الريفيَّة مع جرَّاري. أنجزتُ بعض العمل لعددٍ من المزارعين، حيث الحرث ونقل المنتجات الزراعيَّة وما إلى ذلك. ومع كُلِّ هذا، فإن مكتب الأمن بدأ يثير الريبة في عملي في المنطقة الريفيَّة.

إنهم لم يكُن ليعتقدوا أنني أسعى إلى كسب لقمة العيش. فبالنسبة لمعظم رجال الأمن، فإن المهندسين لا يقودون الجرَّارات، وكانوا يعتقدون أن حرث المزارع مناسب للأمِّيين

وفاقدي التعليم من المزارعين. اشتبهوا أنني قد كنتُ هناك بهدف التخفي وربَّما لتنظيم تمرُّدٍ.

نتيجة لذلك، تبعوني في كُلِّ مكان. عطلوا عملي، وطالبوا أن أقدِّم تقريراً إلى مكاتبهم بين فترة وأخرى عن نشاطي، وأخافوا زبائني. كان الناس خائفين من وكلاء الأمن ولم يرغبوا في إقامة علاقة مع أي شخص يَلفِت انتباهَهُم. باختصار، أصبح من المستحيل بالنسبة لي كسب العيش في "نيالا".

كل الطرق تؤدِّي إلى العَدلِ والمُسَاوَاة

كنتُ بالفعل على اتصالٍ بقادة "حركة العدل والمساواة" وأبقيتُ على اتصالٍ مع الدكتور خليل في السنوات السابقة. أبوبكر حامد كان أيضاً على اتصالٍ بي. فقد زار منزلي مرَّتين في "نيالا" وكان لدينا محادثاتٍ مطوَّلة حول "حركة العدل والمساواة" واحتمال بدء الكفاح المسلح. إنهم، في الواقع، عهدوا لي أمر التعبئة في دارفور، ولكني انشغلت بالالتزامات الأخرى ولم أنجز شيئاً بقدر ما تمنَّيت. بعد تجربتي المؤلمة في "نيالا"، لم أكن بحاجة إلى تذكير أو تشجيع من أحد. على الفور قنعتُ بـ"حركة العدل والمساواة" وأعلنتُ استعدادي للعمل. في عام ٢٠٠٤، تركتُ "نيالا" وذهبتُ إلى الخرطوم لبعض الأعمال السريَّة، وبالتحديد كانت محاولة "حركة العدل والمساواة" الثانية لقلب نظام الحُكم.

كان واجبنا الفوري تجنيد أفرادٍ للجيش في منطقة الخرطوم الكُبرى. كنا نسعى لتشكيل الخلايا، وبذلك فُرض على كل واحدٍ منا أن يُجنِّد عشرة أشخاص، على أن يكون معظمهم من محيط الأسرة والأصدقاء وجماعات عرقيَّة محدَّدة. يجب أن أقول إنني بذلتُ قصارى جهدي، ولكن لا أعتقد أنني كنتُ مناسباً لأداء هذا النوع من العمل. فالعمل كان يتطلب نهجاً غارقاً جداً في الدبلوماسيَّة الدقيقة التي لا تناسب حقاً أسلوبي في

الاتصال مع الآخرين. أنجزتُ بعض التقدُّم في تنسيق عمل قادة الخلايا قبل أن أتولى مهمَّة أخرى.

أما مهمَّتي الثانية، فكانت تولى أمر نقل الأسلحة إلى الخرطوم لاستخدامها في الانقلاب المُخطط له. وكانت الخُطة تقتضي شراء الأسلحة من بلدٍ مجاور (حُجِبَ الاسم) وتقديمها إلى الخرطوم.

وصلت الأسلحة في شاحنات مصمَّمة وكأنها متجهة لكماين الطوب الأحمر. وكانت هذه الكمائن توجد في جميع أنحاء الخرطوم، وتنتشر على ضفاف النيلين الأبيض والأزرق ونهر النيل. لقد كانت الكماين صناعة مزدهرة تدُرُّ عدَّة ملايين وتغذي البناء الخرطومي الآخذ في التوسُّع. هكذا جاءت أسلحتنا مخبَّأة داخل أكوام من الحطب المستخدم في أفران الكماين. الخطة أنه بمجرَّد أن تصل الشحنة إلى الكمينة، كنا هناك على استعداد لتجميعها. أما الشاحنات التي تنقل الطوب الأحمر إلى مواقع البناء المختلفة، فهي تحرِّك أسلحتنا إلى مواقع مختلفة، ومن هناك توزَّع في سيارة خاصة صغيرة. كنا العمال الحمَّالين في هذه الشاحنات، وكنتَ تجد شكلنا بائساً، وفقيرين جداً، وبالتأكيد ساذجين سياسياً. وعند نقاط التفتيش، لم يكن أفراد رجال الأمن أو الجيش يرغبون في التحدُّث مع العمَّال المتواضعين والبائسين مثلنا. بالكاد كنا نتحدَّث لهجة أمدرمان لنطلق النكات السياسيَّة، ولم نكُن نملك مالاً لرشوتهم. على الأكثر، كانت الشاحنات تُظهِر أدلة التسجيل الضريبي حتى لا يتعقد معهم الأمر.

حسناً، لا بُدَّ لي من الاعتراف أننا كنا تحت رحمة من مخاطر محتملة لا أحد يستطيع توقُّعها. تخيَّل الديكتاتوريَّة التونسيَّة وكيف انهارت. ولقد بدأ الربيع العربي مع رجُلٍ مُحبَط أشعل النار في نفسه. وقد تصادف وجود شخصٍ بجانب ذلك الرجُل، كان يملك هاتفاً محمولاً وعرف بالموضوع، فقام ببث

صورة الحدث على مواقع الإنترنت. بعدها تحوَّل العالم العربي كله إلى الانتفاض، وأطيح بالعديد من الحُكَّام المستبدين.

كانت خُطتنا باعتراف الجميع مثيرة جداً، وبعيدة المدى بالنسبة للآخرين، وتحقيقها مرتبطٌ بالصدفة المحضة. فقد كان هناك شخصٌ من شمال السُّودان، وليس لديه أي علاقة بخطتنا السياسيَّة، والاجتماعيَّة. فقد سجَّل ذلك الرجل زيارة أسريَّة لقريبة زوجته التي كانت متزوِّجة من رجُلٍ متعاطف مع قضيَّتنا. كان لدى الرجل المُضيف بعض الاتصالات مع مجموعة التُرابي المنتمية إلى الحركة الإسلاميَّة. لاحظ الشخص مجموعة من البنادق تحت سرير في الغرفة التي كان يتحادث فيها مع ذلك الرجل. وهكذا قفز فوراً إلى استنتاج مفاده أن التُرابي كان يُخطط لقلب نظام الحُكم. فنقل نتائج ما توصَّل إليه إلى الصادق المهدي، رئيس حزب الأمَّة. أما الصادق، فبدوره نقل المعلومات بالتفصيل إلى صلاح قوش، رئيس جهاز الاستخبارات في ذلك الوقت. وتمَّت العمليَّة عبر الهاتف، الأمر الذي لفت اهتمام واحدة من "خلايانا النائمة" التي علمت بالأمر.

حقاً كان لـ"حركة العدل والمساواة" خلايا نائمة. الذين يشكِّلونها طُلِبَ منهم أن يكونوا نشطين في جميع الأحزاب السياسيَّة السودانيَّة، بما فيها حزب المؤتمر الوطني الحاكم. إن أعضاء خلايانا النائمة كانوا ينقلون لنا معلومات سريَّة من داخل تلك الأحزاب، ولكن أنا متأكد أن بعض تلك الأحزاب أيضاً زرع بعض المندسين في "حركة العدل والمساواة". كان هذا ما عليه أمر "ساس يسوس" ومنافسونا لم يكونوا أقل ذكاء منا.

كانت خطتنا تسير بمهنيَّة عالية. وما كان أكثر حيرة، هو موقف "المهدي" الذي كان مستعداً للقيام بكل شيءٍ لتعويق صهره التُرابي، الذي أطاح بحكومته المنتخبة، وعيَّن البشير بدلاً عنه في القصر الرئاسي.

في الوقت الذي كان قوش يتلقى تفاصيل شحنة الأسلحة، كان لخلايانا النائمة أيضاً اتصالاتٍ بنا للعمل بسرعة لإزالة أي أدلة اتهام. وتبع ذلك السباق ذهاب أفرادنا إلى ذلك المنزل واخذوا الأسلحة قبل وصول عملاء صلاح قوش. وفعلاً، عندما وصل رجال الأمن إلى المنزل لم يجدوا الأسلحة، وبدلاً من ذلك اعتقلوا جميع أفراد الأسرة، وكذلك جيرانهم، بما في ذلك النساء، وأخضعوهم للضرب والتعذيب والاحتجاز في "بيوت الأشباح".

إذن، أصبح من الواضح لنا جميعاً أن بلاغ "المهدي" من شأنه أن يؤدِّي في نهاية المطاف إلى الكشف عن خُطتنا. إنه عرَّض بعض أعضائنا لمتابعة الأمن. وكنا نعرف بالضبط كيف أن هذا التضييق علينا سوف يستمرَّ ويتعقب كل شخصٍ لديه بعض الاتصالات بعائلات المشتبه بهم. أعلمت القيادة بأن خطتنا تصدَّعت. جاء "أحمد بخيت" وناقش هذه القضيَّة، وأجرى اتصالاً هاتفياً بالدكتور خليل، الذي كان خارج البلاد في ذلك الوقت، وأخيراً أمرنا بإلغاء الخُطة والخروج من الخرطوم.

شرعنا على الفور في خُطة الهروب إلى إريتريا. غادرتُ الخرطوم مع أربعة آخرين إلى شرق السُّودان. رحلتنا تمَّت بسلاسة حتى وصلنا إلى بلدة "خشم القربة" التي تقع إلى الجنوب الغربي من كسلا. ولا بُدَّ لي من الاعتراف أن خُطة الهروب كانت قد تمَّت بمخاطرة. فكان يجب على المنظمين أن يأخذوا في الاعتبار حالة الطوارئ في ذلك الوقت، وأن الجيش كان في حالة تأهُّبٍ كامل. وعلاوة على ذلك، سافرنا في شاحنة صغيرة تجاريَّة، مليئة بالعمال الزراعيين، ونحن ببساطة كنا لا نناسب هيأتهم. ولذلك اعتقلنا رجال الأمن ونقلونا إلى مقرِّهم في كسلا. خلال الاستجواب، أعطيتهم اسماً زائفاً وهو "مختار محمد حسن" وتمسَّكتُ بهذا الاسم لعدة أيام.

في نهاية المطاف، جلب رجال الأمن بعض الأشخاص ليتعرَّفوا علينا. كنا نجلس في غرفة مغلقة ويأتي العرَّافون المحتملون لينظروا إلينا من خلال ثقب في باب الغرفة. ويُمكن أن تستغرق هذه العمليَّة عدَّة أسابيع حتى يتم التعرُّف عليك.

أخيراً، تمَّ نقلنا من كسلا إلى مركز احتجاز الأمن الشهير في العاصمة، والمُسمَّى بـ"أبوغريب"، والذي يقع تحت جسر بُرِّي في الضفة الغربية لنهر النيل. "أبوغريب" يُجسِّد بحق وحشيَّة حكومة الخرطوم، لكنه يعكس أيضاً الاستخدام العالمي المُتعارف عليه للتعذيب لانتزاع المعلومات.

الضباط الذين يُديرون "أبوغريب" تمَّ تدريبهم في مختلف البلدان، بدءً بالولايات المتحدة الأمريكية، إلى ألمانيا الشرقية، إيران، والمملكة العربيَّة السعوديَّة. وكان مصطلح "أبوغريب" نفسه أجنبي، ففي الأصل يعود إلى سجن "أبوغريب" سيئ السُّمعة، وهو مركزٌ للجيش الأمريكي أنشئ في بغداد بعد هزيمة صدَّام حسين في العراق. من الصعب أن تصف هذا النوع من التعذيب الذي واجهنا في سجن "أبوغريب". والأصعب من ذلك وصف الطريقة التي تعايشنا فيها، لأن كثيرين لم يستطيعوا. إذ يعتقد خبراء التعذيب أن أسلوب "أبوغريب" هو أفضل وسيلة لانتزاع المعلومات، ولكن نظريَّتهم كانت معيبة، ويتساءل المرء: كم من أشكال الغباء يمكن أن يعتقد فيها البشر؟! فالتعذيب يمكن أن يولد قليلاً من المعلومات وبعدها يشعر ضحيَّته أنه لا طائل من التعاوُن. في اللحظة التي تجد نفسك في "أبوغريب" وتكون في مواجهة مع موظفيه المهينين لا بُدَّ أن توفق نفسك حتى مع الموت، وبعدها لا يهم أي شيء آخر.

في سجن "أبوغريب" وُضِعنا في غُرفٍ معروفة بالـ"سخَّانات". مساحة غرفة "السخَّان" أقلَّ من ٢ متر مربَّع. وكانت الغرفة بلا نوافذ ولا يأتيها ضوء الشمس. يبقى الباب

مغلقاً إلا عندما تحين لحظة التعذيب، أو عندما تظهر يد تدفع إليك بالأكل. تمَّ تثبيت وحدة تكييف الهواء على جدار واحد بالقرب من السقف ولكن لا تحبس أنفاسك إذا قلت لك إن التكييف ليس لصالح غرفة النزيل، بل للذين يجلسون في الجوار. يتم تثبيت تكييف الهواء بطريقة معكوسة، حيث ترى فقط الجزء الخلفي منه، وتأتي حرارة مشغِّل التكييف في اتجاهِك. في غضون دقائق من تشغيل جهاز التكييف المُثبَّت في الغرفة، تسخن الغرفة ثمَّ تستطيع أن تلمس عرقك يتصبَّب من "السخانة" على الأرض وتجد ملابسك وقد أصبحت ملتصقة بجسمك.

يبدأ التعذيب في الثالثة عصراً ويستمر حتى الواحدة ليلاً. ببساطة، ليس هناك قوانين للتعذيب. إذ يأتي أكثر من رجُلٍ ويمارسونه على جسمك، إنهم يستخدمون السياط، وخراطيم المياه والعِصِي والقُضبان الكهربائيَّة والأحذية. طوال دورة التعذيب، كنتَ تجد نفسك على الجدار معانياً من آلام التعذيب والإرهاق. ويرافق هذا العمل وابلٌ من الكلمات المختارة بعناية لتعكس لك بوضوح الفجوة العرقيَّة في السُّودان والمواقف العنصريَّة تجاهنا، نحن الذين تمَّ تصنيفنا بأنهم "غير العرب".

كان من المستغرب أن يستخدم الذين يُعذبون مصطلح "الأفريقي" بغير تقيُّد. فأثناء التعذيب، يحسون بشعور واضح من الفرح، ويُقالُ لك: "يا عَبِدْ"، "يا زنجي"، "يا ابن العاهرة"، وهناك العديد من التعبيرات الجنسيَّة التي لن أنطقها أمامك. التعبيرات المهينة الأخرى كانت تعطينا فكرة عن عقليَّة النُخبة الحاكمة تجاه مجموعات عرقيَّة معيَّنة. كانوا يقولون: «إنت غسَّال عربات، منظف المراحيض، بائع التُرمُس».. كانوا يسألون على إيقاع الضرب: «أنتم تريدون أن تحكموا السُّودان؟!».. كل هذا التعذيب وفَّر لنا مادة غنيَّة للتأمُّل حينما يكون لدينا متسع من الوقت بعد جلسات التعذيب.

ما كان لافتاً، هو أن تعذيبهم لم يكُن مصحوباً بمحاولة جمع المعلومات. ولم يقترن بأي سؤالٍ لك يتطلب جواباً منك، لذلك ترك السؤال لوقت لاحق.. رجال التعذيب في بعض الأحيان لا يظهرون كما كان التوقع لأيام، ولهذا نفتقدهم ونتمنى أن لو يأتوا ويضربوننا ليخدشوا ظهورنا التي جعلها التعذيب جافة، والقشور تُمسِكُ بقُمصاتنا. أنت تريدهم إذن أن يخدشوا ظهرك لأنك لا تستطيع أن تكون مقيَّد اليدين طوال فترة إقامتك في سجن "أبوغريب" دون أن تحك ظهرك. ذلك هو السبب الذي يجعل وصولهم نعمة حين "يكرشون" ظهرك بالسياط.

بعد عدة أسابيع من التعذيب، بدأ ضباط الأمن الاستجواب الذي تخللته أيضاً جلساتُ التعذيب التي تستغرق عدة أيام أيضاً. واخيراً، تمَّ نقلنا إلى سجن "كوبر" في انتظار المحاكمة. ولا بُدَّ لي من الاعتراف بأن سجن "كوبر" كان مكاناً متحضراً مقارنة بسجن "أبوغريب".. ففي "أبوغريب" كنتَ تعتقد أن كُلَّ واحدٍ منا كان في حاجة إلى بعض الاهتمام النفسي.. في "كوبر"، كان المسئولون لطيفون، وحتى بينهم من هو متعاطف مع محنتنا.. وفي "كوبر" عرفت عائلاتنا لأوَّل مرَّة أننا على قيد الحياة. وسمحت إدارة السجن بتنظيم زيارات مقيَّدة من عائلاتنا، وبطبيعة الحال سُمِحَ لنا بالاتصال مع محامينا.

لقد حدث الكثير حين كُنا منغلقين في سجن "أبوغريب" المعزول تماماً عن العالم. وعرفنا أن سلطات الأمن نشرت خبراً أن مؤامرة تمَّت في غرب السُّودان ودارفور بصفة خاصة لتغيير السُّلطة. هذه الخبر أدَّى إلى اعتقالاتٍ مسعورة على أسُسٍ عرقيَّة. فقد ألقي القبض على أربعة آلاف شخصاً، معظمهم من دارفور، وبعضهم أمضى ثلاث سنوات في الاعتقال دون أن يوجه احد إليهم السؤال حتى. كما أن فرقاً أمنيَّة ذهبت تجوب في الشوارع المزدحمة لتلقي القبض على كل شابٍ يحمل ملامح دارفوريَّة أو يتحدَّث بلهجاتٍ مرتبطة بغرب السُّودان.

وأمام هذا العدد الكبير للمعتقلين لم يجد ضُبَّاط الأمن وسيلة إلاَّ تقييد المتهمين في أعمدة الإنارة في انتظار النقل إلى مراكز الاحتجاز الخاصة بهم. وقد استخدم جهاز الأمن سينما "كلوزيوم" للحفاظ على المعتقلين، كمحطة اعتقال مؤقتة.

بحلول الوقت الذي أعدَّت فيه الحكومة ملف المحاكمة، تضاءل عددنا إلى اثنين وسبعين شخصاً. كنا نعرف أننا ذاهبون إلى مواجهة "محكمة القرد"، التي يرأسها قاض سيئ السمعة، وكان ذلك بالضبط ما توقعناه. فنفس القاضي الذي حكم ما يُسمَّى بـ"قضية سرقة بنك السُّودان" الشهيرة في "نيالا". ولإعطاء المحكمة بعض مظاهر الاحترام القضائي، سُمح لنا بتعيين من يترافعون عنا من محامين. ولحُسن الحظ، فقد خلق البشير أعداءً له داخل أمَّته من كل الاتجاهات. لذلك لم يكُن هناك نقصٌ في المحامين الشُجعان ممن يرغبون في الدفاع عنا.

قال لنا المحامون الذين تقدَّموا للدفاع عنا إن هناك ثلاثة عشر تهمة تُواجهنا، سبعٌ منها تحقق حُكم الإعدام إذا ثبتت إدانتنا. وكانت المحاكمة مخزية، برغم أن محامينا وقفوا حازمين. لكنهم اضطروا للانسحاب، لأن القاضي على ما يبدو قرَّر أننا مُذنبون، ورفض السماح لأي شاهدٍ لنا بالظهور، وهو إجراءٌ يمثل خرقاً واضحاً للعدالة.

تجاهل القاضي وجود المحامين، واستمرَّ في محاكمته. ولما كنا نعرف النظام القضائي جيداً، رفعنا الأمر إلى المحكمة العُليا. غضب القاضي وفقد رباطة جأشه، ولكن لم يكن لديه خيار سوى انتظار قرار المحكمة العُليا، وعلاوة على ذلك، فإن استئنافنا جلب انتباه منظمات حقوق الإنسان وجلب كذلك ضغوطاً دوليَّة هائلة على الحكومة.

قضت المحكمة العُليا لصالحنا، وسُمح للمحامين وبعض الشهود ليكونوا جزءً من إجراءات المحاكمة، وفي ختام الجلسة أعلن القاضي إدانة ثمانية وعشرين من جملة المتهمين البالغة

اثنين وسبعين، وكنتُ واحداً منهم. وحصلتُ على خمس سنوات سجناً، وحُكم على آخرين بين ست إلى عشر سنوات.

قضيتُ خمس سنوات في السجن، وخرجتُ في يونيو ٢٠٠٨، أما الذين تراوحت مدة سجنهم ما بين العشر إلى الخمس عشرة سنة فما يزالوا في السجن. كانت القصة مثيرة حقاً ولكن من خلالها استعدنا حريَّتنا. رمينا ملابس السجن للمرَّة الأولى بعد خمس سنوات، ودخلنا الحياة المدنيَّة بملابسها اللطيفة. أخذ كل واحد منا حقيبة صغيرة من ممتلكاته الخاصة. وكان كُل فناء السجن ممتلئ بأقاربنا الذين احتفلوا بصخبٍ، مردِّدين شعاراتٍ سياسيَّة، وكانوا يُصفقون ويُغنون ويتصايحون. بعضٌ من الأهل يمكنهم رؤيتنا على طول المسافة من خلال بوابة السجن، وكنا نشعر بأنهم لا يستطيعون الانتظار لعناقنا والترحيب بنا في عالم تركناه وراءنا لسنوات. قليل منهم كان يحس بخيبة الأمل بأنهم لا يجدون المجال للفرح بأقاربهم الذين لم يطلق سراحهم بعد.

كان إحساسي بالإفراج غريباً، فقد وقف أمامي مسئول السحن لأوقع على ورقة الإفراج، ولم أفهم الأمر لثوان. فكل ما أذكر أنني قد أنهيتُ عقوبة السجن وأصبحتُ طليقاً. بالطبع أعلن المسئول أنني أكملتُ مدَّة السجن وتحرَّرت.

غمغم الضابط ببعض الكلمات، ثم دعاني بتهذيب أن أكون حذراً لرعاية نفسي. وقعتُ على الورقة وذهبتُ إلى التقاط حقيبتي لأذهب حراً. حسناً، لم أكُن أعرف ولكن كان شخص آخر أسرع مني في الوصول إلى الحقيبة. على ما يبدو، أنه فرد أمن، وكان يقف ورائي وعلى الفور أمسك حقيبتي ودفعني بعيداً.. إلى أين؟!

ذهب بي إلى قسم الأمن على حافة السجن، ثم مرَّة أخرى إلى سجن "أبوغريب". وبهذه الطريقة، قضيتُ ثلاثة أشهر، محبوساً في زنزانة انفراديَّة، لا ضوء للشمس ولا

نوافذ.. باب غرفة الاحتجاز لا يُفتح إلا عندما يدفعون الطعام من خلاله. وبعد ثلاثة أشهر أخرى في سجن "أبوغريب" أطلق سراحي، ولم أصدِّق ذلك. ربَّما لأنهم احتاجوا إلى غرفتي لواحدٍ آخر مشتبه فيه.

قرَّرتُ أن أترك الخرطوم وأذهب مباشرة للانضمام إلى الأسرة التي ما تزال آنذاك في نيالا.. عائلتي في نيالا وتواجهتُ باستمرار وجود الأمن المُراقب حول جميع أنحاء المنزل. إصرار عناصر الأمن جعل حتى أولادي يعرفون صوت درَّاجاتهم الناريَّة وسيَّاراتهم. ابني الشاب كان يحذرني كلما رآهم، ويقول لي: هذا هو صوت درَّاجة ناريَّة، أو سيارة الأمن وما إلى ذلك.

في ذلك الوقت، كنتُ على علاقة وديَّة مع ضابط أمن في المدينة. كان لدينا بعض الصلات العائليَّة وكنتُ أثق فيه. لكنني كنتُ اعرف أيضاً انه كان يقوم بعمله. في يوم ما، جاءني وقال لي انه كان مسئولاً عن مراقبتي، وأشار إلى ثلاث نقاط مراقبة لمتابعة ما يجري حول المنزل. واعترف لي أنهم فشلوا في العثور على أي شيء ضدي، لكنهم كانوا يرصدون كل من زار منزلي على مدى الأسابيع السابقة، بشكلٍ كنتُ أعرف "أحمد"، وهو اسم رجل الأمن، وكنت واثقاً من صدقه. فهو مثل كثير من الناس في المدينة، كان لا يُؤيِّد الحكومة ولكن كان ببساطة يسعى إلى كسب رزقه. تدخَّل رجال الأمن في حياتي تحوَّل من سيئ إلى أسوأ، ولهذا لم يكُن هناك سوى مواجهة كل المخاطر.

لما شغلت بالإزعاج المستمر لجهاز الأمن، بدأت أفكِّر بجديَّة في وضعي، ومستقبل عائلتي وواقع البلد بأسره. ولكن أكثر شيء فكَّرتُ فيه هو أنني صرتُ أشدَّ غضباً. الذُلُّ الذي واجهته ظلَّ ذكرى لي، ودارت في خلدي ملابسات فقد والدنا، وتشابُك القضيَّة التي أودت بحياته مع قضيَّتي.. مات والدي

لخلق حياة أفضل لأولاده، ولا يمكنني رؤية أطفالي وهُم منزعجون من قبل وجود رجال الأمن حول منزلنا. وأمعنتُ التفكير في أمر طفل يتعرَّض لكوابيس ينتجها وكلاء الأمن، ذلك الطفل الذي لديه القدرة على التمييز بين أصوات سياراتهم من بين عشراتٍ أخرى تجوب الشوارع. كابوس الألغام أصبح يواجهني تدريجياً أيضاً، وغالباً عندما كنتُ وحدي في المنزل أتساءل عن أسباب تجعلني أبقى هادئا أكثر من ذلك الوقت، وكيف يمكن لي احتمال الإذلال؟! كان أفراد الأمن الذين يحرسون بيتي أذكياء وملتزمين بالتأكيد بأداء دور وظائفهم.

ما لا يعرفه هؤلاء هو أنني لم أكن غبياً، بل كنتُ بارعاً في السعي لأن أكون على قدم المُساواة معهم. ولكن برغم مراقبتهم عن كثب لبيتي، كنتُ أخفي اثنين من المطلوبين من "حركة العدل والمساواة" داخل المنزل. وبمزيدٍ من الازدراء لهُم، استطعنا أن نتوارى عن أنظارهم ونهرب من المدينة. وقبل أن يستيقظوا، كنا بالفعل داخل قاعدة "حركة العدل والمساواة" على الحدود التشاديَّة، والتي تقع على بعد ٥٠٠ ميل من كل مراكز المراقبة التي ضُربَت حول أرجاء بيتي.

هناك، وفي غضون ثلاثة إلى أربعة أشهر، خُضتُ نحو عشر معارك مع "حركة العدل والمساواة"، وغني عن القول إننا حققنا نصراً في كل هذه المعارك.. وفي يناير ٢٠٠٩، سجَّلنا الانتصار الشهير في "مهاجريَّة" وأخرجنا القوَّات الحكوميَّة وحلفائها من قوَّات "مناوي" من المنطقة. وعندما دخلنا المدينة، أتى إلينا جميع السُكَّان واحتفلوا بنا بغوغائيَّة، مُرحِّبين ومُهللين. توافد الرجال والنساء لتغذية قوَّاتنا ورؤية السيَّارات التي كنا قد استولينا عليها من العدو. إدارتنا لبلدة "مهاجريَّة" وجدت إشادة من قوَّات "يوناميد".

في الميدان، كانت مهمتي تتعلق بتنسيق النشاطات السياسيَّة والعسكريَّة لـ"حركة العدل والمساواة". فقد عقدنا جلسة

علنيَّة في بلدة "مهاجريَّة" مع مواطنيها، الذين كانوا واعين بشأن "حركة العدل والمساواة" وما تهدف إليه. وقد طرحوا لنا مشاكلهم، وكانت مفاجأة لنا أن نجدهم مستمعين جيِّدين لما نقول. وأذكُرُ أنه حدث بعض تخوُّف عندما تحدَّث أحد السُكَّان المحليين منتقداً الحركات. وكان من الواضح أنه من مُؤيِّدي الحكومة، ولذلك اعتقد مُؤيِّدونا أننا سوف نعاقبه بسبب انتقاده لنا. وحينها أدركنا أن انطباعهم هذا ناتجٌ من تعامُل قاسٍ لـ"حركة تحرير السودان"، جناح ميناوي، مع المواطنين الذين يتجرَّأ بعضُهُم على التحدُّث ضدَّهُم. ولكن حال "حركة العدل والمساواة" في الاجتماع لم يكُن كذلك. وقد جلب لنا ردُّنا الهادئ على ذلك المواطن إعجاب الجمهور.

لم تكن لـ"مهاجريَّة" مشكلة هائلة في ذلك الوقت. فالحكومة كانت قد قوَّضت أي أسُسٍ لإدارة المدينة، وركَّزت على مسائل الحرب ذات الصلة بالمدينة. وفي جلسة علنيَّة مع المواطنين، ساعدناهم على انتخاب الهيكل الإداري لإدارة المدينة. وحدث نوعٌ من الحماس، وخلال دقائق بعد الاجتماع انتخبوا لجاناً لخدمات المياه، والتعليم، وجمع القمامة، والسوق، وهكذا دواليك. ولأن المدينة كانت مختلطة عرقياً، نصحناهُم بانتخاب لجنة للمصالحة التي يمكن أن تتدخَّل في وقتٍ مُبكِّر بما فيه الكفاية للسيطرة على الصراعات العرقيَّة. لقد كان الناس سعداء بأن يكون دورنا استشارياً فقط، وتركناهم ينتخبون الموظفين لإدارة شئونهم.

لقد خلق سكان "مهاجريَّة"، في الواقع، حكومة مصغرة تفرض الضرائب، وتكبح جماح الظالمين، وتحدَّث بعض الخدمات. أما أفراد الـ"يوناميد" فقد كانوا يقيمون في ضواحي المدينة عندما وصلنا. واندهشنا عندما أدركنا أنهم لم يغامروا في دخول البلدة خوفاً من تعرُّضهم للهجوم من قبل السُكَّان المحليين. أخذناهم معنا إلى المدينة وكانوا سعداء لزيارة مركز "مهاجريَّة" للمرَّة الأولى. ولقد أعطيناهم المثال في كيفيَّة

التعامُل مع السُكَّان المحليين. ورأوا جديَّة ممارستنا في وقتٍ كان أداؤهم سيئاً ولم يستطيعوا كسب الشعب، الذي جاءوا لحمايته. عموماً، بنينا عملنا في "مهاجرية" على الثقة في شعبنا.

وبعد فترة، تعرَّضتُ لوعكة طارئة، فذهبتُ إلى تشاد. تزامن وصولي إلى انجامينا مع بعض التطوُّرات في مجال الشأن السياسي لـ"حركة العدل والمساواة". هناك التقينا سكوت غرايشن، المبعوث الخاص للولايات المتحدة، والذي أقنع رئيس "حركة العدل والمساواة" على المُضِي قُدُماً في عمليَّة السلام في الدوحة.

قرَّر الرئيس أن يغادر إلى الدوحة، وكان قد طلب مني مرافقته. ومع ذلك، لم أكن أشاركه الثقة في مفاوضات الدوحة وتراجعتُ بعيداً قبل دقائق من مغادرة الطائرة. أبوبكر حامد أيضاً لم يكن يرغب بعد الاستشفاء أن أذهب إلى الميدان، لأنه يعتقد أنني بحاجة إلى البقاء واسترداد كامل الصحَّة. ولضمان أن أبقى وراءه لاستكمال علاجي، تسلل إلى الميدان دون أن يصطحبني. ولكن في غضون أيام قليلة، تلاقيتُ معه في الميدان، وواصلتُ عملي في جنوب دارفور لمدَّة عام أو نحو ذلك، حتى تيسَّر لي الانضمام إلى فريق "حركة العدل والمساواة" في الدوحة.

القائد عبدالعزيز عُشَر

يجب أن أنبِّه القارئ إلى أنَّ هذا الفصل قد أُعِدَّ تحت ظروف صعبة. فقد حاورتُ القائد "عُشَر" بالتليفون، بينما كان هو مقيمٌ في سجن "كوبر" في انتظار حُكم الإعدام.

"عُشَر" اعتُقِلَ عقب عمليَّة "الذراع الطويلة" التي اقتحمت بها حركة العدل والمساواة العاصمة. والواقع أن حواري مع "عُشَر" بالتليفون كان قصيراً ومُتقطعاً ولم يكن بذات الطريقة التي اتبعتها في الحوارات التي أجريتها في هذا الكتاب مع عددٍ من قادة الحركة. الأكثر من ذلك، أنني لم أتمكَّن من مراجعة هذا الحوار. ربَّما يتفاجأ القرَّاء كيف أنني أجريتُ هذا الحوار المبرَّر. فـ"عُشَر" الآن في صف الانتظار لتطبيق حُكم الإعدام. ومتحفظٌ عليه بواسطة حراسة مشدَّدة. وهذا القدر جعل الحوار معه أشبه بالمُستحيل، ومُخاطرة في ذات الوقت. فضلاً عن ذلك، أنَّ قمعيَّة نظام العقوبات السُّوداني، معزَّزة بوضعيَّة "عُشَر" كعدوٍ كبير للدولة، ربَّما سبَّبت شكوكاً كثيرة حول وثوقيَّة الحوار نفسه.

حقاً ليس هناك ما يخفى عن تعامُل السُّودان السيئ مع حالة مواطنيه الإنسانيَّة، ناهيك عن المحكومين بالإعدام. على كل حال، هناك شيء خاطئ في "نظام العقوبات السوداني" هذا، وهذا مصطلحٌ استخدمه ليشمل أيضاً السُجناء في مراكز اعتقالات جهاز الأمن الوطني. وبينما يمارس الأمن الوطني دوره خارج القانون، فالسجن في السُّودان ما يزال يحافظ على

تقاليد راسخة لحقوق السُجناء. والدليل على هذا، أن القائد "عُشَر" بقي قادراً على إكمال رسالة الدكتوراه بينما هُو في السجن. والسجن أمرٌ مُضنٍ في كثير من البلدان الأفريقيَّة والعربيَّة مثلما تعملون. فـ"عُشَر" مثله مثل سجناء آخرين، سُمِح له بزيارات من الأسرة والأصدقاء عبر قوانين السجن المُقيِّدة. وبينما نحن نعترف بهذا الجانب في معظم السجون السودانيَّة، يجب ألا نتجاهل ما يُسمِّيه الدكتور خليل إبراهيم "الطبيعة الثيوقراطيَّة للنظام السياسي"، إذ إن واقع سجونه مرتبط بالهُموم الأمنيَّة للنظام.

في الوقت الذي اكتب هذا الفصل، فإن موقع الحركة لا يزال يحث المجتمع الدولي للضغط من أجل حماية القائد "ألماظ دينق" الذي يتعرَّض لمعاملة سيئة في سجن "كوبر". وهنا نقرأ ما جاء في الموقع: **«..إن ألماظ متحفظٌ عليه ويرسف في حمولة جنازير أكثر من ثلاثة كيلوجرام ومُنع أهله من زيارته لأكثر من شهرين. إنه محرومٌ أيضاً مِن تلقي الدواء ويواجه إساءات مستمرَّة بواسطة رجال الأمن».**

"عُشَر" الآن قُدِّم للمحاكمة، وقد تجاهل النظام حقيقة أنه سجين حرب وفقاً لاتفاقيَّات عالميَّة كثيرة وقعت عليها الحكومة وما تزال ملتزمة بها إلى الآن. الواقعة تعكس مدى مذلة نظام السجن الذي وصف مرَّة بواسطة "أمنستي انترناشونال" بأنه عادلٌ وليس قامعٌ للسجناء. فاستمراريَّة سجن "عُشَر" يُجسِّد فشل الحكومة في الوفاء بتعهُّداتها التي وقعت عليها نتيجة لسُمعتها السيئة في هذا المجال. ولعلَّ هذه السُمعة عوَّقت تنفيذ اتفاقيَّات مراقبة دولياً بين الخرطوم ودولة جنوب السُّودان الآن. وقضيَّة "عُشَر" تندرج تحت هذه السُمعة السيئة التي دخلت فيها الخرطوم منذ أن تنازلت عن تعهُّداتها.

بناء على الاتفاقيات الدوليَّة، كان يجب ألا يكون القائد "عُشَر" في سجن "كوبر" من أساسه. ففي فبراير ٢٠١٠، وقعت

الخرطوم اتفاقيَّة حُسن النوايا مع الحركة. ونصَّت الاتفاقيَّة على إطلاق سراح سُجناء الحرب لدى الجانبين. "الحركة" مباشرة أطلقت سراح السُجناء. الخرطوم من جانبها أطلقت سراح قلة، بمن فيهم زملاء "عُشَر" المشاركين في عمليَّة "الذراع الطويلة". لكن حتى اليوم، فإنهم أبقوا على "عُشَر" وآخرين في السجن. فالمعاهدات الدولية الموقعة بواسطة الخرطوم تعني أن حكومة الخرطوم يجب أن تعامِل "عُشَر" كسجين حرب، وليس مجرماً. إن حجزه في السجن يمثل انتهاكاً صارخاً للقانون الدولي.

لكُلِّ ذلك، فإن القارئ قد يقول إن القائد "عُشَر" محظوظ لبقائه على قيد الحياة في البلاد التي تشتهر بتصفية أسرى الحرب. فعندما وقَّعت "الحركة الشعبيَّة" اتفاق نيفاشا مع نظام الخرطوم في العام ٢٠٠٥، قامت الحركة بالإفراج فوراً عن جميع سُجناء الحرب تمشياً مع المتطلبات الدوليَّة. وكانت الخرطوم ملزمة للردِّ بالمثل، لكن ذلك لم يكُن ليحدُث. فعلي عثمان طه الذي فاوض على الاتفاقيَّة نيابة عن حكومة السُّودان أعلن بقوله: **«كنا سنُفرج عن جميع السجناء الحرب الحركة الشعبيَّة إذا كان لدينا أي واحد منهم»**. ولكن مِن ما يبدو أن القوَّات المسلحة السودانيَّة لا تبقي أسرى الحرب على الإطلاق. إنها بعد القبض عليهم خارج معسكرات الجيش تطلب منهم أن يحفروا قبورهم قبل إعدامهم.

القائد "عُشَر" تاريخه غني في "حركة العدل والمساواة". إذ كان قائداً لقوَّاتها في شرق السُّودان، ورئيساً لوحدة الأمن، وهو عضوٌ في المجلس التنفيذي لـ"حركة العدل والمساواة" ومفاوض في محادثات السلام. وكمقاتلٍ شارك "عُشَر" في ما لا يقل عن ثلاثين معركة. ودعونا الآن نترُك للرجُل الفرصة ليروي قصَّته من خلال كلماته..

أنا "عبدالعزيز عُشَر نور". افترض أنك تريد مني أن أقول إنني أخ الدكتور خليل.. نعم، هو أخي، ولكن لي هُويَّتي.

ومع بعض التواضُع، استطيع إن أقول لكم إن لديَّ إنجازاتي الخاصة جداً. وُلدتُ في "الطينة" عام ١٩٦٧ في شمال دارفور، وهي على الحدود السودانية التشاديَّة. كانت مرحلة الطفولة المبكِّرة عاديَّة جداً، وكنت محظوظاً، إذ كان يحيط بي العديد من الإخوة والأخوات. ومع ذلك، وجدتُ أن بعض السنوات العجاف ضربت طفولتنا عندما بدأنا التعلم في مدرسة "باسو" الابتدائيَّة، بالقرب من "الطينة".

ذلك الجفاف أضرَّ بأراضي الزغاوة في عام ١٩٧٢. وكان من الصدمة أن ترى هذا العدد الكبير من أقاربنا يغرقون تدريجياً في الفقر وفُقدان ثرواتهم الحيوانيَّة بأكملها في زمن الجفاف. في حين أنه كان محزناً رؤية الحيوانات وهي تموت في كل مكان. ذلك الواقع لعب دوراً أكثر تدميراً بالنسبة لنا، وإلى جانب شراكة الطفولة اضطرَّ عددٌ من الأصدقاء إلى الهجرة إلى الأماكن التي لم نكُن قد سمعنا بها من قبل. ومع ذلك انتهى الجفاف سريعاً واستعادت أرض الزغاوة بعضاً من مجدها السابق.

بعد الانتهاء من دراستي قبل الجامعيَّة في دارفور، انتقلتُ إلى الخرطوم لمواصلة دراستي. درستُ القانون في جامعة النيلين خلال الأعوام ١٩٨٩- ١٩٩٣، وحصلتُ على دبلوم العلاقات الدوليَّة من جامعة الخرطوم عام ١٩٩٥، ثمَّ اجتزتُ امتحانات نقابة المحامين عام ١٩٩٦. وفي عام ١٩٩٥، نلتُ درجة الماجستير في القانون من جامعة النيلين. وفي عام ١٩٩٩، بدأتُ التحضير لدرجة الدكتوراه في القانون، لكني اضطررتُ للفرار من البلاد قبل الدفاع عن أطروحتي. وفي عام ٢٠١٠، مُنحتُ درجة الدكتوراه بعد إكمالها أثناء وجودي في السجن.

إذا جاز الحديث عن ارتباطي بالجبهة الإسلاميَّة، فقد تمَّ دون عناءٍ كثير في التفكير. فمثلما فعل أشقائي الأكبر سناً،

انضممتُ إلى التنظيم. وفي فترة وجيزة قبل ذلك، كانت تشغلني فكرة الانضمام للاتحاد الاشتراكي السُّوداني التابع لنظام نميري. لكني اضطررتُ إلى التخلي عن هذه الفكرة، خاصة بعد أن فقدت الحكومة التأييد وسط المُواطنين.

بحلول الوقت الذي أدركنا فيه شئون السياسة كانت تنظيم الجبهة الإسلاميَّة قد حازت على قلوب الشباب. وكان لديها متحدِّثون مثيرون للإعجاب، وعرف التنظيم كيف يقيم الحملات لكسب قلوب وعقول الطلاب، وهكذا سرنا معهم في شبابنا الذي تميَّز بالمثاليَّة والتفاؤل والحماس. ولعلَّ الإسلاميين قد وظفوا هذه الخصائص جيداً.

حينما دخلتُ الجامعة، صرتُ كادراً متمرِّساً من شباب الجبهة الإسلاميَّة. والدليل على ذلك، أنني كنتُ أشغل منصب رئيس اتحاد الطلاب في جامعة النيلين لمدة ثلاث سنوات. في تلك السنوات، وضعني منصب رئيس اتحاد الطلاب بالجامعة تحت إشراف ورعاية مباشرة من القيادات العُليا في الجبهة الإسلاميَّة.

كانت سنوات عملي في وقتٍ مبكِّر بالجامعة (١٩٨٩-١٩٩٣) بكُلِّ الحسابات مضطربة، وقد تزامنت مع سيطرة الرئيس البشير على السُّلطة. وفي تلك السنوات، تمَّت عسكرة طلاب الجامعات، وأصبح التدريب العسكري إلزامياً، وكانوا كثيراً ما يُرسلون الطلاب إلى ميدان المعركة في الجنوب. وكان لي نصيبٌ من كل ذلك وتعلمتُ الكثير. بنهاية فترة الجامعة، كنتُ قد تدرَّبت على كل الأسلحة التي يمكنك تصوُّرها، بما في ذلك الدبَّابات.

بعد تخرُّجي عملتُ في "مركز الدراسات الإستراتيجيَّة". كان المركز أكثر من مجال للدراسة والتدريب. كان خزان التفكير في النظام، ولذلك جذب قيادات كبيرة من النظام. على الرغم من أنني لم أكُن سوى باحثٌ مبتدئ في المركز، فقد قدَّم

لنا المركز فرصة جعلتنا نقف كتفاً بكتف مع بعض من أركان الجبهة الإسلاميَّة، بما فيهم التُرابي، وعلي عثمان محمَّد طه، ومجذوب الخليفة. وهؤلاء كانوا يتردَّدون على المركز لعقد الاجتماعات، والحصول على المعلومات، وإلقاء المحاضرات.

كما أن الانتماء للمركز كان يوفر لنا حماية ضد المراقبة الأمنيَّة، إذ إنه ربَّما كان واحداً من أماكن قليلة يمكنك أن تناقش فيها الأمور دون خوف. وبسبب خلفيَّتي الإقليميَّة، كنتُ على بيِّنة من مشاكل دارفور، ولكن كانت معرفتي قليلة بأجزاء القطر الأخرى. وقد ضمَّ المركز شخصيَّات من كُلِّ رُكنٍ من أركان البلاد، وبالتالي تمكَّن لي اكتشاف أن دارفور لم تكُن الجزء المُهمَّش الوحيد في السَّودان.

عملنا لتحقيق أهدافنا في المركز، وتدريجياً استطعنا بناء تحالف واسع النطاق، متقين بحدَّة للمظالم المرئيَّة في جميع المناطق المحرومة في البلاد. لم نكُن بحاجة إلى الذهاب أبعد من المركز للتعرُّف على علل النظام، وخاصة وجود الفجوة هائلة بين الخطاب والممارسة.

في ذلك الوقت، أصبح اللواء عبدالرحيم محمَّد حسين، وزير الدفاع الحالي مديراً للمركز. وكان اللواء حسين غير كُفء، وكلَّ ما أتى به إلى هناك أصله الإثني. لذلك توقفت فاعليَّة المركز تقريباً بعد أن أهدرت ميزانيَّته الأسطوريَّة في معدَّات باهظة الثمن والتي لم نرها، ولقد احتججنا ضد قيادته ووصلت شكاوانا إلى البشير بأن عبدالرحيم محمَّد حسين لديه قُدرات محدودة ويجب استبداله. نجح احتجاجنا، وتمَّ استبدال عبدالرحيم محمد حسين، ولكن على يد من؟!

لقد وَصَلَنَا شخصٌ آخر، كان تقريباً من نفس المجموعة العرقيَّة، وكان غير كُفءٍ وسيِّئاً كما سلفه. بالإضافة إلى ذلك، حقا أردنا لذلك المركز أن يؤدِّي دوراً في التغلب على التهميش، وهو ما يُنظرُ إليه على أنه من صميم مشاكل السُّودان.

هذه المسألة أثرناها لدى العديد من الشخصيات المؤثرة في النظام، بمن فيهم التُرابي والبشير، لكن دون جدوى. ولذلك أصبنا بالإحباط وقدَّمنا استقالاتٍ جماعيَّة، ولكن لم يكُن هناك أحد أخذ إشعاراً برحيلنا. وفي الوقت الذي غادرنا فيه المركز، كنا مسلحين بكمية هائلة من البيانات التي كنا قد جمعناها بغرض كسب خُصومنا.

المعلومات التي كانت لدينا، وبعضها ظهر لاحقاً في "الكتاب الأسود"، أثبتت بشكلٍ مقنع أنه تمَّت السيطرة على السودان تاريخياً بواسطة أقليَّةٍ صغيرة من المنطقة الشماليَّة. هذه الفئة كانت تسيطر على كل مستويات السُّلطة الاقتصاديَّة والسياسيَّة والثقافيَّة في البلاد.

في ذلك الوقت، كان لدينا فريقٌ يتألف ويتآلف. إنه يضم شخصيات من جميع أنحاء السُّودان وكان العامل المشترك الوحيد الذي يربط بيننا هو استياؤنا من التهميش. صحيح أن الإسلاميين سيطروا على المركز، ومع ذلك فازت أطروحتهم حول التهميش. وتمَّ القبول بها لدى مختلف ألوان الطيف، بما في ذلك العديد من الذين ينتمون إلى الأحزاب السياسيَّة الأخرى كذلك.

بعد الاستقالات التي تقدَّمنا بها، قرَّرنا متابعة قضيَّتنا من خلال قناة أخرى على أن نواصل نشاطنا داخل النظام. وكانت الخُطة ترمي للحصول على متعاطفين من المنتخبين في البرلمان عام ١٩٩٧.

باختصار، يمكن القول إننا كوَّنا كتلة قويَّة من النواب الملتزمين بإنهاء التهميش من داخل النظام. وقتها لم يكن لدينا جدولٌ لأعمالٍ أخرى، ولم نكن لنتصوَّر إسقاط الحكومة.

كما ذكرت من قبل، فمجموعتنا تمثل كل السُّودان ولكن سيطر غرب السُّودان عليها، وتحديداً دارفور وكُردُفان. وعند الحديث عن وحدة دارفور داخل المجموعة، نجد أن سليمان

صندل كان مسئولا عن دائرة "الفاشر"، والدكتور هارون عبدالحميد كان مسئولاً عن دائرة "طويلة"، وخالد بلال في "جبل مَرَّة"، وكنتُ أنا قد قرَّرتُ خوض الانتخابات في دار السلام، إذ هي منطقة سكنيَّة غرب أمدرمان، ويهيمن عليها قطاعٌ من أهل دارفور. ويجب عليَّ القول هنا إننا كنا أكثر ديناميكيَّة، ومُفعمين بالأمل، نعملُ بجدٍ ولكن بنفس القدر يحتوينا بعض السذاجة والفقر. ونحن ببساطة كُنا قد قللنا من دهاء خُصُومنا. لقد قاموا بتعبئة قويَّة ضدَّنا، وحرمونا من الحُصُول على النقد، كذلك حرمونا من استخدام وسائل الإعلام. وكأن ذلك لم يكُن كافياً، فقد زوَّروا انتخابات الحركة الإسلاميَّة.

على الرغم من هذا، كنا نركز حينها على بعض القيادات ونقوم ببعض المناورات الذكية داخل البرلمان. وجاءت ذروة تحرُّكاتنا عندما ساعدنا الشفيع محمد أحمد، حتى انتُخِبَ بالأغلبيَّة رئيساً للمؤتمر الوطني. واستطاع بسهولة الفوز بالمقعد. ولكن التُرابي، ومجذوب الخليفة وغيرهما استبدلوه بغازي صلاح الدين. وهكذا اكتمل تحالف الوسط والشمال ضدنا بشكلٍ مُذهِل.

لقد حدث التواطؤ نهاراً جهاراً لمنع أي شخص من دارفور من التنصيب في مثل هذا الموقع. وكانت الرسالة واضحة، فالمناصب العُليا تظل حكراً على نُخبة من الشمال، والأفراد الطموحين من مناطق أخرى يجب ألا يكلفوا أنفسهم عناء الطموح. لقد كانت تجربة مؤلمة بالنسبة لنا، ولكن كانت أيضاً نقطة تحوُّل في حملتنا وفي الطلاق البائن بيننا وبين الجبهة الإسلاميَّة.

تلك الهزيمة المريرة منحتنا قوَّة دفعٍ جديدة في الحملة لتحقيق أهدافنا، إذ سعينا إلى تطوير رؤيتنا وتكوين تنظيم عُرف لاحقاً باسم "حركة العدل والمساواة"، وكما هُو الحال في أي حركة سياسيَّة، لا بُدَّ أن يكون لديك نشطاء معتدلون ومتشدِّدون

على حدٍ سواء. الإحباط الذي رافقنا بعد تزوير إرادة الناخبين في التنظيم ساهم بشكلٍ واضح في تغيير ميزان القوى داخل حملتنا. لقد فاز الأعضاء المتشدِّدون في النقاش وأصبحوا أكثر صخباً في الحركة.

حتى ذلك الوقت، كان موضوع التهميش مستعراً في النقاش بيننا وقادة الجبهة الإسلاميَّة بغرض استمالة بعضهم إلى جانبنا. ولكن الأمور قد تغيَّرت وأصبح لا مفر من المواجهة. وفي عام ١٩٩٩، نصبنا للنظام كميناً تمثل في صدور "الكتاب الأسود"، وبعدها انفتح عليهم باب الجحيم.

عقب صدور "الكتاب الأسود" ازدادت رقابة سلطات الأمن علينا في كُلِّ مكان، واعتُقِلَ الكثيرون منا. لقد ركَّزوا على من هُم من دارفور، وغضُّوا الطرف عن المُؤلفين الذين هُم من مناطق كُردُفان وغيرها. احتُجِزتُ لمدة ثلاثة أشهر في سجن "كوبر" ثمَّ أطلق سراحي وذهبتُ للعمل في مكتب محاماة خاص. وبعد فترة وجيزة، وصل رئيس "حركة العدل والمساواة" من هولندا والتقيتُ به مع أحمد بخيت، وأبوبكر حامد، وعندئذٍ آلينا على أنفسنا الشروع في تأسيس "حركة العَدل والمُساواة" باعتبارها حركة مسلحة.

كان على الرئيس المغادرة هرباً من الاعتقال. وقرَّرنا إخفائه لفترةٍ من الوقت، ومن ثمَّ تهريبه إلى دارفور والسماح له للخروج من البلاد عن طريق تشاد. قبل رحيله من الخرطوم، طلب مني إجراء اتصالات مع بعض المتعاطفين من المنتمين إلى القبائل العربيَّة لاطلاعهم على التطوُّر الجديد الذي أدَّى إلى تأسيس "حركة العدل والمساواة".

فعلاً اتصلتُ بالعديد من القادة العرب من دارفور وكُردُفان واتفقنا للعمل سوياً. ومنهم آدم أبوبكر من قبيلة الرزيقات، وماجد سوار، وعُمَر سليمان وغيرهم، وكانوا

متحمِّسين للفكرة ولكنهم تخلوا عنها في وقتٍ لاحق وعادوا لمواصلة مشوارهم مع الحكومة.

بالإضافة إلى هذه الأسماء، اتصلنا بآخرين بغية الإعداد للصراع المسلح في وقتٍ واحد في دارفور، وكُردُفان وشرق السُّودان. لقد كان إطلاق سراحي من السجن قد وضعني في موقف مريح لتحدِّي رجال الأمن الذين واصلوا مضايقتي رغم أنهم لم يجدوا شيئاً في سجلي يرقى لإدانتي. الأهم من ذلك بكثير، كنتُ قادراً على إقناع السُّلطة الحكوميَّة ذات الصلة لتضُمَّني إلى لجنة رسميَّة ذاهبة إلى "الطينة" للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الأولى لوصول الرئيس إدريس ديبِّي إلى السُّلطة.

عليه، وظَّفتُ زيارتي لـ"الطينة" لمراجعة بعض الأمور مع الشخصيات الحيويَّة، مثل المرحوم آدم كورتي وتيمان ديرو وكان هذا الأخير تاجراً مشهوراً من البديات من "وادي هور"، وعُيِّن قيادياً في "حركة العدل والمساواة" في دارفور.

أثناء وجودنا في دارفور، أجرينا اتصالاً مثمراً مع "ميني أركو مينَّاوي"، الذي يشغل فرعه حالياً "حركة تحرير السودان". ولقد سنحت له الفرصة للتمرُّد عندما دخلت عشيرته من الزغاوة في نزاعٍ مع فرع من العرب يُسمَّى "أولاد زايد".

زَعَمَت عشيرة "مناوي" أن أولاد زايد قتلوا واحداً وسبعين من رجالهم في "أبو قمرة"، شمال دارفور، وكانوا يستعدون للثأر. لحُسن الحظ نجحنا في احتواء المشكلة وفعلاً أقنعنا الجانبين بأننا كنا نعمل من أجل شيء أكبر من أسباب الضيم العرقي. وبعد الوساطة الناجحة، اقترحنا على "ميناوي" وجماعته الانضمام إلى "حركة العدل والمساواة". وفي ذلك الوقت، لم تكن "حركة تحرير السودان" قد شُكِّلت بعد. "ميناوي" حينذاك كان آتياً من نيجيريا ومتحمِّساً للثورة.

"حركة العدل والمساواة" كان لديها بالفعل هياكلها في كُلِّ مكان في دارفور. كان هناك ديرو وكورتي اللذان تحمَّلا مسئوليات تنظيميَّة. وعلى الصعيد العسكري، كان هناك التيجاني سالم وعبدالله عبدالكريم عُشَر من القادة السياسيين.

كورتي ساعد في ترحيل جماعة ميناوي، بمن فيهم المرحوم عبدالله أبَّكر. وقد تحرَّكوا من وادي سيرا إلى جبل مرَّة. وعبر الهاتف، اتصل مناوي برئيس "حركة العدل والمساواة" وأعلن انضمامه وجماعته للحركة بعد أداء القسم. كما قدَّم لهُم كورتي "هاتف الثريا" لضرورات الاتصال. ولاحقاً ظهر عبدالواحد محمد نور، وكان يعمل في تجارة الأخشاب في زالنجي بغرب دارفور عندما اعتقلته قوَّات الأمن واثنين آخرين لفترة من الوقت.

عبدالواحد محمد نور غادر إلى الخرطوم بعد إطلاق سراحه، لكنه اضطرَّ إلى العودة إلى دارفور بعد بدء الصراع في منطقته بجبل مرَّة. آنذاك حدث نزاع بين بعض القبائل العربيَّة المجاورة والفور. وأصبح الوضع متوتراً للغاية، حتى إن بعض القادة الفور دعوا نور ليُسهم في نجدتهم. جمع الفور بعض المال وجاء عبدالواحد ومن ثمَّ سعى إلى جلب بعض مقاتلي الزغاوة لتدريب الفور لحماية أنفسهم ضد هجمات جيرانهم العرب.

عبدالواحد نور نجح في جلب ميناوي للمساعدة في تدريب كتيبة من المُقاتلين في جبل مرَّة. بعد ذلك اتصلت جماعة ميناوي بكورتي، وقالت له إن الدكتور جون قرنق قائد الحركة الشعبيَّة قد أرسل لهم بعض هواتف الثريَّا وكان على وشك نقلهم إلى مقرِّ الحركة الشعبيَّة لإجراء محادثات. ولكن كان لكورتي رأيٌ حول سفرهم، وكان يخاف ذوبانهم داخل الحركة الشعبيَّة. ومع ذلك أصرَّ أعضاء "حركة العدل والمساواة" من المجموعة الذهاب لأنهم كانوا يأملون في

الحصول على الأسلحة من الجنوب ولم يظهروا أي نيَّة لترك "حركة العدل والمساواة".

إجمالاً، غادر سبعة أشخاص للقاء الدكتور قرنق، وكان ضمنهم ميناوي، عبدالواحد نور وعبدالله أبَّكر. في ذلك الاجتماع، دعاهم قرنق إلى تشكيل فرع باسم "الحركة الشعبيَّة في دارفور". ولكن في الواقع كان لدينق ألور الذي كان حاضراً موقفاً مخالفاً، إذ اعترض على الفكرة بسبب أن مثل هذه الخطوة من شأنها أن تعقد تنفيذ بروتوكول مشاكوس المُوقع بين الحركة الشعبيَّة وحكومة السُّودان عام ٢٠٠٢. فالجانبان الموقعان التزما جانب إنهاء الصراع والتركيز على الاتفاقية التي أدَّت إلى تقرير مصير للجنوب، وعلى هذا النحو جادل دينق ألور أن أي قتال جديد تحت مظلة الحركة الشعبية سينسف البروتوكول. وللخروج من المأزق الذي تنبَّه إليه ألور، تمَّ إسقاط صفة "الشعبية" وأصبح الاسم: "حركة تحرير السودان".

على الرغم من أن الاجتماع لم ينتخب عبدالواحد محمَّد نور لرئاسة حركة تحرير السُّودان، فقد كان من المتوخى الاتفاق على بعض الخطوط العريضة. فكان المقرَّر هو أن تؤول رئاسة حركة تحرير السودان لمجموعة الفور، في حين ترك منصب نائب الرئيس لمجموعة المساليت. أمَّا بالنسبة للزغاوة، فقرَّروا أن تتولي منصبي القائد العام للجيش والأمين العام للحركة. وعلاوة على ذلك، قرَّر أن يكون عبدالعزيز الحلو وياسر عرمان بمثابة المشرفين على الاتصال بين الحركة الشعبيَّة وحركة تحرير السودان.

إن مسألة استقلال حركة تحرير السُّودان كان أمراً ضرورياً بالنسبة للكثيرين منا آنذاك. بالطبع كان من الجيِّد التنسيق والعمل مع الحركة الشعبيَّة، وكان ذلك المثل الأعلى من التعاون الذي كنا نحاول اعتماده بدرجاتٍ متفاوتة من النجاح.

بعد سنواتٍ ظلَّ عبدالواحد محمد نور ملتزماً بعضويَّة الحركة الشعبيَّة. ففي وقتٍ متأخر من عام ٢٠٠٥، أظهر نور ولاءه لقرنق في لقاء إريتريا بحُضُور وفدٍ من "حركة العدل والمساواة". فعندما جاء عبدالواحد نور، قدَّم أولاً التحيَّة العسكريَّة للدكتور جون قرنق، وواصل طوال الاجتماع مناداته بـ"الرئيس". شعرنا جميعاً بأن سلوكه يشير إلى عضويَّته في الحركة الشعبيَّة أكثر بكثير من مجرَّد عشقٍ لقُدرات عملاقٍ سياسي مثل قرنق، وكلنا كنا نوليه احتراماً كبيراً.

إضافة إلى هذا الارتباك الذي انتابنا، وجدنا أن أفراداً كباراً من حركة تحرير السُّودان يحملون بطاقات سفر باسم الحركة الشعبيَّة. البراغماتيَّة قد تكون أيضاً عاملاً هنا. فعلى مرِّ السنين، أصبحت جوازات الحركة الشعبيَّة حسنة السُمعة في حين أن جوازات السفر الصادرة من الخرطوم تمثل أزمة في العديد من المطارات. والعديد من ناشطي دارفور فقدوا جوازات السفر السودانيَّة لفترة طويلة وأصبحوا يعتمدون على بطاقات عضويَّة الحركة الشعبيَّة، على الأقل لأغراض السفر.

ما دام أن حمل بطاقة الحركة الشعبيَّة يفترض الولاء للمنظمة، ظلت حيازة قادة حركة تحرير السُّودان لها أمراً مُربكاً. وكان من المنطقي لقرنق أن يرغب في تعزيز الحركة الشعبيَّة من خلال توسيع نطاق عملها في دارفور. ولقد حاول بالفعل من قبل مع قوَّات بولاد التي سحقتها القوَّات المسلحة بلا رحمة في دارفور.

أيضاً أكد سعي قرنق إلى التوسُّع في دارفور لقاءً جمع بينه والدكتور خليل إبراهيم في هولندا، وكان رئيس "حركة العدل والمساواة" ينوي تلقي الدعم العسكري ونقل اعتقاده الراسخ بأن قرنق كان الزعيم الوحيد الذي يمكن أن يمنع تدهور السُّودان والمساعدة في دفع البلاد إلى الأمام. ولكن كان لقرنق

رؤية أخرى. إنه كان يريد انضمام د. خليل إلى الحركة الشعبيَّة، وأخيراً وصل الرجلان إلى طريقٍ مسدود.

أذكر أنني بعد انتهاء مهمتي في دارفور، عُدتُ إلى الخرطوم وواصلتُ عملي تحت الأرض. وبحلول عام ٢٠٠٣، أصبحت "حركة العدل والمساواة" معروفة وواجهها النظام بضغطٍ أمني هائل. وكنتُ أمارس الانتقال من بيتٍ إلى بيت، وارتدي الملابس المتهالكة لإخفاء هُويَّتي.

للأسف، تدهورت صحتي بسرعة وصِرتُ غير قادر على العمل. ثم قابلتُ عدداً من الأطباء دون جدوى. وبدا لي أن الأطباء السودانيين كانوا نخبويين جداً في تقديم طرُق العلاج. فكلما كنتُ ترتدي ملابس رثة وجدتَ القليل من الاهتمام، والعكس صحيح. ولأنني ظهرت في ملابس الفقراء لإخفاء هُويَّتي، أعطوني ذلك القليل من الاهتمام، على الرغم من الرسوم المتساوية التي يدفعها الفقراء والأغنياء.

في نهاية المطاف، قابلتُ طبيباً ممتازاً وكان عضواً في الحزب الشيوعي. ولاحقاً أصبحنا صديقين حميمين، وعرف قصَّتي. وكان قد منحني بعض الأدوية وأيضاً نصحني بضرورة تلقي العلاج في الخارج. ولكن الحصول على تأشيرة خروج يتطلب بعض الأعمال الخياليَّة من جهتي.

لاحقاً، ولحُسن الحظ، استطعتُ السفر رغم أنف المراقبة الأمنيَّة عبر مطار الخرطوم إلى دُبَي. وعلمتُ لاحقاً أن بعض أفراد الأمن شعروا بالمهانة الشديدة لعدم قُدرتهم على تتبُّعي في المطار مع أن المستندات كاذبة.

في دُبَي، سارت الأمور بشكل جيِّد وتعافيتُ تماماً بعد ستة أشهر من العلاج المُكثف. ومن هناك غادرت إلى إريتريا، والمثير للدهشة أنني فيها التحقتُ بـ"حركة العدل والمساواة" رسمياً. قبل ذلك، كنت فعلاً منتمياً للحركة، ولكن دون طقوس رسميَّة.

في ساحة المعركة

في عام ٢٠٠٣، انتهى بي الأمر إلى الوجود بشرق السُّودان، على مقرُبة من الحدود الإريتريَّة. إريتريا كانت متعاونة للغاية مع المعارضة، وكان هناك التجمُّع الوطني الديمقراطي الذي يضم جميع الأحزاب المعارضة، وفي أسمرا يوجد مكتب التجمُّع الرئيسي، وأيضاً قيادة جيشه. كان شرق السُّودان مناسباً لحرب العصابات ولذلك لم يأخذ منا وقتاً طويلاً لإقامة وجود عسكري بارز في المنطقة. كانت تضاريس تلال البحر الأحمر في صالحنا، وكذلك كان الناس. جيشنا من السُكَّان الأصليين على الرغم من أن العديد منهم كانوا من أصول دارفوريَّة.

مع مرور الأيام أثبتت قواتنا مراراً وتكراراً في المنطقة أنها قادرة على منع الخرطوم من المحافظة على أمن الطريق الذي يربطها ببورتسودان. فأقوى ضربة وجَّهناها للقوَّات المسلحة السودانيَّة كانت تدميرنا حامية ياي بالقرب من طوكر عام ٢٠٠٥. كانت أكبر حامية في شرق السُّودان. والغريب أنه بدعم من عشر دبَّابات، حاولت قوَّات التجمُّع الوطني الديمقراطي اختراق الحامية عدَّة مرَّات ولكن دون جدوى.. أما نحن، فقد خططنا للهجوم بشكلٍ جيِّد مع تجنب أي إصابات بين المدنيين. وكان معسكر القوَّات المسلحة السودانيَّة بالقُرب من طوكر وكان السبيل الوحيد لتجنب سقوط ضحايا من المدنيين في مدينة طوكر هو احتلال الحامية.. وقد استخدمت "حركة العدل والمساواة" خُطة مماثلة في بلدة "حمرة الشيخ" عام ٢٠٠٦، و"عديلة ٢٠٠٧، وكانت خُطة هجماتنا نجحت في تجنب تعريض السُكَّان المدنيين للخطر.

أذكر أنه كان هناك حادث طريف واجه جنودنا عندما هاجموا الحامية. فأفراد قوَّاتنا الذين استهدفوا الحامية بالقرب من طريق آت من مدينة طوكر يربطها مع الحامية وبعض من

جنود القوَّات المسلحة السودانية كانوا ينوون الوصول إلى الحامية، وسألوا جنودنا بأن يستقلوا مركباتهم لإيصالهم للحامية. آنذاك، كان في السودان تنوعٌ من مختلف القوميات في الجيش، وهؤلاء الجنود السُّودانيون لم يكونوا مُدركين أننا كنا في الواقع "متمرِّدين"، وكان من المفترض أن يدرءوا نار تمرُّدنا. إنني متأكد من أن صدمة واجهت أولئك الجنود عندما عرفوا أننا نحن الذين فتحنا النار على زملائهم الجنود. وهكذا استولينا على الحامية على حين غرَّة منهم.

أتذكر أيضاً أنه حين أحسَّ الجنود بوجودنا وتكثيفنا النار عليهم أصيبوا بالصدمة. وكثيرٌ منهم لم يكُن لديه الوقت للفرار إلى خنادقهم. آخرون تخلوا عن مواقعهم، وبدأوا رحلتهم في الاتجاه المعاكس. والهجوم بأكمله تمَّ خلال عشر دقائق ثمَّ استولينا على حامية المدينة على الرغم من أنه كان لا بُدَّ لنا من مطاردة عدد قليل من عربات العدو التي فرَّت لفترة من الوقت.

غنيٌ عن القول أن الانتصار الذي تحقق رفع معنوياتنا وقُمنا بأخذ كل ما بوسعنا واختفينا قبل وصول الدعم الجوي للقوَّات المسلحة.

في ميدان الحركة

شاركتُ أيضاً في العديد من المعارك في دارفور بعد عملي في شرق السُّودان. ربَّما كانت المعركة الأكثر تميُّزاً التي حاربت فيها كانت في "جلجيلا" والتي تبعد ٢٠ كيلومتراً من مدينة "الجنينة"، غرب دارفور. كانت المعركة مشهودة لأنها وقعت في الليل.

وعلاوة على ذلك، كان لا بُدَّ من الانتصار فيها لتفادي الكارثة. فالعدو قرَّر محو شريحة كبيرة من قيادات "حركة العدل والمُساواة". كانوا سبعة من القيادات من بينهم أبوبكر حامد وصندل وشيلوي وسلطان هاشم ودينق والقائد محمد عيد، وغيرهم كثير، كانوا في رحلة عمل. الأهم كذلك، أن رئيس

"حركة العدل والمساواة" أيضاً كان في المنطقة، ولكن لم يكُن في ساحة المعركة. فالحركة كانت في منتصف جولة عمل في المنطقة. في مناطق "صليعة" و"أبوسروج" التي تبعُد ٦٠ كيلومتراً من "الجنينة".. كنا هناك، ولم نكن نتوقَّع أي مواجهة عسكريَّة كبيرة مع قوَّات الحكومة.

الجولة كانت تسير على ما يرام بشكلٍ استثنائي وانغمست المنطقة كلها في الاحتفال بنا. وهناك تخلل وجودنا كرم كبير من المواطنين، الذين طبخوا لنا أشهى المأكولات. لكن جاءت الأخبار أن وحدة مشتركة من القوَّات المسلحة السودانيَّة ومقاتلي ميليشيا كانت تستهدفنا.

أصرَّ الرئيس على أننا بحاجة لمواصلة جولتنا مع ثلاث سيارات فقط، بما في ذلك واحدة تعلوها المدفعيَّة. وكانت تلك مخاطرة قاسية، ما كان ينبغي أن تحدُث، ولكن الأمور سارت على ما يُرام مع رئيس الحركة، ولم يواجه أي مشاكل. فقوَّاتنا اجتمعت وقرَّرت مواجهة العدو الغازي. كنا نعرف جغرافية المنطقة بشكلٍ جيِّد، وبالتأكيد أفضل بكثير من قادة الجيش الحكومي. استخباراتنا قامت بعمل ممتاز، وأعطتنا معلومات عن سياراتهم الثمانين وقادة قوَّاتهم كاملة مع أسمائهم: من أين أتوا، ومعرفتهم بدارفور.

الطريق الذي اتخذوه كان لا بُدَّ أن يمر بين جبلين. ذلك المرور كان ضيقاً بما جعلنا نختاره موقعاً للمعركة. فالجبال قدَّمت لنا غطاءً جيداً لقوَّاتنا بينما العدو أمامنا. وضعنا قوَّة منا أمامهم وأخرى احتياطيَّة. فالعدو لا بُدَّ أن يمر بطريقنا أولاً، ورأينا أن نسمح لهُم بالعبور ليتقدَّموا، ومن ثمَّ مهاجمتهم من الخلف. وأمامهم ستكون قوَّتنا الثانية جاهزة، ولم نترك لعدونا إلا مدخلاً واحداً للهروب تتخلله الرمال. ولن تستطيع عرباتهم أن تهرب معهم بالطبع. وتوقعناهم يمروا بنا عند الثانية ظهراً ولكن شيئاً ما عطَّل ظهورهم. فقد اكتشفوا قوَّة محليَّة للحركة أثناء

عبورهم وانزعجوا لذلك برغم أن تعليماتنا ذهبت لقوَّاتنا المحلية بألا تعترض طريقهم. ولهذا تأخَّر مجيئهم ورأوا ضرورة الاحتياط الدفاعي.

حين أرخى الليل سدوله، وصل العدو وراجعنا خُطتنا وقرَّرنا مواجهتهم في الظلام حيث لم يكن هناك قمر ليضيء. ولمَّا كان العدو متردداً بعض الشيء بدأ في إطلاق المدافع ليرى ردة الفعل، ولكننا لم نرد ولم نسمح لأحد أن يشعل سيجارة حتى.. وهكذا استمرَّ العدو في السير حتى بقي بين خطي قوَّاتنا الاثنين، وحينذاك كثفنا عليه إطلاق النار من الجانبين. ولكن الجبل خلفنا تلقى قصفهم بذخيرة مصمَّمة للإضاءة، والتي حوَّلت المكان مثل إستاد كُرة مضاء في ذلك الليل. ولاحقاً، حدَّثنا أحد الجنود أن هذا النوع من الذخيرة جلبها النظام لتُستخدم في حرق قرى السُكَّان الذين يرونهم كأعداء. ولقد أضاء الموقع كما أن القش اشتعل وسعى جنودنا لإطفاء النيران.. ورأينا أنه من المخاطرة مهاجمتهم ولكننا كنا مصمِّمين على سحقهم.

ظللنا هكذا حتى أرسلنا بعضاً لاختبار مدى قوَّتهم وتفكيرهم. وفي ذلك الليل حدث شي غريب، إذ انتهى الأمر بجندي منا إلى معسكر الأعداء بعد أن لم يتمكَّن من أخذ التعليمات جيداً. وكان ذلك الشخص كبيرٌ في السن، وانضمَّ للحركة بعد التقاعُد من القوَّات المسلحة. وعلمنا لاحقاً أن أحد المحققين من الضُبَّاط حقَّق معه بشكلٍ فظ، وعذبه، ثمَّ قطع أذنه. ولاحقاً قبضنا على ذلك الضابط، وكنا غاضبين لما فعل، وحاولنا قطع أذنه هو الآخر. ولكن عدلنا عن ذلك القرار.

بعد نهاية خيوط الفجر، انتقلنا للقضاء عليهم، وكانت مهمَّة سهلة تحققت في عشر دقائق. كانوا فقيرين في مواجهة النار من ثلاث اتجاهات. الجبل منعهم من التغطية وترك لهم طريقاً كئيبة من خلال وادي رملي اضطرَّهم أن يتركوا

عرباتهم الثمانين خلفهم، ونجت عربة واحدة فقط وتمَّ تدمير الكثير في هذه العملية.. حدث ذلك لأنهم حاولوا تقليد إستراتيجيَّتنا العسكريَّة. وهكذا انقلبت خطتهم إلى هزيمة ساحقة. وقد قُتل قائد قوَّة العدو وهو برتبة مقدَّم. وتمَّ القبض على نُوَّابه الاثنين، واستسلموا مع عشراتٍ من الضُبَّاط الآخرين. وخسر العدو أيضا نحو ٦٠ رجلاً، في حين أن أكثر من ٥٠ منهم أُخذوا أسرى. وتلقى نحو أحدى عشر جريحاً منهم العلاج من وحدتنا الطبيَّة، وقد أفرج عنهم في وقتٍ لاحق عن طريق الصليب الأحمر.

الحقيقة أن معركة "جلجيلا" منحت "حركة العدل والمساواة" دفعة تأييد هائلة في المنطقة. ولقد كانت محاصرتنا للعدو مُذهلة مع ذلك المخرج الذكي الذي تركناه حتى يستغله جنود العدو للهروب، ولكن بلا عرباتهم، وتلك الخطة البديعة أعتقد أنها يمكن أن تضاف لخُطط الاستراتيجيَّات الحربيَّة الناجحة. لقد تناثر جنود العدو في البريَّة ومنهم من وصل مدينة "الجنينة" بعد خمسة أيام، على الرغم من أن المدينة كانت على بُعد ٢٠ كيلومتراً فقط بعيداً عن ساحة المعركة.

لكن لم يهنأ الهاربون.. فقوَّة "حركة العدل والمساواة" التي كانت تتمركز محلياً أخَّرت هروب العدو في اليوم السابق وطاردتهم. وغنيٌ عن القول إننا استغرقنا بعض الوقت لانتشال المركبات التي تركوها في الرمال ثم هربوا. ولكن سلاح الجو السوداني ضايقنا في مهمَّة الانتشال، إلاَّ أننا ثابرنا.

مع كل هذا، فإن نصرنا في "جلجيلا" جاء بثمن غال. فقد فقدنا رجالاً شُجعاناً في المعركة، الأربعة الأكثر شهرة من بين الشهداء وكُنا فخورين بهم.. كان منهم ابن الدينكا الرفيق "أتاك دينق" وهو من قطاع جنوب، والقائد "إبراهيم عبدالله". ومن جرحانا قائد القوَّة أحمد عيد، وأحمد بخيت، وسُلطان هاشم وأبَّكر وإسماعيل بدر.

"حركة العَدْلِ والمُسَاوَاة" والتكتيكات الفخمة:

أعتقد أن معركة "جلجيلا" كانت الأولى التي قاتلنا فيها ليلاً وكسبناها بشكلٍ حاسم مع ذلك. القتال ليلاً ليس جيِّداً بالنسبة لنا. ويتطلب إطلاق النار العشوائي في اتجاه العدو وعلى هذا النحو، فإنه يخالف خُطتنا المعنيَّة بضرب الهدف "بالمليان" وذلك هو ما ندرِّب جنودنا عليه. فنحن نستخدم كلمتين لوصف الحرب لدينا: "البرشوت" و"الأبنص". هذه المصطلحات تعكس النمط الذي يجمع بين المفاجأة والسرعة وأقصى تكثيف لإطلاق النار، وهذا ما يميِّز قتالنا عن القوَّات المسلحة.

لقد ناقشتُ شخصياً مع العديد من قادة القوَّات المسلحة السودانيَّة الذين ألقينا القبض عليهم إستراتيجيتنا القتاليَّة التي نتبعها. وكانوا حائرين من انتصارنا المستمر ضدَّهم، على الرغم من أن القوَّات المسلحة لديها العدد الكبير من الجنود والكمية الوافرة من الأسلحة التي لا نملكها.

واحد من هؤلاء القادة الذين قبضنا عليهم ناقشته حول الهزيمة التي ألحقناها بهم في "حسكنيتة" عام ٢٠٠٧. كان ذلك القائد هو "كمال الدين"، وكان خبيراً في حرب العصابات، ودرس في الأكاديميَّة العسكريَّة الوطنيَّة أسلوب عملنا بشكلٍ جيِّد جداً، وأُرسِلَ إلى دارفور لإثبات معرفته الواسعة ولاغتيال رئيس "حركة العدل والمساواة". ومن المفارقة أن تلك المعركة استغرقت منا دقائق لهزيمة جيشه، والذي انتهى إلى حالة من الفوضى، وترك في وسط المربع خائفاً وحائراً. وحينما خرج من سيَّارته لإعطاء الأوامر لجنوده، كانت المعركة قد انتهت قبل وقتٍ طويل.. حتى قبل أن يتمكَّن من اتخاذ قراره. ولم يكُن هناك ولو جندي واحد في جميع الأنحاء ليتلقى منه الإرشاد.

في الفقرات التالية، دعونا ندرس كيف يمكن مقارنة جيش "حركة العدل والمساواة" بجيش القوَّات المسلحة السودانيَّة. فليس هناك شكٌ في أن جنود "حركة العدل

والمساواة" يأتون إلى المعركة بروح قتاليَّة متفوِّقة. فالحركة تضم مقاتلين متطوِّعين، مدفوعين بقناعة راسخة للانضمام إليها لتحقيق أهدافها. كثيرون منهم يرون أنهم متضرِّرون شخصياً من خلال الإذلال الذي تمارسه حكومة الخرطوم، ولهذا قرَّروا الانتقام، حتى ولو أدَّى ذلك إلى موتهم، ولكن بالتأكيد ليس هزيمتهم.

في تناقُضٍ حاد، فإن معظم جنود القوَّات المسلحة السودانيَّة يرون في الجيش الوسيلة الوحيدة لكسب العيش. وعلى هذا النحو، ليس لديهم أي سبب محدَّد يُقاتلون من أجله، ومعظمهم لديهم رغبة قليلة للدفاع عن الحكومة.

أكثر من ذلك، أنهم يفتقرون إلى أي مصلحة شخصيَّة في الحرب ويلقون اللوم لحظهم السيئ كونهم أمروا أن يتقدَّموا إلى ساحة المعركة. إنهم يفعلون كل شيء للهروب من الحرب والبقاء على قيد الحياة، ولا يحسون بالعار حين يفرون من ساحة المعركة. هذه الروح تتناقض بشكلٍ حاد مع مواقف جنود "حركة العدل والمساواة" في ساحة المعركة. ففي كُلِّ المعارك التي خُضتُها مع الحركة لم أشهد فيها هروب جندي واحد. فهو لا يترك أصدقاءه بينما القتال مستمر. هو ببساطة يفضِّل أن يموت بدلاً من تحمُّل خزي حالة الهروب البائسة.

جنود "حركة العدل والمساواة" أيضاً مدرَّبون بشكلٍ أفضل. وأنا على دراية بثقافات إقليمي دارفور وكُردُفان، حيث إن معظم جنودنا أتوا منهما. في حالة دارفور، كل الشباب البالغين لهم علاقة مألوفة مع البنادق، ويتطلب تدريبهم القليل جداً من الوقت عندما يظهرون للمرَّة الأولى في معسكر للتدريب. التدريب الذي تقدِّمه "حركة العدل والمساواة" مكثف بشكلٍ أكثر مِمَّا يتوفر للقوَّات المسلحة. وجنودها يُدمَجون في غضون فترة زمنيَّة قصيرة في الجيش. ولكن جندي "حركة

العدل والمساواة" يُدمَجُ بتدريبه المُكثف في الممارسة الحقيقيَّة في ساحة المعركة.

الحقيقة أن معظم جنود "حركة العدل والمساواة" خاض معارك أكثر من معظم كبار جنرالات الجيش. يمكنك أن تتخيَّل نتيجة الخيبة إذا كان هذا هو الحال مع كبار القادة العسكريين، وأن مستوى تدريب الجنود سيئ إلى حدٍ ما. فالعديد من هؤلاء الجنرالات هرعوا إلى الميدان فقط بأساسيَّاتٍ تمثلت فقط في التعامُل مع البندقيَّة. هناك نكتة متداولة في الجيش السُّوداني عن تدريب الجُندي، فهو يحصل على سبع رصاصات لكامل تدريبه: اثنان لرفع درجة حرارة فوهة البندقيَّة، وخمسة لتعلم كيفيَّة إصابة الهدف.

إن غريزة البقاء على قيد الحياة عزَّزت فشل جنود الحكومة. فهُم يولون مزيداً من التركيز المُفرط على الحماية، أكثر من فرض هجوم على العدو. قصصٌ كثيرة في تدريب القوَّات المسلحة السودانيَّة.. إن جنديا لا يحتاج إلى مجرفة أو كيس لعمل غطاء، أنه من خلال تراكُم كوم من الرمال في يديه العارية يختبئ وراء ذلك، ويقول آنئذٍ إنه محميٌ ضد رصاصات العدو. ولا عجب عندما يبدأون رحلة الهروب. في الواقع أن التدريب الغالب للقوَّات المسلحة ينتهي بالجندي إلى مقاتل ضعيف وببساطة لا يمكنه كسب الحرب.

في تدريباتها العسكريَّة، لا تهدر "حركة العدل والمساواة" الكثير من الطاقة للاهتمام بالتغطية أثناء الحرب حتى لا تفرِّط في الاعتماد على التكتيكات الدفاعيَّة، وهي السمة الغالبة للجيش الحكومي. وهناك قولٌ مأثور إن **"الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع"**. قد تكون حكمة قديمة، ولكن هذا هو بالضبط ما تفعله "حركة العدل والمساواة". فالحركة تفضِّل أن تكون في موقع الهجوم حين تقرِّر اختيار ساحة المعركة. وهذا هو عنصرٌ هام من تكتيكات الحركة.

بطبيعة الحال، فإن العدو يريد أيضاً أن يفعل الشيء نفسه، ومن ذلك القيام بهجوم مفاجئ على "حركة العدل والمساواة". هذا الهجوم سوف يضع "حركة العدل والمساواة" في موقف دفاعي، ولكن فقط لفترة من الوقت قبل أن يتم عكس هذا الوضع. فالحركة أصبحت بالفعل بارعة في خلق هجوم انطلاقاً من عمليَّة دفاعيَّة. والواقع أن جيش حكومة السُّودان يتخندق حين يهاجم. والحركة تفعل العكس تماماً. وبدلاً من البقاء في الوضع الدفاعي، فالحركة تفرض خُطة الهجوم وبالتالي تغير ديناميكيات العمليَّة.

معركة "جلجيلا" بيَّنت أن "حركة العدل والمساواة" متقدِّمة كثيراً في جوانب الحرب مثل الانتباه إلى تفاصيل التضاريس حيث هناك تأخذ المواجهة العسكريَّة مكانها. في تلك المعركة بدا الموقع الذي تمَّ اختياره من قبل قادة "حركة العدل والمساواة" وكأنه تمَّ تصميمه خصيصاً لذلك الغرض. أما بالنسبة للعدو، فأنهم ببساطة لم يفعلوا واجباتهم على قدر ما ينبغي. فما كان ينبغي مرورهم بذلك الممر الضيق إلا إذا كانوا متأكدة تماماً أنهم أبعد من الوقوع في الفخ.

فـ"حركة العدل والمساواة" تولي اهتماما حذراً لطبيعة أرض المعركة الطبوغرافيَّة. وفي معركة "كاري ياري" عام ٢٠٠٦ كاد الجيش السوداني أن يفنى جميعه. فـ"عبدالله باندا"، قائد "كاري ياري"، الذي قاد قوَّة الحركة درَّب قوَّاته في معركة وهميَّة في نفس الموقع من ساحة المعركة، وكان ذلك قبل جذب العدو إلى هناك ليتلقى هزيمة ساحقة.

إذا تحدَّثتَ مع أي قائد جيش حكومي سوف يقول لكم بكل فخر عمَّا قام به من محافظة على الصندوق الرُباعي في معركة واحدة أو أخرى. وباعتراف الجميع، فإن خُطة المُربَّع الدفاعيَّة لا تزال تحظى بشعبيَّة في الدراسات العسكريَّة، وهذا

ما يعرفه كل ضُبَّاط جيش حكومة السُّودان جيداً من سنواتهم الأولى في الأكاديميَّة العسكريَّة.

وإن كنا صادقين، فإن خُطة المُربَّع تعتبر مسخرة، ولا تعطي شعوراً بالفوز في المعركة. فوسط المُربَّع تجد ساحة القائد التي تتطلب الدفاع، وكذلك المدفعية الثقيلة، وهناك حماية لضرورات لوجستيَّة. وما دام الأمر كذلك، فإن كلاً من الأجنحة الأربعة يمكن أن يكون منشغلاً بحماية المُربَّع، وبالتالي يتم تقليل قوَّة نيران الكتيبة إلى رُبع طاقتها. وحينما يتعرَّض المُربَّع إلى الاختراق تصعُب حمايته.

"حركة العدل والمساواة" لا تستخدم خُطة المُربَّعات سواء كانت قوَّاتها ثابتة أو متحرِّكة. في تكتيكاتها الهبوط بالمظلات، تتخلى المركبات فوراً عن وضع الخط الواحد، ومن ثم تبقى على كلا الجانبين من العمليَّة مع القدرة على الوصول الكامل إلى الأهداف. صحيح أن قذائف المدفعيَّة الثقيلة في وقتٍ مبكِّر من العدو قد تكون قاتلة. ومع ذلك، وبحلول الوقت الذي يعيد فيه العدو المدفعيَّة تكون قوَّاتنا داخل قلب مُربَّع، وتكون الفرص قد ضاعت لمزيد من قذائف مدفعيَّة.

لقد سمعنا أن حكومة السُّودان جلبت الآن بعض المُدرِّبين التشاديين ليُبيِّنوا لهُم كيفيَّة تبديل خُططهم لتكون مثل خُططنا العسكريَّة. وفي الواقع، كانت هناك أدلة في معركة "جيلجيلا" أن الجيش الذي هزمناه كان يُحاكي أسلوبنا في القتال، وذلك بعد أن تخلي عن تشكيلة المُربَّع. وما دام أن قادة القوَّات المسلحة يحرصون على البقاء في أمانٍ وسط مركز المُربَّع، وفي الوقت نفسه يُضحُّون بحياة جنودهم المُشاة، لا أرى أن النجاح سيكون حليفهم عند التحوُّل إلى اتخاذ إستراتيجيَّتنا القتاليَّة.

القائد علي وافي

حين تتحدَّث إلى القائد "وافي" لفترة من الوقت ستعتقد أنك في مقابلة مع شاعر أكثر من كونه مجرَّد قائد عسكري. فـ"وافي" مثل معظم أعضاء الجماعات العربيَّة البدويَّة، هو حكواتي بطبيعته. رواياته مليئة بالتعبيرات الغنيَّة بالاستعارات، ويمطرُك بوابلٍ من المهارة في اللعب بالكلمات وروح الدعابة. وهذا ليس مستغرباً بالنسبة لـ"وافي"، الذي ينتمي إلى مجموعة العرب الرُحَّل من الرزيقات والتي تجد أن اللغة بالنسبة لها شكلٌ من أشكال الترفيه بقدر ما هي وسيلة للاتصال. نمط "وافي" الفَكِهْ من الكلام يُخفي مراتب مهمَّة في الرجل. فهو مقاتلٌ واستراتيجيٌ عسكريٌ كبير. والدليل واضح في مهاراته القياديَّة والتنظيميَّة مع الجماعات التي قاتل معها قبل انضمامه إلى الحركة. هذه هي المُؤهِّلات التي قفزت بـ"وافي" إلى منصب المتحدِّث باسم الجيش الحركة. دعونا ننتقل الآن إلى سماع قصَّته عبر كلماته..

اسمي الكامل هو "علي وافي بشَّار جمال الدين". وُلدتُ في مدينة "الضعين" عام ١٩٧٩. نحن ننتمي إلى "الرزيقات" وعلى وجه الخصوص ننتسبُ إلى "الماهريَّة"، وتحديداً "أولاد محيميد". حازت عائلتي على المشيخة من مجموعتنا في "أبو جابرا"، وذلك قبل الرحيل إلى "الضعين". ولكن على كلِّ حال نحن البدو نستاء من التقيُّد بالبقاء في نقطة واحدة على الخريطة. نحن لا نحصر منزلنا في بلدة أو قرية. وطننا هو

مساحات شاسعة من الأرض بحيث تتضاءل إلى جواره العديد من الدول في أفريقيا، ناهيك عن دول الخليج المُتقزِّم، إذ كل مجموعة حصلت على علم بنفسها وإستاد كرة القدم تنكَّرت في شكل دولة. امتدادات أرضنا تبدأ من الفاشر في الشمال إلى بحر العرب في الجنوب، ومن "ساني فوندو" في الغرب إلى "عسلاية" في الشرق. نحن البدو لا نريد أن نكون جالسين مثل الناس المستقرَّة. بمجرَّد أن حيواناتنا قامت باتساخ محيط المخيم نتحرَّك بعيداً إلى مكانٍ آخر مرتَّب.

نحن البدو ليس لنا كبير هَمٍ في التعليم. حيواناتنا تتطلب التنقل المستمر، والمدارس ليستً مصمَّمة لنا. هذا هو سبب تفوُّق جيراننا المستقرين علينا في التعليم، ولكن الأمور تغيَّرت. في حالتي كنتُ محظوظاً لأن والدي أدرك قيمة التعليم منذ فترة طويلة، وحافظ على تشجيعنا للذهاب إلى المدرسة. نحن ما زلنا من البدو ونملك أيضاً منزلاً في "الضعين" التي أكملتُ فيها المدرسة المتوسطة والثانوية. لديَّ أخٌ واحد وثلاث شقيقات تلقوا تعليمهن أيضاً بدرجاتٍ متفاوتة.

حصلتُ على الشهادة السودانيَّة في عام ١٩٩٨، وقبل أن أتمكَّن من تقرير ما ينبغي فعله بعد حصولي عليها، نصحني صديق للعائلة وكان نشطاً في الجبهة الإسلاميَّة مع اثنين من زملاء الدراسة بالتقدُّم بطلبٍ للتجنيد في الجيش. كان دافع ذلك الصديق سياسياً بحتاً، ولم تكن له أجندة وراء ذلك الطلب. في الواقع، زملائي الاثنين لم يكونا ينتميان إلى العرب الرزيقات. كانوا من "البرتي" ولكن نشأنا معاً في نفس الحي. في ذلك الوقت، كانت الجبهة الإسلاميَّة نشطة جداً في مدرسة الضعين، وكانت تبحث عن الشباب الذين يملكون مستوى جيداً في المدرسة. لم يكن لديَّ أي انتماء سياسي ولكنني أحببتُ فكرة التقدُّم للكليَّة الحربيَّة التي لم يكُن من السهل دخولها. نحن "الرزيقات" نحبذ الدخول في الجيش ولكن معظمنا كان ينتهي

إلى وظائف متدنية نظراً لتعليمنا القليل.. فرصة أن تتخرَّج كضابط تمثل حظاً جيداً لشاب من الرزيقات.

بينما كنتُ على وشك الانضمام إلى الجيش، أصيبت عائلتي بالذعر. فعددٌ من أعضاء العائلة قد أثاروا أمر الذين قُتلوا في حروب الجيش. كان هناك ضابطاً برُتبة نقيب في القوَّات المسلحة السودانيَّة أيضاً وقف إلى جانب عائلتي التي رأت عدم الانضمام إلى الجيش، وأخيراً سحبتُ طلبي. صديقاي الاثنان ذهبا نحو سبيلهما وتخرَّجا ضابطين بالجيش. للأسف، مخاوف عائلتي كانت على حق، إذ أن فرداً منها قُتل لاحقاً في الحرب، والثاني كان محظوظاً، إذ إنه نجا فقط لأنه كان متخصصاً في الإنتاج الصناعي العسكري. ذهب للعمل بمؤسَّسة "جياد" لإنتاج المُعدَّات العسكريَّة بالقرب من الخرطوم، بعيداً عن ساحات القتال.

بارك الله في عائلتي لأنهم بذلوا قصارى جهدهم لإنقاذي من الموت في الحرب، حين منعتني من الانضمام إلى الجيش الحكومي. ولكن انظر الآن، إلى أين انتهى بي الأمر؟! لقد هربتُ من مؤسسة "ميكي ماوس" العسكريَّة التابعة للبشير وانتهى بي المطاف إلى كلية حربيَّة أساتذتها جنود حركات التمرُّد.

في كليَّة الحكومة إنك تتعلم من جنرالات حليقي الذقن وبرَّاقين. إنهم يعلمونك كيفيَّة المحاربة على سبورة الفصول الدراسيَّة المكيَّفة، مع الجلوس على كراسي وثيرة. في تدريب الحركة لا تجد أثراً لكراسي مريحة أو مكيِّفات هواء. في التمرُّد تتعلم فقط من الرصاص المتطاير، وقذائف وقنابل المدفعيَّة التي تسقط من السماء في أرض المعركة. إذا أحدثت خطأ صغير في الكليَّة الحربيَّة فإنك ستُعاقب، ولكن إذا فعلت مثل ذلك الخطأ في الميدان فعليك أن تتشهَّد لتقابل ربَّك.

في الوقت الذي غيَّرتُ فيه رغبتي في الانضمام إلى الجيش فات عليَّ اللحاق بالتقديم إلى الجامعات، ولذلك اضطررتُ إلى الانتظار لسنة أخرى. وحينذاك وظفتُ الوقت لإعادة الامتحان وتحسين مستوى شهادتي، وبالفعل حصلتُ على شهادة جيِّدة مكَّنتني من الالتحاق بجامعة النيلين، وتخرَّجتُ في وقتٍ لاحقٍ ببكالوريوس في المحاسبة عام ٢٠٠٤. وكانت سنواتي الجامعيَّة ثريَّة للغاية. فبالإضافة إلى دراستي، شاركتُ في الأنشطة السياسيَّة الطلابيَّة. كانت السياسة حيويَّة في جامعة لأنها تزامنت مع انقسام البشير والتُرابي والذي قسَّم أنصار الحركة الإسلاميَّة على أسُسٍ عرقيَّة. فريقٌ من الجماعات العربيَّة في دارفور انضمَّ إلى البشير، في حين ذهب الآخر مع التُرابي. لم أكن طرفاً في الانقسام، إذ كنتُ أميلُ نحو اليسار عبر التحاقي بالحزب العربي الاشتراكي الناصري.

انضممتُ لهذا الحزب في الجامعة، إذ التقيتُ شخصاً من جامعة الجزيرة بوسط السُّودان وطلب مني الانضمام للحزب. كان اسمه "محمود سعيد"، ولم تكن محاولته الأولى لتجنيدي موفقة، ولذلك استعان بصديق لي كان طالباً في جامعة الجزيرة وعضوٌ بالحزب. في الأوَّل دار بيننا نقاشٌ طويل ثم اقترضت منهم بعض الكتب لقراءتها ثم تقرير شأني.

ما لفتَ نظري آنذاك، أنني أعجبتُ بطريقة اهتمام مجندي "محمود سعيد" وبقناعاته الحزبيَّة. وكان هو وأعضاء حزبه يهتمون حقيقة بدوافع مكرَّسة لقضيَّتهم. كانوا يُعربون عن اعتقادهم في وحدة جميع الشعوب العربيَّة، وكان لديهم أيضاً خُطة مماثلة للسُّودان. رأوا اللغة العربيَّة كأداة قويَّة توحِّد السُّودان، بعيداً عن الانقسامات على الأساس العرقي وتحالفات "الدم". واستند استنتاجهم على حقيقة بسيطة، وهي استخدام اللغة العربيَّة كلغة مشتركة في جميع أنحاء البلاد، بما في ذلك الجزء المسيحي الجنوبي من البلاد. كان الحزب الناصري الاشتراكي يتبنى النهج العلماني، وكان يميل بوضوح نحو يسار

السياسة السودانيَّة. لم يكن ضد الدين، ولكنه رأى أن يحصر دوره بعيداً عن جهاز الدولة.

غنيٌ عن القول أن الحزب كان يشارك الأحزاب الأخرى التي تمَّ حظرها في الاستياء من حالة البلاد آنذاك، ومع ذلك كان الحزب يُصِرُّ على التغيير السلمي، وكان يقف بعناد ضد رفع السلاح ضد الحكومة، ويعارض بالمثل التغيير العنيف للحكومة وجيشها الرسمي. فالحزب كان يعتقد في إمكانيَّة بناء قواعد شعبيَّة لإحداث انتفاضة شعبيَّة على غرار ثورتي أكتوبر عام ١٩٦٤ وانتفاضة أبريل عام ١٩٨٥، اللتين أطاحتا بحكومتي عبود ونميري القمعيَّتين عبر مظاهراتٍ في الشوارع من دون دعم بالقوَّة العسكريَّة.

نظريَّتهم الحزبيَّة بدت جيِّدة بالنسبة لي، وواصلتُ دوري الحزبي عبر المشاركة في جميع الأنشطة وتعرَّضتُ لمضايقاتٍ من نظام الأمن. ومع ذلك، سرعان ما بدأت الأمور تسير بشكلٍ معاكس. فقد لحظتُ الفجوة بين المُثُلِ العُليا للحزب وممارسة قادته في السطح. ربَّما كنتُ أعمى جداً في البداية عندما انضممتُ إليهم. ما توصَّلتُ إليه آنذاك هو أن قيادات الحزب يتم اختيارها من الفئات المحظوظة الذين كانوا لا يتميَّزون كثيراً عن النُخبة الحاكمة التقليديَّة في السُّودان. وقد فُرِضَ علينا التهميش. إن قادة الحزب يتحدَّرون من مجتمع الفِلل والقُصور، أما نحن الذين نشأنا في بيوت العُشب فكان دورنا أن نكون خادمين للحزب، بغضِّ النظر عن مؤهِّلاتنا. ولكُلِّ هذه الأسباب قرَّرتُ ترك الحزب.

كما قلتُ، تزامنت دراستي الجامعة مع بداية أزمة انقسام الحركة الإسلاميَّة. فقد كانت لدينا جمعيَّاتٍ للطلاب ونستخدمها بشكلٍ رئيسي للتحريض على جلب الخدمات لمُدُننا وقُرانا. عندما اندلعت الاضطرابات، وجدنا أنفسنا في فوضى أكبر من تقديم التماس للجهات المختصَّة بإنشاء مدرسة أو عيادة بيطريَّة

أو غيرها من الأشياء التي تحتاج إليها مجتمعاتنا. عدم وعينا بحجم المشكلة كان من نقاط الضعف الكامنة في جمعيات دارفور، وحقاً لم نبذل التفكير جيداً في معرفة ماكينيزمات الصراع. فكُل الجمعيات كما يبدو كانت إقليميَّة. وذلك لم يأت صدفة، إذ كانت هناك أجندة لمن شكَّلوها. هذا الواقع أجبرنا على تجاهُل هذه الجمعيات والتفكير في تكوين جمعيات أخرى تصلح لمعالجة المواضيع. لكن ذلك لم يكن سهلاً. فديناميكيَّات البيئة كانت معقدة وسريعة التغيُّر ومن الصعب التعامُل معها. والحال هكذا علمنا بأن هناك جماعة متمرِّدة جديدة تطلق على نفسها اسم "حركة تحرير السُّودان". كان مصطلح التحرُّر الذي اتخذته الحركة في مُسمَّاها يثير جدلاً وسط مجتمعاتنا العربيَّة في دارفور. ولذلك استغلت الحكومة هذا الأمر وأصابت مجتمعاتنا بالذُعر، إذ أصدقت أن الأمر يتعلق بتمرُّدٍ يهدف إلى التخلص من عرب دارفور. بالطبع كنا نفهم أن التمرُّد كان ضدَّ هيمنة المركز، وليس ضدَّ عرب دارفور، ولكن الضَّرر كان قد حدث على أية حال.

قدَّم انعدام انضباط بعض جنود الحركات المسلحة ومعاملتهم غير العادلة لبعض الجماعات العربيَّة سبباً قوياً للحكومة لبث دعاية التفرقة في دارفور. أما ظهور الجنجويد فقد عقد القضيَّة، وهكذا كُنا غارقين في حالة من الفوضى. العرب المستنيرون وغير العرب على حدٍ سواء، كانوا يعرفون طبيعة الصراع. كانوا يعرفون أيضاً أن "الجنجويد" لا يمثلون العرب الذين تملكوا الأراضي في دارفور، وعاشوا لقرونٍ مع الآخرين. ومن أجل التعامُل مع هذا الوضع، أنشأت الجمعيَّات "جبهة دارفور" لتكون واسعة وشاملة لجميع الأعراق في دارفور.

"جبهة دارفور" ضمَّت العرب وغير العرب في دارفور واتخذت موقفاً بألا تؤيِّد أياً من الحركات المسلحة. كان الغرض الرئيسي تسليط الضوء على مشكلة دارفور وتبيين أن المشكلة

إنما هي بين الإقليم والمركز، وليس بين العرب وغير العرب كما يُصوَّر الأمر في وسائل الإعلام الوطنيَّة والدوليَّة. جهودنا أكسبتنا عداوة الحكومة، وأصبحنا هدفا لأمنها. ولاحقاً تصدَّعت وضعُفت "جبهة دارفور" واخترقتها بعض المشاكل. وصار قادتها يضربون مضارب شتى بلا اتفاق، ذلك لأن العديد منهم كانوا ينتمون إلى منظماتٍ سريَّة مختلفة، وكانوا يخدمون أجنداتهم الخاصة. وكنا في كُلِّ مرَّة نأتي لصياغة بيان صحفي أو مكتوب، نجد أن شخصاً ما غيَّر المُحتوى قبل صدور البيان النهائي.

تزامنت كل هذه المشاكل مع الانقسام الذي حدث بين الحركات المتمرِّدة. لقد ظهر الخلاف بين حركتي "العدل والمساواة" و"تحرير السُّودان"، وفي وقتٍ لاحق انشقت حركة تحرير السُّودان إلى جناحين يتبعان إلى ميناوي وعبدالواحد. استغلت الحكومة هذه الانقسامات ونجحت في تسميم بيئة مجتمع دارفور، التي انتهت إلى عرقيَّات متناثرة. آنذاك أصبح من المستحيل بالنسبة للعرب وغير العرب في دارفور تسوية خلافاتهم والعمل معاً، وتفكَّكت "جبهة دارفور" نهائيا.

بعد ذلك، قرَّرنا نحن طلاب الجامعات المنتمين إلى المجتمعات العربيَّة في دارفور إنشاء منظمة منفصلة تحت اسم "جبهة دارفور السريَّة". اتخذنا الحياد بحيث لا تكون لنا علاقة بالحركات أو "الجنجويد" معاً. كانت مظلة واسعة شملت العديد من المجموعات من دارفور.. من "القمر"، "البرقد"، "البيجو"، و"أبو دراج". وكانت اللغة العربيَّة هي السمة المُميِّزة لهذه الجماعات لأنها لا تملك لغات أفريقيَّة، ويتحدَّثون فقط العربيَّة كلغة أم.

كان صعباً بالنسبة لنا تحقيق الهدف الرئيسي، وهو تصحيح الرسالة السياسيَّة التي كانت مهيمنة في وسائل الإعلام. أردنا أن نظهر بأن عرب دارفور لم يكونوا المشكلة، فالصراع

كان بين "دارفور" و"المركز"، وأن العرب أنفسهم يعانون أيضاً من تهميش واستغلال حكومات الخرطوم. قرَّرنا أن ننأى بأنفسنا عن التمحوُر القبلي وسعينا لإقامة قناة اتصال بين جميع الطوائف والجماعات في دارفور، بغضِّ النظر عن خلفيَّتهم العرقيَّة. كنا نرغب في توحيد رسالة دارفور للعالم الخارجي. حتى لو لم نستطع تحقيق الوحدة الكاملة بيننا، كنا نريد على الأقل عدم القتال بيننا، كما أرادت الحكومة أن تقحمنا فيه. فشلت الجبهة الجديدة أيضا في مهامها. فالحكومة تسللت في كل المجموعة الطلابيَّة من دارفور، كما أن كادرنا القيادي كان يفتقر إلى الخبرة في العمل وإتقان الحملة السياسيَّة والعامة. وكلاء الأمن الحكوميَّة برعوا أيضاً في أساليبهم القذرة ضدَّ منظمتنا عن طريق الاعتقال والمضايقة وتلفيق الرسائل باسمنا، وهكذا دواليك. فعلنا قصارى جهدنا، لكنها كانت مسابقة بيننا وبين الحكومة. وللأسف خسرنا المباراة لصالح الحكومة، وانهارت الجبهة.

يجب أن أقول إنني خرجتُ من تجربة مريرة جداً، وأصبحتُ إلى حدٍ ما أكثر تشدُّداً. على عكس المجموعات غير العربية في دارفور، ورغم أننا لم نحمل السلاح ضد الحكومة، إلاَّ أن الحكومة تعاملت معنا بقسوة، كما فعلت أيضاً الحركات المسلحة والمتعاطفين معها. أكثر من ذلك، فقد منعت الحكومة أيضاً من إقامة أي قنوات للاتصال بين المجتمعات العربيَّة من دارفور والسُّلطات. ولم يكن مسموحاً لنا بالتعبير عن أي مظالم، وبالتأكيد لم يكُن من الممكن لنا أن نقول إننا من المُهمَّشين أيضاً. وربَّما بشكلٍ أكثر من المجتمعات المحليَّة في دارفور من غير العرب. وهكذا أرادت الحكومة استخدامنا وقوداً في حربها ضد جيراننا الذين عشنا معهم لقرون.

كان الخيار الذي يتوجَّب علي اتخاذه صعباً. غادرتُ الخرطوم وأنا ممتلئ بالغضب والإحباط، ولكني عُدتُ إليها بعد سنواتٍ قليلة غازياً بمسدسي.

بعد انهيار جبهتنا في الخرطوم، ذهبتُ مباشرة إلى أهلي في دارفور. وصرنا مقتنعين أننا لن نتمكَّن من تسوية خلافاتنا بالطرق السلميَّة مع الحكومة. وصلنا إلى استنتاج مفاده أن حركات التمرُّد كانت على حقٍ لرفع السلاح ضد الحكومة، ولكن فشلت مع الأسف في استيعابنا ضمن صُفوفها. لتصحيح هذا المسار، قرَّرنا تأسيس حركة مسلحة منفصلة لعرب دارفور ومواصلة حوارنا مع الحركات الأخرى. والمثير للدهشة، أن توجُّهنا الجديد استُقبل بشكلٍ جيِّد في دارفور، وأنشأنا "الجبهة الثورية السودانية" تحت قيادتي. وفي غضون أسابيع في عام ٢٠٠٥، جمعتُ ٦٠٠ مقاتلاً، وأنشأنا معسكراً للجيش في "كونقي"، نحو ١٠ كيلومترا شمال "زالنجي" في غرب دارفور. وجاء المتطوِّعون يحملون الرشاشات، والبعض منها تمَّ توفيرها لهُم بواسطة الحكومة لمحاربة غير العرب.

كان إنشاء الجبهة شهادة على مستوى قدرة قاعدتنا العربيَّة على تحقيق مصيرها. ولقد تنامى خبر تكويننا للجبهة ليهزم دعاية الحكومة، التي هدفت إلى خداع أهلنا العرب، وأن التمرُّد هو من صنيع "الزُرقة". وقادة عرب دارفور المُؤمنين بأسطورة تمرُّد الزُرقة والمتحالفين مع الحكومة وقعوا في الفخ، وحذروا الناس من تقديم الدَّعم لنا، وألحقوا بنا أوصافاً متناقضة، باعتبار أننا كذا وكذا.. أحياناً شيوعيين وأحياناً أنصار التُرابي، وأحيانا أخرى حزب أمَّة ومرَّات أتباع الطريقة التيجانيَّة، وهي الطائفة الإسلامية الشعبيَّة التي يعود أصلها من غرب أفريقيا التي تجد الدعم من الزُرقة.

أسوأ من ذلك بكثير، أن ذهب بعض القادة إلى مزيدٍ من إدامة أسطورة الحكومة التي تقول بأن الحركات تشكَّلت لاستهداف الجماعات العربيَّة ونهب مواشيهم وإخراجهم من دارفور تماماً. وبالتالي أشاعوا أن تأسيس "الجبهة الثوريَّة" هو خيانة للقضيَّة العربيَّة. على الرغم من كل هذا، ثابرنا ولكن فقط

لفترة من الوقت. الأنباء عن الظهور المفاجئ لجماعة متمرِّدة من الجانب العربي من دارفور أرسلت الرُّعب إلى دهاليز السُّلطة في الخرطوم. واتخذت الحكومة هذه المسألة على محمل الجد، وأنشأت ورشة عمل لابتكار طرق جديدة للتعامل معنا. اختاروا بعناية ضابطاً ماكراً من جهاز الأمن للإشراف على تدمير جبهتنا. وكان الرجُل الذي اختاروه لهذا المنصب هو "مدني الحارث"، الذي كان واحداً من أفراد المجموعة الحاكمة من منطقة نهر النيل، وكان الحارث من ذوي الخبرة بشكلٍ استثنائي في الخداع، والرشوة عبر تكتيكات كثيرة. وبدلاً من شنِّ هجوم عسكري ضدنا، قرَّرت الجماعة التي ينتمي إليها الحارث توظيف هذه التكتيكات الماكرة لشراء ضمائرنا، واحداً تلو الآخر، مستعيناً في ذلك بقياداتنا التقليديَّة العربيَّة. ولقد قيل آنذاك إنه جاء حاملاً معه حقيبتين: واحدة مليئة بالنقود، وأخرى مكدسة بسلاسل الاعتقال.

كان "الحارث" على استعداد للقيام بكل شيء لإغراء الشيوخ حتى يُؤثروا في أبنائهم لمغادرة المعسكر وإمكانيَّة القتال إلى جانب الحكومة. وقال بعباراتٍ لا لبس فيها انه مستعد لتقديم المال، ولكنه على استعداد أيضاً لاستخدام تدابير متشدِّدة ضد القادة غير المتعاونين، وتشمل هذه التدابير السجن، والطرد من الإدارة. وفي غضون أيامٍ شعرنا أن سم "الحارث" قد تسرَّب إلى جسد تنظيمنا. وسُرعان ما بدأنا في فقدان مقاتلينا واحداً تلو الآخر.

بعضٌ من هؤلاء المقاتلين "الثوريين" كانت أثمانهم رخيصة جداً. بعضهم لم يتجاوز سعره بضعة جنيهات أو "نمرة" ضمن المجندين في قوَّات الدفاع الشعبي. وهناك عدد قليل كانوا تماماً مثل "الجنجويد"، فضَّلوا القيام بأدوار مُخزية. كانت هناك حفنة من الجنود الذين تركونا قد حصلوا على عربات تويوتا ثمناً لخيانتهم الجبهة. وهكذا تلاشى معسكرنا

تدريجياً، ومن جانبنا قرَّرنا تجنُّب القتال ضد إخوان الأمس الذين يهاجمون نيابة عن الحكومة.

مرَّة أخرى، تمَّت هزيمتنا بواسطة الحكومة، وقرَّرنا إغلاق المعسكر كخيار أفضل بكثير من قتل بعضنا بعضاً من أجل متعة أبناء منطقة نهر النيل. وحاولنا مرَّة أخرى إعادة فتح المعسكر بعد عام لكننا لم ننجح.

بعد الفشل الذريع مع الأشقاء العرب، قرَّرتُ بدء حوار مع "حركة العدل والمساواة". لحُسن الحظ، كان التواصُل بيننا لم يتوقف أبداً. سافرتُ إلى غرب دارفور، حيث كانت لي إحدى القريبات التي شجَّعتنا في الانضمام إلى الحركة إعجاباً بها، وكنا دائماً نستجيب إلى نصيحتها. كان لي صديق مشترك معها، وكان لديه علاقة مع كبار قادة الحركة، منهم محمد بشر. وأخيراً التقينا برفقة آخرين من المجتمعات العربيَّة الأخرى، وكانوا أيضاً هناك للاجتماع مع الحركة. كان محمد بحر، وهو عضوٌ في مجموعة شهامة من كُردُفان حاضراً، وقاد في وقتٍ لاحق فريق التفاوض للحركة في محادثات الدوحة قبل فصله، وينتمي إلى مسيريَّة منطقة كُردُفان، وقرَّرنا أن نجتمع في تشاد على مقرُبة من الحدود السودانيَّة.

عندما وصلنا إلى الحدود مع تشاد، كنا متنكِّرين على ظهور الخيل. في ذلك الوقت، كانت الحركة جزءٌ من ما كان يُسمَّى "جبهة الخلاص الوطني". في الموقع المحدَّد، التقينا مع وفد الحركة، منهم عبدالعزيز عُشر، وعبدالله بندا، وبحر أبو قردة، ومحمد بشر، وأحمد آدم بخيت. الاجتماع حقق نتائج أفضل بكثير مما كنا نتوقع، وأولئك المتحمِّسون من وفدنا قرَّروا الانضمام إلى الحركة على الفور.

بالنسبة لي، انضممتُ إلى الحركة رسمياً وتوليتُ مسئوليَّة استقطاب المزيد من أبناء المجموعة العربيَّة. أوعز رئيس الحركة إليَّ بالسفر إلى شرق دارفور، حيث يعيش أهلي

هناك وذلك لحشد الدعم للحركة، وأوعز أيضاً لأحمد بخيت ومحمد بشر لبدء اتصالاتٍ مع البعض من بقيَّة المجموعة التي تتبع لي، والتي لم تحضُر الاجتماع، بمن فيهما بابكر وكرشوم، بهدف ضمِّهم إلى الحركة. كانت اتصالات بخيت وبشير ناجحة ولذلك انضمَّ العديد من أبناء المجموعة العربيَّة في وقتٍ لاحق إلى الحركة.

آنذاك كانت للحركة قوَّة إداريِّة عاكفة للاتجاه نحو شرق دارفور، وانضممتُ لها وفقاً لتعليمات من الرئيس. وكان مقرراً أن ينضم الرئيس إلينا في هذه الجولة، كما فعل في وقتٍ لاحق في "حسكنيتة". انتقلنا من "وادي هور" في شمال دارفور في قوَّة صغيرة من ٢٢ مركبة مسافرين جنوباً. في "وادي المجرور" تعطلت إحدى عرباتنا، وعملنا على معالجة الأمر بالاستفادة فقط من أهم ما فيها. واستغرق الأمر منا ثلاث ساعات ثمَّ انتقلنا إلى قاعدة الحركة في "دريشقا"، والتي تقع شمال غرب منطقة "مادو". يجب أن أقول إن مواطنينا كانوا سخيين جداً وأكرمونا كثيراً. الله وحده يعلم كم عدد الحيوانات التي ذبحوها ليوفروا لنا الطعام الرائع. لقد استمتعنا حينذاك بكل أنواع اللحوم المقليَّة، والمشويَّة، و"الكبدة النيَّة" وغيرها من الوجبات التي نتبعها باحتساء أكواب الشاي. بارك الله في أولئك المُضيفين، لقد حققوا حلم كل جندي جائع في وسط صحراء، مثلنا.

من هناك انتقلنا جنوباً، وكانت أمامنا أكثر من نزهة. ولكن فجأة دخلنا منطقة خطرة، واضطرنا إلى البقاء في حالة تأهُّبٍ كامل، إذ ظلت أصابعنا مُمسكة بزناد البنادق. عبرنا طريقَ الأربعين وسرنا في الظلام الدامس، بينما أضواء عرباتنا مطفأة. في صباح اليوم التالي، وصلنا "فتاحة" في منطقة "أم كدادة". هناك كانت لدينا مشكلة مع سيارة أخرى، وكان علينا أن نتبع نفس الخطوات التي اتبعناها مع العربة الأولى. ثم وصلنا إلى منطقة "حسكنيتة" حيث التقينا حلفائنا:

"حركة تحرير السودان - جناح الوحدة"، وخططنا لتنسيق عملنا. مخابراتنا التقطت خطة القوَّات المسلحة السودانيَّة لتعقب مجموعتنا في المنطقة، وكانت مجهَّزة بقوة من ٦٠ مركبة متجهة نحونا. كانت "حركة تحرير السُّودان - جناح الوحدة" تملك ١٦ مركبة، وكان لدينا ٢٠ عربة، فجمعنا القوَّتين ليصبح مجموع عرباتنا ٣٦. وكان هذا العدد كافٍ تماماً للتعامُل مع قوَّة العدو التي تتكوَّن من ٦٠ مركبة.

من خلال تجربتنا، فإنه يمكن هزيمة العدو حين نعادل قوَّتهم برُبعها، مثلا ٢٥ فرداً مقابل ١٠٠ فرداً منهم. لم يكُن هناك شيء لنخافه على الإطلاق. وبينما كنا نستعد للاشتباك مع العدو، ظهرت لدينا مشكلة داخل قوَّات الحركة. فرئيسها أقال عبدالله بندا، قائد الجيش، وحلَّ محله شخص آخر. وكنا نعرف أن بندا كان قيد التحقيق نتاجاً لبعض سوء السلوك، ولكن لم نكن نتوقع صدور قرار عاجل ضده.

كان بعض أبناء عمومة بندا معنا في القوَّة، وبدأوا في التذمُّر، وقالوا إن الرئيس تصرَّف بشكلٍ غير قانوني دون إشراك المجلس العسكري للحركة. ذلك النبأ انتشر وسط جنودنا كالنار في الهشيم، وما زاد الطين بلة أن نبأ آخر أتى ليفيدنا بمقتله. ولكن لم يكن هناك شيء لإبطال مفعول هذا النبأ وامتصاص الاستياء غير مقاومة جيش القوَّات المسلحة، الذي كان يتربَّص بنا الدوائر. وصحيح أن بندا أقيل من منصبه، ولكن ثبت أن نبأ مقتله غير صحيح.

استخبارات الحركة أعلمتنا أن القوَّات الحكومية قتلت مدنيين أبرياء قرب "عديلة". وفي طريقهم، وجد جنود القوَّات المسلحة سيارة معطلة خلفتها وراءها "حركة تحرير السودان جناح الوحدة"، فقاموا بسحب السيارة إلى "عديلة" وعرضوها أمام ملأ من الناس، وراحوا يحتفلون بدعوى هزيمتهم وطردهم لجنود التمرُّد. وبينما كانوا في احتفالهم الصاخب، داهمناهم

وكثفنا عليهم إطلاق النار بالأسلوب المعروف للحركة، الذي نعم برحمة الله هرب بجلده بعد أن غمرت الفوضى وسطهم، وهناك محظوظون قفزوا من سيَّاراتهم واختفوا، وآخرون دخلت أسماؤهم كتاب شهداء البشير.

في غضون سبعة عشر دقيقة، كانت المنطقة برُمَّتها تحت سيطرتنا، على الرغم من أن مطاردة سيارات الفارين استغرقت منا نحو ساعة أو نحو ذلك. فقدنا جنديين وجرح تسعة منا. ومن تمَّ القبض عليهم أفرجنا عنهم في وقتٍ لاحق عن طريق الهلال الأحمر. ثم انتقلنا إلى بلدة "عديلة".

هنا اقتحمنا مركز الشرطة الأمنيَّة، واكتشفنا مخزن ذخيرة تابع للقوَّات المسلحة وقُمنا بأخذ كل ما فيه. انتقلنا إلى السجن وأطلقنا سراح جميع السجناء، وألقينا كلمة متوهِّجة في تجمُّع عام في وسط المدينة. حصلنا على ست عشر مركبة، أما حلفاؤنا في "حركة تحرير السودان جناح الوحدة" فقد تحصَّلوا على ثمانية. وكانت بقيَّة سيارات الأعداء إما دُمِّرت أو أثبتت أنها أسرع من عرباتنا في اللحاق بها. وكان ذلك نصراً سهلاً.

في الواقع إنني تدرَّبتُ في الخدمة الوطنيَّة الإلزاميَّة، وأعرف بالضبط كيفيَّة خوض القوَّات المسلحة للمعركة. فإستراتيجيَّتهم تتبع التركيز على التغطية ثم التقدُّم فالهجوم. إنهم يحاربون بحركة بطيئة. نحن مختلفون. تعتمد حربُنا على عنصر السُرعة. والمعركة بالنسبة لنا تُحسَمُ في غضون دقائق. وقناعتنا أن من يموت فمُقدَّرٌ له ذلك أمَّا من يحيا فذلك من قدره. وهكذا ليس لدينا وقتاً لإضاعة الفرص. فنحن ننتشر في شكل الحرف اللاتيني "L" إذ نبقى على جانبي العدو مكثفين عليه النار بعد أن نتجاوز الموجة الأولى من قذائف المدفعيَّة. سرعتنا تتجاوز الموجة الثانية من قذائف العدو التي تقع وراء ظهورنا. ولكننا لا ندعه يحمل قذائف المدفعيَّة الثالثة.

أخيراً واصلنا جولتنا في المنطقة مع مناوشات بسيطة هنا وهناك. كما وصل رئيس الحركة وانضمَّ إلى جو الحملة السياسيَّة. كانت المنطقة تقريباً خالية من جنود القوَّات المسلحة وكنا قادرين على تقسيم قوَّاتنا إلى قسمين لتغطية منطقة أوسع. عبرت وحدتي الخاصة الناحية الشرقيَّة من "ود بندا"، في المنطقة المجاورة لكُردُفان. هناك، رصَدَت استخباراتنا معسكراً للجيش يقوم بمضايقة المواطنين، لذلك قرَّرنا أن نعلمهم درساً سهلاً. ومن أجل التخطيط للهجوم، بعثنا سرياً بواحدٍ من استخباراتنا إلى البلدة التي وصل إليها على ظهر الشاحنات التجاريَّة. فنقل لنا تفاصيل كبيرة عن العدو، بما في ذلك عدد الجنود الذي بلغ نحو أربعمائة وخمسين، كما أبلغنا عن الدعم اللوجستي الذي وصل حديثاً إلى المعسكر، بما في ذلك الغذاء والبنادق. الخبر أسال لعابنا. وهكذا وجدتنا وقد اقتحمنا العدو بعيداً عن المدينة وسُكَّانها المدنيين. وكانت "ود بندا" هادئة على الرغم من أن أهلها كانوا مشغولين عندما اقتحمنا المدينة.

لقد أصيب الناس بالذهول حين رأوا سياراتنا في شكل الهلال تعبر نحو الطريق المؤدِّي إلى معسكر العدو. ولم تمر دقائق إلاَّ وقد نظفنا قاعدة الجيش. جنود العدو كانوا يفتقرون إلى حافز القتال، ولذلك هرعوا يائسين للاختفاء في خنادقهم وسط النيران التي تصُمُّ الآذان. لقد رموا بنادقهم وهربوا إلى الصحراء. وقعت المعركة في أقل من عشر دقائق. قضينا على قوَّتهم وجرَّدنا مخزناً كاملاً من المعدَّات العسكريَّة الجديدة وكذلك وجدنا آخر يحتوي على مواد غذائيَّة. السُكان المحليين أتوا إلينا فرحين، ونفَّسوا عن غضبهم ووجدوا سانحة للرجوع بأكياس من السكر والعدس والأرز على ظهورهم العارية.

تابعنا السُكَّان في المدينة إلى أن أوصلونا إلى مكتب الأمن الذي اقتحمناه. الجميع في البلدة كان يكره رجال الأمن الذين فرضوا القانون بأنفسهم، وكانوا يتعاملون دائماً بازدراء مع السُكَّان. كان هناك سجنٌ بالقرب من مكتب الأمن، وبدا من

هُم بداخله سُعداء عندما حرَّرناهم. وقبل أن نغادر المدينة، أقمنا تجمعاً حاشداً وخاطبنا الحضور عن الحركة وما نقاتل من أجله.

أخيرا قرَّرنا نقل المعركة إلى الخرطوم، وأن نقوم بزيارة مجاملة لمعالي السيد/البشير بعد أن تعبنا من القتال وسط اللامكان. ولذلك كان غزو أم درمان الذي عُرف لاحقاً باسم عملية "الذراع الطويلة". والقصة كلها بدأت بعد تجمهُر عدد من جيش الحركة في "دونكي عيسى"، شمال المالحة في شمال دارفور، وبقينا هناك لمدة أسبوع، وذلك للاستعدادات النهائيَّة لغزو العاصمة. عرفت الحكومة شيئاً ولكن لم تكن متأكدة مِمَّا كنا ننوي القيام به. ظنوا أننا سائرين في اتجاه "دُنقُلا"، أو "حمرة الشيخ"، أو ربَّما نحو المنشآت النفطيَّة في جنوب كُردُفان. وفي وسط ارتباكهم المطلق، نقلوا كتيبة من الأبيِّض إلى "حُمرة الشيخ" وواحدة أخرى من "الأبيِّض" إلى المنطقة النفطية في جنوب كُردُفان. كنا نعرف عن كل هذه التحرُّكات، وقرَّرنا تمويههم دون السماح لهم بصرف أنظارنا عن مهمَّتنا.

بدأنا السير نحو الخرطوم لمدَّة ثلاثة أيام دون توقف تقريباً. كنا في الليل نطفي أنوار عرباتنا. ولكن في اليومين الأولين رصدتنا طائرات الأنتونوف، ولكنها كانت مصدر إزعاج لنا وليس أكثر من ذلك. في اليوم الثالث تخطينا العواصف الرمليَّة. ولم نكن نعلم أن العواصف الرمليَّة قد غيَّرت اتجاهنا. كنا نعرف أننا كنا قاب قوسين من الهدف، ولكن لم نكن نعرف تماماً كيفيَّة الوصول إلى هناك.

لحُسن الحظ صادفنا شاحنة قادتنا إلى الطريق البري الذي يربط أم درمان مع الإقليم الشمالي. لدهشتنا أننا لم نكن نتوقع أن هذا الطريق سيقفز بنا بسرعة إلى هدفنا الذي كان يبعد آنئذٍ ثلاثين كيلومترا فقط. عثرنا في الطريق على نقطة تفتيش بها شرطي يجمع رسوم الطريق. كان لديه سيارة بيك

آب، ذات الكابينة المزدوجة. أحسستُ أن السيارة كانت في انتظاري، ولذلك استوليتُ عليها. أما الشرطي الذي كان يجمع الرسوم فقد جلس ورائي بهدوء دون أن ينطق بكلمة واحدة. كان مشهداً مثيراً، ترافق بسرعة عالية للسيارات التي كانت تطلق صافرات الإنذار أثناء تقدُّمها وكانت ضحكات تحف مقدمنا.

ورائي كان رتلٌ من السيَّارات المُغطاة بغبار جنودنا. المشهد كان مخيفاً للمواطنين الذين انسحبوا فوراً إلى جانب الطريق وتركوه لعرباتنا. كان مشهداً غريباً لي وأنا أقود العربة المطواعة بإشارات الحذر. وكنتُ أعتقد أنني أقودُ الرئيس البشير في موكبٍ كامل ورائي. رجُلٌ واحد جبان تخلى عن سيَّارته مع عائلته وسابق الريح. ولكن أوقفناه وأمرناه بالعودة إلى عائلته، وقلنا له إنه لم يكن لدينا شيء ضده فانطلق بسيارته مسرعاً.

كنتُ مثل ملك الطريق، إذ كنتُ أتقدَّم الرَّتل بسرعة وبثقة، وكل الحركة كانت خلفي. استغرقني الطريق في ذكريات كثيرة جميلة عن الخرطوم التي ابتعدتُ عنها لسنوات. وبينما كنتُ كذلك، شعرتُ فجأة بأن وابلاً من الرصاص ينهمر على سيارتي.

رحم الله أولئك الجنود الهُواة، إذ لا يمكنك أن تصوِّب نحو هدف متحرِّك. قبل أن أتمكَّن من تغيير اتجاه سيارتي، كانت قوَّاتنا قد عالجت مصدر النار وبيَّنت كيف يكون التصويب الحقيقي. على ما يبدو كانت هناك ثكنات على جانبي الطريق المُعبَّدة، وربَّما ينشغل من فيها بلعب الورق أو "الدومينو" أو شيء من هذا القبيل. إنها قوَّات تتألف من وحدات القوَّات المسلحة وقوَّات الحرس الجمهوري التي أوكل إليها حراسة الطريق. ولذلك عندما رأوني في القيادة، فتحوا النار على سيارتي. في غضون دقائق عالجناهم ثم عقدنا جلسة

قصيرة نهائيَّة قبل الدخول إلى أمدرمان. وتمَّ تقسيم الجيش إلى ثلاث مجموعات، كل واحدة لها هدف محدَّد: مطار وادي سيِّدنا العسكري، ومحطة الإذاعة، وجسر النيل الأزرق.

آنذاك كنتُ في قيادة فيلق شيلوي المتوجِّه إلى مطار عسكري. وطبعاً لم يكُن هناك هدفٌ أفضل لجندي الحركات المسلحة من ذلك المطار الذي دمَّرت طائراته شعبنا. كانت الخنادق تحيط حامية المطار بشكلٍ جيد. ومع ذلك، لم تكن أكثر من حيلة للاختباء بدلاً عن كونها فكرة دفاعيَّة فعَّالة. صادفنا دبَّابات كثيرة أمامنا، ولكن يبدو أنها بلا فاعليَّة، وفي وقتٍ لاحق اكتشفنا أن الحكومة أزالت عنها "إبر" ضرب النار التي تشغلها، وبقيت جاثمة كما الصخر. كان فعلاً غريباً جداً، ولكن مع ذلك مفهوم. فالبشير لم يعُد يثق في قوَّاته، وكانت فكرته تهدف إلى تحييد الدبَّابات لمنع استعمالها من قبل الجيش للإطاحة بحكومته.

يجب أن أعترف أننا لم نكن لطيفين مع أولئك الذين كانوا يحرسون المطار العسكري. اقتربنا بسياراتنا نحو خنادقهم مع سياراتنا وحيَّدنا قوَّة كل مخلوق في الحامية. دمَّرنا طائرة من طراز أنتونوف وطائرات مقاتلة من طراز ميج بينما شاهدنا طائرة ميج انطلقت بعيداً قبل أن نتمكَّن من الوصول إليها. ثم انتقلنا نبحث عن مزيد من المتعة، ولقد كان تدمير ذلك المطار بالفعل متعة حقيقيَّة.

مضينا نحو أم درمان بأقصى سرعة، ولكن لدهشتنا عثرنا على كنز أفضل بكثير من مطار وادي سيِّدنا. فأمامنا حُماة البشير أو "أولاد الآيس كريم" من شاكلة من يُسمُّون أنفسهم "وائل" و"فهد" و"هيثم" وكل الأسماء التي التقطها المجتمع من المسلسلات التلفزيونيَّة المصريَّة. إنها لم تكن أسماء مثل "أبّكراي"، أو "إساغة"، أو "أدوما"، والتي كانت شائعة في أطراف السُّودان. وإن أردت القول، فإننا صرنا

باتجاه منازلة "أولاد المصارين البُيُض"، الذين اختارهم البشير لحمايته.

هؤلاء النوع من الجنود عُهِدَ إليهم بحراسة العاصمة، وكان يُفترض أن يواجهوا الغُزاة من أمثالنا. كانوا يبدون وكأنهم تلقوا تدريباتٍ عالية ويملكون الأسلحة المتفوِّقة ويتلقون أجوراً محسَّنة. ولكن قضينا عليهم، وبعضُهُم ظلَّ يسابق الريح في كل اتجاه للنجاة بحياتهم. في غضون دقائق، خسر جميع حُماة البشير، وتركوا لنا مجالاً للمواصلة لإنجاز مهمَّة أخرى. وهناك عددٌ قليل من رجالنا تخلوا عن سيَّاراتهم المتهالكة واستولوا على العربات التي تركها الجنود ووجدوا أنها مليئة بالحلوى والبسكويت. والمُدهش أن العربات التي تركها الجنود هناك عُرِضَت لاحقاً في وسائل الإعلام وقالوا إن المدافعين عن المعسكر استولوا عليها من الحركة.

انتقلنا إلى المدينة وحصلنا على استقبال الأبطال. كان منظراً بدا لنا وكأننا قد ربحنا الحرب. النساء كانوا يولولون والفتيان والفتيات يُقدِّمون لنا المشروبات الغازيَّة، والحلويات، والفواكه، والسندويتشات. واكتظت الطرق بالسيَّارات المهجورة وكان من الصعب التحرُّك. كان أصحابها خائفين، حتى إنهم تركوها في منتصف الطريق. وعلى الرغم من معرفتنا بالخرطوم، إلا أننا قد تُهنا في الطريق، وكان ذلك بسبب الاحتفالات التي صرفتنا. وأخيراً مررنا على عددٍ من مراكز الشرطة، ولكن لم تكن هناك حاجة إلى تبادل إطلاق النار معها، رغم أن من فيها كانوا مسلحين. فمعظمهم كان سعيداً برؤيتنا وبدا واضحاً لنا أنه تمَّ تجنيدهم بشكلٍ واضح من الطبقات الفقيرة.

وصلنا إلى جسر النيل الأبيض في وقتٍ متأخر. وتحت الجسر، كانت هناك دبَّابتان ولكن كنا قادرين على تحييدها بعددٍ قليل من القذائف المضادة للدبَّابات. في الجانب الآخر من الجسر، التقينا مجموعة رئيس الحركة التي هزمت مجموعة تابعة للحرس الجمهوري، ثم انسحبنا في انتظار تعليماتٍ في

مكانٍ آمن. وفجأة أصبح التواصُل صعباً، ومعظم الهواتف التي كانتً تعمل بالأقمار الصناعية فقدت فاعليَّتها بسبب تصميمها البدائي الذي أفشل فاعليَّتها في العمل بالقُرب من المباني الخرسانيَّة العالية. حين انخفض الظلام تراجعنا من وسط المدينة ووقفنا في مكانٍ ما، منقطعين تماماً عن بقيَّة جيشنا. لم تكُن لدينا أي فكرة عن أن رئيس الحركة قد أمر بإخلاء ساحة المدينة. كنا في غاية الإرهاق، لذلك سقطنا نائمين وأسلحتنا في حضننا.

أفرغت الشوارع من الناس تماماً بسبب إعلان حظر التجوُّل الطوعي، وصار المكان كله يُشبه مدينة الأشباح. في وقتٍ مبكِّر من صباح اليوم التالي، واجهنا الدبَّابات الحكومية وبعض المقاتلين المُشاة. كانت هناك خمس مركبات تابعة للحركة بينما انسحبت البقيَّة. قاتلناهُم وجهاً لوجه، وشارعاً بشارع. وفي النهاية وجدتُ نفسي وحيداً في عُمق الحارات. كنتُ أحمل بندقيَّتي ولذلك قرَّرتُ عدم الهروب. نعم، كنتُ مصمماً على عدم الاستسلام، وكنتُ أعلم أن رصاصات الجندي الأخيرة دائماً قاتلة. مشيتُ نحو الجانب الآخر من المدينة حاملاً مسدسي. كان لي ثوباً تشادياً تحت اليونيفورم ولذا فإنني تخلصت من الأخير. مررتُ بجوار بعض رجال الشرطة ولكن لم يطلب مني أحد أي شيء، وكان كل واحدٍ يرتعد من الخوف.

في حوالي الساعة التاسعة، مررتُ بمسجدٍ قرب منزلٍ لأحد الأقارب. تركتُ مسدسي في المسجد وذهبتُ إلى داخل المنزل. من الواضح أن الأسرة فوجئت جداً برؤيتي، وقرَّرت أن تحميني بطريقتها، وفي الأيام التي تلت ظللتُ أتنقل من منزل إلى آخر في الخرطوم في تمويه مقصود.

بعد أسابيع، قرَّرتُ أن أترك الخرطوم باستخدام وثائق مزوَّرة. ولكن الذهاب مباشرة من الخرطوم إلى دارفور كان

محفوفاً بالمخاطر، لذلك قررتُ السفر إلى وسط السُّودان على طول الطريق المحازي للنيل الأزرق ودارفور. أخذت الرحلات القصيرة بين بلدة وأخرى نحو مئة كيلو متراً، واتخذتُ هذه الأنواع من الرحلات لعدم جذب انتباه رجال الأمن. بطريقة أو بأخرى، وصلتُ إلى "دار السلام" التي تبعُد ثلاثين كيلومتراً من مسقط رأسي "الضعين". كان وصولي إلى هناك على شاحنة "ZY"، والتي توقفت تماماً في وسط القرية. وصادف ذلك اليوم السوق الأسبوعيَّة، وكان المكان مزدحماً بالمتسوِّقين. ذهبتُ إلى مقهى صغير لتناول فنجان من الشاي وهناك رصدتُ أحد معارفي، وجاء نحوي مسرعاً لتحيَّتي بحرارة. آنئذٍ، قنعت أن رحلتي لم تعُد سريَّة وما مرَّ وقتاً طويلا إلا وحجزتُ مقعداً في سيارة "لاندروفر" متجهة إلى "الضعين" عند نهاية اليوم.

غادرتُ القرية كما لو كنتُ ذاهباً إلى المرحاض، وبقيتُ مراقباً لعربة الـ"لاندروفر" من مسافة بعيدة. ثم أخيراً امتطيتها نحو "الضعين". كنتُ قبلها اتصلتُ بصديقي "حافظ" في جوبا لأخبره عن محنتي، وكان هو متمرَّداً مثلي. لم يكُن هناك أي سببٌ يبقيني في مدينة "الضعين"، حتى ولو ليوم واحد لأن شخصاً من خارج عائلتي عرف أنني كنتُ في المنطقة.

أذكر أن صديقي "حافظ" عندما رفع الهاتف قال إنه يشُكُّ في كوني أنا المتحدِّث الذي كان يعرفه منذ زمن. فهو يعتقد أنني مُتُّ قبل فترة طويلة، وأصرَّ أن يختبرني. ذكرتُ له عدداً من الأحداث التي مررنا بها معاً، وكانت مثاراً للضحك بيننا وأخيراً صدَّقني وطلب مني أن أكون على استعداد لترك "الضعين" في صباح اليوم التالي عند الساعة السادسة، وكان هذا بالضبط ما فعلته.

السيارة التي دبَّرها لي جاءت إلى منزلنا في "الضعين" عند السادسة تماماً. وبعد بضع ساعات، حاصرت قوَّة أمنيَّة

حكوميَّة كبيرة المنزل بحثاً عني. وفي الوقت الذي انتهى فيه التفتيش، كنتُ قد عبرتُ بالفعل حدود دارفور المشتركة مع جمهورية جنوب السُّودان.

القائد منصور أرباب

القائد "منصور أرباب" هُو أمين شئون الرئاسة في "حركة العدل والمساواة". كان عضواً بارزاً في "حركة تحرير السُّودان - جناح عبدالواحد"، قبل انشقاقه عنها وانضمامه لاحقاً إلى "حركة العدل والمساواة" عام ٢٠٠٩. وكان خلال وجوده في حركة تحرير السودان قد تقلد عدداً من المناصب، من بينها نائب رئيس الحركة والقائد الأعلى لقوَّات حركة تحرير السودان في شرق السُّودان. وسيرة "أرباب" العسكريَّة شملت القتال في حوالي عشرين معركة، نصفها كان تحت قيادته.

"أرباب" يُعتبرُ قائداً بحق، وداهية، يعرف بالضبط ما يريد، بل ويسعى إلى هدفه بثبات، وتركيز، وتصميم مُفرط. شموخ قوامه العالي معزَّزٌ بابتسامة ساحرة تسهل لأصحابه التعامُل معه. "أرباب" يجيد اللغة العربيَّة والإنجليزيَّة وكذلك لغة "المساليت"، ويستطيع التحدث بلغة "الزغاوة" بدرجة حسنة إلى حدٍ كبير. ولدى "أرباب" قدرة رائعة على إزالة الغموض عن القضايا الماثلة، وبالتالي يجعلها مفهومة للجميع تقريباً. ذلك بالضبط ما كنتُ أحس به حين أجريت معه حواراً عن المسائل العسكريَّة، والتي ليس لي دربة في معرفتها بالتمام.

كان الحوار بالنسبة لي تجربة للتعرُّض لجهلي المُحرج بشئون الحرب والقتال. وبالنسبة للقائد "أرباب" فإن الحرب والمعرفة العسكريَّة إنما علمٌ. والقتال، كما يرى، لا يعني فقط حشد حفنة من حاملي أسلحة الكلاشينكوف الراغبين في

المُقامرة بحياتهم في ساحة المعركة. اسمحوا لي أن أتوقف عن مدح شخصيَّة القائد "أرباب" ودعوه يقص روايته..

اسمي بالكامل "منصور أرباب يونس"، وُلِدْتُ في بلدة "مستري" التي تبعُد ثلاثة وأربعين كيلومتراً جنوب غرب "الجنينة" في ولاية غرب دارفور. وعلى عكس أبناء جيلك سيِّدي المؤلف، فأنا أعرف بالضبط متى وُلِدتُ. فقد كان بزوغ حياتي في العام ١٩٧٦.

كان والدي شخصيَّة معروفة في المنطقة، ولا ينعقد مجلس بالكامل في المنطقة بدونه. لقد نشأنا في منزل يأتي إليه كثيرٌ من الناس. وظلَّ بابنا مفتوحاً دائماً للضيوف، وكذلك للذين يسعون إلى وساطة والدي لحَلِّ نزاع أو آخر. كان والدي عضواً في الديوان الملكي لسُلطان "المساليت"، وذلك ما منحه بعض الخبرة، وربَّما السلطة للتوسُّط في مختلف أنواع النزاعات في المنطقة.

عائلتي لم تكن غنيَّة، ولكن لا استطيع أن أقول إنها كانت فقيرة. والدي عمل خياطاً، ولكن أيضاً انخرط في جميع أشكال التجارة. كانت والدتي تملك عدة أبقار، أحسنت رعايتها بشكلٍ ملفت لنظر نساء ورجال القرية. لقد جئتُ من عائلة يتكوَّن عمادها من زوجتين لأبي، مع خمسة أطفال من أمي وثمانية من عمَّتي. للأسف تناقص عدد أخواني لأننا فقدنا أربعة من الأشقاء بسبب داء الملاريا، وأدواء أخرى غير محدَّدة. في الواقع، يمكنك فقدان واحد من الأخوة، ولكن أن تفقد أربعة منهم في الأسرة يبقى الحُزن في ذهنك إلى الأبد.

أسرتنا قبلت الأمر على أنه إرادة الله، ولكن عندما كبرتُ بدأت ذكرى فقدان أشقائي تملأني بالغضب. إنه ناتج الإهمال الهائل في توفير الخدمات الطبيَّة الذي أدَّى إلى مثل هذا المعدَّل العالي للوفيات المُبكِّرة، وكذلك هو نتيجة مباشرة للتهميش المتعمَّد من الحكومات المتعاقبة.

درستُ تعليمي ما قبل الجامعة في دارفور قبل الذهاب إلى الخرطوم وخارجها. تعلمتُ الكثير في المدرسة، ولكنه كان أبي هو الذي شكَّل شخصيَّتي ودفعني إلى الاستعداد للمُشاركة في عملٍ العام. منزلنا أشبه بقاعة محكمة، إذ يأتي الأقارب والغرباء على حدٍ سواء لطرح مشاكلهم والتوفيق وسط خلافاتهم بتوجيه من والدي، وكبار الأعضاء الآخرين في المجتمع. مع أشقائي، كنا نقدِّم الشاي، والمياه، وسجاد الصلاة، وندعو الشهود أحياناً. وإذا كنتَ تعتقد أن تلك المُهمَّة كانت ممتعة بالنسبة لي، إذ كنتُ أركض مثل دجاجة مقطوعة الرأس، فأنت مخطئ.

لكن بالمقابل، كانت هذه التجمُّعات تمنحنا فرصة رائعة لمعرفة ما يجري في المجتمع بقدر كبير من التفصيل، ولكن قبل كل شيء إنها وفرت لنا الفرصة لاحترام كل الأعيان في المنطقة، بما في ذلك المعلمين، ومسئولي الشرطة، وأعيان القرى، وسلطان "المساليت" نفسه. كانت كل التجمُّعات العامة ممارسة للتدريب المثالي للشباب، ناهيك عن أنها مستوى من الواجب لخدمة المجتمع مع فرصة للاستزادة عبر التحدث مع رموز عالمنا الصغير.

بحلول الوقت الذي ذهبتُ فيه إلى المدرسة الوُسطى، كنتُ بالفعل أحد قادة الشباب، و"ألفة" الفصل، وكنتُ كابتن كرة القدم، وفريق كرة السلة، ولعبتُ في بطولات رياضيَّة ممثلاً لغرب دارفور ضد فرق أخرى للولايات.

الحقيقة أن والدي كان، وما يزال، من أشد مؤيدي حزب الأمَّة جناح الصادق المهدي، فكذلك هو حال معظم أبناء وبنات جيله. وكان من الشائع تمرير هذا الانتماء السياسي لكُلِّ الأجيال الشابة في الأسرة الواحدة. لكن في حالة جيلنا، فأمر توريث الانتماء فشل حدوثه. فالانتماءات الحزبيَّة السياسيَّة عانت تجاهلاً من جيلٍ ضخم من الشباب الأكثر تعليماً، إذ هجَّر

الأحزاب التقليدية التي كان آباؤهم ينتمون إليها. وهكذا تحوَّل الأبناء إلى الأحزاب الحديثة نسبياً، مثل الجبهة الإسلاميَّة، والحزب الشيوعي وغيرهما.

الواقع أنه بينما كنتُ في المدرسة المتوسطة في مُستهلِّ مرحلة التسعينات من القرن الماضي، كان لدينا مدرس ممتاز اسمه "آدم صيام" الذي أثر في جيلنا. كان صيام، أحد أقربائنا، ومحترماً في أوساط المجتمع، ولذلك فهو الذي شجَّعني على الانضمام إلى التنظيم الإسلاموي. ولم يكُن المعلم "صيام" وحده الناشط في تجنيد الشباب للحركة الإسلاميَّة، فقد تزامن سعيه السياسي مع حيوية الحملة التي شنتها الجبهة الإسلاميَّة لاستهداف الطلاب الشباب من أمثالي.

عندما ذهبت إلى جامعة السُّودان في الخرطوم، واصلتُ نشاطي السياسي مع الجبهة الإسلاميَّة. وفي فترة قصيرة أصبحتُ كادراً مهماً من كوادر شباب الحركة الإسلاميَّة ولذلك عُيِّنتُ في العديد من المناصب الهامَّة، حيث كنتُ عضو المجلس التنفيذي للاتحاد العام لطلاب الجامعة، وعضواً في اتحاد طلبة وشباب بلدان عدم الانحياز، وصرتُ نائب الأمين العام لشئون الدول في هذا التنظيم الدولي.

بينما كنتُ في الجامعة، واتتني فرصة الانتقال إلى العراق لدراسة هندسة البترول. فوزارة الطاقة أرسلت إلى بغداد نحو ستة وستين طالباً بعد عمليَّة اختيار دقيقة. وقد تجاوزتُ صعوبة الاختبار واخترتُ أن أكون قائداً للمجموعة المبعوثة.

سافرنا إلى العراق وقضينا ثلاث سنوات في العراق، وعدتُ بعدها ودرستُ لمدة سنة أخرى في جامعة السُّودان قبل التخرُّج كمهندس بترول. كانت الفرصة مثيرة ومناسبة للانفتاح. وهذه هي المرَّة الأولى بالنسبة لي في تجربة الحياة في الخارج، وكنتُ أظن أن التأهيل في هذا المجال من شأنه أن

يمكنني من الانضمام إلى ازدهار صناعة النفط الجديدة في البلاد، هكذا كان شعوري. عندما عُدنا بعد ذلك بثلاث سنوات، نظمت وزارة الطاقة حفل استقبال بالنسبة لنا، وباعتباري رئيساً للبعثة قدَّمتُ كلمة شكر لهُم لإتاحة الفرصة لنا وأيضاً قدَّمتُ بعض ملاحظات أخرى. قلتُ في خطابي إن البعثة لم تكن ممثلة للسُّودان كله. فمن الستة والستين طالباً، كان هناك أربعة فقط من هوامش السُّودان، في حين كان الغالبيَّة من منطقة نهر النيل ممثلين للأمَّة كلها. بالتأكيد لم يجد خطابي الترحيب بشكلٍ جيِّد من الجمهور. وعلى الرغم من النقص الحاد في تأهيل وزارة الطاقة في مجال التخصُّصات، وظف أربعة وستين من دفعتنا المبعوثة للعراق، وبقي هناك اثنان منها لم يُوظفا.

لقد أبعدوني وزميل لي من منطقة الجزيرة من فرصة العمل. من المُستغرب أن كلانا أكمل الدراسة بنتائج أفضل من أولئك الذين تمَّ توظيفهم. ولكن المفاجأة أن زميلي المستبعد عن التوظيف كان الشخص الوحيد الذي صفق لخطاب الاستقبال.

بعد أن أمضيتُ بعض الوقت عاطلاً عن العمل، كتبتُ إلى وزير الطاقة عوض الجاز ووظفتُ بعض الاتصالات للقاءٍ معه. وعندما ذهبتُ إلى مكتبه، لم يطلب مني حتى الجلوس في المقعد. سألني عن منطقتي، وقلتُ إنني من دارفور. ثم نظر إليَّ وقال: **«سيتم تعيينك إن شاء الله»**، ومضى إلى حال سبيله. وبالطبع فإن مشيئة الله لم تتم.

كان لي قريب يعمل مستشاراً للرئيس البشير، وهو الدكتور علي حسن تاج الدين. اتصلتُ به وحكيتُ له قصَّتي ثمَّ وعد بالاتصال بمجلس الوزراء إذا دعا الحال. ومع ذلك، قرَّرنا أن نرى الوزير مرَّة أخرى، وفعلنا.. استقبلنا الوزير ونصح تاج الدين بعدم دفع الشكوى إلى مجلس الوزراء، ثم أعطاني بطاقة العمل الخاصة به لمقابلته في أي يوم وتسوية المسألة. أيام فيما بعد، ظهرتُ في مكتبه. ونظر إليَّ عوض الجاز بريبة

وكنتُ أعرف أنه لن يمنحني وظيفة في وزارته. حينها فقدتُ أعصابي وقلتُ له: **«أنت ترفض توظيفنا نحن المُهمَّشين في مصفاة الجيلي لتكرير النفط، ولكن في يوم ما سوف نأتي وزراء في هذا البلد»**، وذهبتُ بعيداً عنه دون أن ينطق كلمة واحدة رداً على هذا الغضب.

كنتُ أعرف على وجه اليقين أنه لن يتم تعييني، وذلك لسببٍ بسيط، هو أن وزارة الطاقة أصبحت حكراً على مجموعة "الشايقيَّة" التي ينتمي إليها الوزير داخل السُّلطة. وليس غريباً أن مجموعتي الجعليين والحلفاويين نفسها قد واجهت أيضاً التمييز عند بوَّابة الوزارة، ذلك على الرغم من أنهما كانتا عمادتين في التحالف الثلاثي الذي حكم البلاد. لذلك كانت هيمنة مجموعة "الشايقيَّة" في السُّلطة على صناعة النفط في السُّودان أمراً صارخاً، إذ إنهم سيطروا على منصبي وزارة الطاقة، والأمين العام للوزارة، وكذلك إدارة مصفاة الجيلي التي تقدَّمتُ بطلبٍ للعمل فيها.

خلال تلك الأيام، كانت هناك قصة تدور أحداثها حول إجراءات التعيين التي تمَّت في مصفاة النفط بالجيلي. لم أكن لأذكر لك هذه القصة لولا أنك طلبتَ مني أن أكون صريحاً، وأن أضع كل شيء على الطاولة. جلس مهندس صيني ليملأ استمارة الطلب، والذي كان يحتوي على فقرة للإجابة على سؤال عن المجموعة العرقيَّة التي ينتمي إليها. لاحظ الصيني أن زملائه الذين تمَّ تعيينهم يستخدمون لفظ "شايقي" كثيراً فأخذ الطلب وقال إنه "شايقي" أيضاً بافتراض أنه سيُعيَّن.. الصيني الفقير اعتقد أن عبارة "شايقي" تعني "ممتاز".

بعد عشرة أيام من مواجهتي للوزير، خرجتُ من الخرطوم متوجِّهاً إلى دارفور، حيث بدأ التمرُّد حينها. كانت مرحلة فاصلة في حياتي حين وصلت للحقيقة مؤخراً بأننا شعبٌ مواجهٌ بالتهميش، ويجب علينا أن نُحدِثَ خطوة لتغيير النظام

تماماً من أجل أن نعيش في قطر قائم على المُساواة. آنئذٍ كُنتُ قد تخليتُ عن ارتباطي السابق بالجبهة الإسلاميَّة، تحديداً في عام ٢٠٠١.

في يوم إعلان تشكيل "حركة تحرير السُّودان" وهجومها على منطقة "قولو" في "جبل مَرَّة" وصلتُ إلى "الجنينة"، ومنها ذهبتُ مباشرة إلى معسكر التمرُّد. كان لدينا القليل الذي بدأنا به الثورة، ولكن لم تكُن لدينا عربات، ولا أسلحة حديثة، والحصول على الطعام كان مجازفة.

مهمَّتي الأولى كانت الأشراف على إعداد الطعام للجيش، وفي ذات الوقت تجنيد الداعمين للقتال ضد الحكومة. وظيفة إحضار الطعام للمقاتلين كانت عملاً مرهقاً ويستهلك كل الزمن رغم أن السُكَّان المحليين كانوا كريمين معنا. في الواقع أننا كنا نأخذ الذرة من المزارعين الطيِّبين. كانت لدينا أكواب صغيرة عبوَّة كيلو فقط نستخدمها لغاية جمع الطعام. كانت الأسرة الصغير تمنحنا كوباً صغيراً في حين أن الأسرة الكبيرة تمنحنا كوبين أو أكثر.

ساهم التُجَّار بمختلف ما يملكون من أشياء. أعطونا الفول السُّوداني والتمر، ولكن الأكثر إثارة للدهشة أنهم منحونا أغطية واقية. كان آخر دعم هو التضامُن معنا حتى نظهر التزامنا الحقيقي بهذه القضية. لا أنسى أننا حضرنا الأكفان لدفن الجنود القتلى تماشياً مع التقاليد المحليَّة. لقد عرف معظم الناس ما كنا نعد له، ولكن بعضهم لم يفهم تماماً مهمتنا، لكنه واصل دعمنا لأننا كنا أبناء المنطقة. كانت حملتنا سريَّة من أجل الهروب حتى لا تكشف الحكومة خطتنا ومواقع معسكراتنا. على هذا النحو، أفشينا الطبيعة الحقيقيَّة لمُهمَّتنا إلى عدد محدود من المؤيِّدين الموثوق بهم. واصل الآخرون التبرُّع لنا بالطعام لمجرَّد أنهم عرفوا هدفنا وكانوا أقاربنا. لم نكن أبداً جشعين ولم نكن لنطلب الكثير على أي حال.

كان رطلاً أو اثنين من الفول السوداني أو الذرة لا يمثل شيئاً كبيراً، كما أن الأكفان كانت من أرخص الأقمشة في الأرض. ولقد نقلنا طعامنا على ظهور الحمير والجمال للمعسكرات، وحتى هذه الحيوانات اقترضناها من أصحابها لنرجعها لهم لاحقاً.

رأينا أن الدعم المحلي الذي حصلنا عليه غير كافٍ. فالشباب الذي يستنهض الهمم ويكافح، وأولئك الذين لديهم جميع الموارد كلهم في المُدُن، وليس في المناطق الريفيَّة، مثل منطقة "الجنينة". الطعام لم يكُن الشيء الوحيد الذي نحتاجه. كانت الأسلحة التي لدينا في ذلك الوقت بدائيَّة جداً، إذ تتكوَّن من عددٍ قليل من البنادق التي استولينا عليها من الحكومة، مثل الـ"جيم ثري" بالإضافة إلى قنابل يدويَّة.

لذلك قرَّرتُ زيارة الخرطوم وإجراء اتصالاتٍ مع أهلنا هناك. فنحن بالفعل قد نظمنا وحدات للطلاب في جميع الجامعات في العاصمة. كانت الرحلة ناجحة بكل المعايير. أجريتُ اتصالات قيِّمة، وعُدتُ بقدرٍ معقول من المال. وأتذكَّر أنني أخذتُ شحنة كبيرة من الأحذية البلاستيكيَّة والتي كنا نسميها "الشِدَّة" إلى الميدان، وفرح الجنود لما جلبته. الدعم الوارد احتوى أيضاً على الأحذية المستعملة والملابس المُتبرَّع بها في "الجنينة".

رحلتي الثانية إلى الخرطوم كانت فاشلة، حيث تمَّ اعتقالي في "نيالا"، وأرسلتُ مُكبَّل اليدين جواً إلى الخرطوم. قضيتُ شهرين في مكاتب الأمن في الخرطوم بالقرب من مقرِّ الجيش، حيث كنتُ قد تحمَّلتُ التعذيب المُروِّع في "بيوت الأشباح". ولكن الإفراج عني تمَّ عندما سئم رجال الأمن من تعذيبي، واشترطوا أن أسجِّل حضوراً في مكاتبهم عند كل صباح، ولكني رفضتُ القيام بهذا الأمر. وحينذاك عاد وفد المُقدِّمة للحركة الشعبيَّة إلى الخرطوم للتشاوُر في ملابسات

اتفاقيَّة نيفاشا بين الحركة الشعبيَّة والخرطوم. وكان فريق الحركة الشعبيَّة بقيادة عبدالعزيز الحلو الذي كان يمُتُّ بصلة قرابة لي. وقد زُرتُه في فندق هيلتون، وتحدثتُ إليه مع إدوارد لينو عضو الوفد. تعقب بعض أفراد الأمن مجريات الاجتماع واعتُقِلتُ من جديد وبقيتُ في "بيوت الأشباح" نحو سبعة وعشرين يوماً أخرى.

في نهاية اعتقالي الثاني، تمَّ نقلي للاستجواب بواسطة صلاح قوش، الذي كان قد عُيِّن في ذلك الوقت رئيساً لجهاز المخابرات. حُرَّاس الأمن أتوا بي إلى مكتبه وبقي هو بالخارج. على ما يبدو كان يعتقد قوش أنني كنتُ وراء التخطيط لمظاهرات طلاب دارفور في الخرطوم. كان وقحاً جداً في تحقيقه معي، إذ قال لي: **«إذا كنت رجُلاً حقاً، لماذا لا تذهب وتقاتل في دارفور بدلا من إثارة الشعب في شوارع الخرطوم؟!»**.

غضبتُ لطريقة لهجته التي رددتُ عليها ببرودٍ، وقلت له: **«لو كنت أحمل سلاحاً لما كنتُ هنا»**. بدا قوش غاضباً جداً، وفقد أعصابه وصرخ في وجهي: **«اذهب، فأنت مبتذل»**. خرجتُ من المكتب، وتجاوزتُ حُرَّاس الأمن الذين جلبوني إلى داخل مكتبه وخرجتُ من المبنى تماماً. عبرتُ الطريق الرئيسي قبل أن يتمكَّنوا من التأكُّد ما إذا كان رئيسهم قد أصدر لي أمر الإفراج أم لا بتلك الطريقة التي خاطبني بها.

قفزتُ في سيَّارة أجرة واختبأتُ قبل مغادرتي إلى دارفور بوقتٍ قصير من تلك المُواجهة. بعد ذلك بعام، التقيتُ صلاح قوش في العاصمة التشاديَّة انجمينا، إذ وقعنا على ما أصبح يُعرفُ باسم "اتفاق وقف إطلاق النار في انجمينا" عام ٢٠٠٤. كنتُ آنذاك نائباً لرئيس "حركة تحرير السُّودان". وبالحق أن الرئيس التشادي إدريس دِيبي طلب أثناء التوقيع على الاتفاق أن يتصافح أعضاء الوفدين.. يا إلهي، جاء قوش مباشرة إليَّ ومدَّ يديه نحوي.. أبديتُ في وجهه إحساسُ

الازدراء الذي قابلني به في مكتبه آنذاك، وتجاهلتُ يده.. رئيسي عبدالواحد محمد نور، رئيس "حركة تحرير السُّودان"، أدرك رفضي مصافحة قوش، الذي لم يكن سوى واحد من أكثر الكائنات كراهيَّة في دارفور.

نعم، لقد تمرَّدتُ بناء على النصيحة التي حصلتُ عليها من مكتب قوش ـ حين سألني لماذا لا تذهب إلى دارفور؟! وجدتُ نفسي في معسكر القتال.. اضطلعتُ بمسئوليَّة "جيش حركة تحرير السودان" في شرق السُّودان، وحاربتُ أيضاً في دارفور وكُردُفان. لقد قدتُ شخصياً عشر معارك وشاركتُ في عددٍ متساو في الإعداد للمعارك الأخرى التي كانت بقيادة قادة آخرين. عملتُ أيضاً في مجال التدريب العسكري للمُجندين الجُدُد في محاولة للاستفادة من خبرتي في هذا المجال. فأنا لحُسن الحظ كنتُ قد تدرَّبتُ بشكلٍ جيِّد، إذ خضعتُ لتدريبٍ في الأسلحة العادية والمتقدِّمة. وعلى وجه الدقة، بُعِثتُ إلى خمس دورات تدريبيَّة، اثنان كانتا في الخارج.

على الرغم من المسئولية الكبيرة التي تحمَّلتها في "حركة تحرير السُّودان" لم أكن راضياً عن أدائي إلى حدٍ بعيد. فعبدالواحد محمد نور رئيس "حركة تحرير السُّودان" لم يشاركني في الكثير من رُؤاي، خاصة حماسي إزاء وحدة كل الحركات المسلحة في دارفور في فصيلٍ واحد، وكذلك كل الحركات المماثلة في السُّودان.

افترقتُ عن "حركة تحرير السُّودان" عام ٢٠٠٦، وبدأتُ علاقة طويلة الأمد مع الحركات الأخرى، وكان لي دورٌ أساسي في إنشاء بعضها. وشملت هذه الحركات: جبهة الخلاص الوطني، حركة تحرير السودان ـ وحدة جوبا، جبهة المقاومة المتحدة، وحركاتٍ أخرى.. إلاَّ أن أياً من هذه الحركات لم تناسبني، وتركتها جميعها في أواخر عام ٢٠٠٨، ولاحقاً تلقيتُ اتصالاً من كبار أعضاء "حركة العدل

والمساواة"، منهم جمال محمد الحسن، أحمد آدم بخيت، هارون عبدالحميد وأحمد تُقُد لسان.

لقد حَمَلت هذه الاتصالات نتيجة إيجابيَّة. ففي يناير ٢٠٠٩، أقمتُ اتصالاً ناجحاً مع رئيس "حركة العدل والمساواة"، وبعدها التحقتُ بالحركة، وأعلن الانتماء للحركة رسمياً في فبراير ٢٠٠٩. وفي أبريل من العام نفسه، عُيِّنتُ في منصب رئيس شئون الرئاسة في الحركة.

ما ينبغي أن يكون عليه الجيش

حقيقة أن محللي شئون الحرب يميلون إلى الإشارة إلى أن النجاح في المعركة يعود إلى عناصر مثل حجم الجيش، والتكتيكات العسكريَّة المتبعة، ونوعيَّة الأسلحة والإستراتيجيَّات الخادعة، وجمع المعلومات الإستخباراتيَّة عن العدو. هذه هي المتطلبات الهامَّة في القتال، ولكن أيا منها غير قادر على أن يحقق لك فوزاً في المعركة. فالعاملُ الأكثر أهميَّة في القتال، هو الجندي المتواضع، والذي يتم تجاهُله تماماً من قِبَلِ هؤلاء المُحللين. فإذا اهتممتَ بالجُندي فسوف تكسب الجولة، وإذا تجاهلته فسوف تخسرها. كل مسألة الحرب بهذه السهولة.

في نواحٍ كثيرة يصبح الجُندي هو الوحدة الأساسيَّة للجيش، وهو أيضاً قائده، وبدونه لا يمكن كسب معركة. التدريب العسكري وحده لا يمنحك جندياً مثالياً. وللقيام بمهمته بشكلٍ كاملٍ يجب أن يكون الجندي مهيأ نفسياً، ومعنوياً، وجسدياً. العلاقة مع الجندي ليست فكرة مشروع ينتهي بالتدريب بعد مرحلة التعيين.. إنه بدلاً من ذلك، مشروعٌ مستمر مدى الحياة، إذ يبقى الجندي نشطاً، ولا بُدَّ من تكثيف الاهتمام به قبل الدخول في أي ساحة للمعركة، وعند مراجعة النتائج.. (انظر أدناه في فصل التدريب).

إننا حين نتحدَّث عن بنية الجيش، يجب أن نعامل الجندي بوصفه نواة للجيش، وكتلة من البناء المحوري. فمن ستة إلى

تسعة من هؤلاء الجنود يُكوِّنون "فرقة". والفرقة هي النواة الأولى فوق الجندي، وهي تشبه مجموعة متماسكة تماماً، مثل الأسرة. يجب على جنود الفرقة أن يكونوا في مستويات عالية من التضامُن الداخلي، وأن يكون كل عضو على استعداد للتضحية بحياته في الدفاع عن باقي أعضاء الفرقة. من الناحية المثالية، تجد لدى الفرقة سيَّارة خاصة بها، ولكن لم يكن لديك دائماً اختيارك. وبالتالي، غالباً ما نضع ثلاث فرق في مركبة واحدة عبر تشكيلة نسميها "الفصيلة" والتي يقودها ضابط برتبة "نقيب"، ومن حيث العدد، تتكوَّن "الفصيلة" من نحو خمسة وعشرين جندياً.

كل ثلاث فصائل تكوِّن "سريَّة"، وعدد أفرادها نحو ٧٥ جندياً ويقودهم "رائد". كما أن ثلاث سرايا تكوِّن "كتيبة" بقيادة "عقيد"، وثلاث كتائب تكوِّن الـ"لواء" بقيادة "عميد" أو أعلى، وثلاثة كتائب تكون "شعبة فرقة"، وأخيراً ثلاث شُعب تكوِّن "فيلق".

فوق ذلك كله، لديك جيشٌ كامل من "حركة العدل والمساواة". لواء لديه قوَّة تتألف من الحد الأدنى من ٥٠ مركبة، ويجب أن يكون المركبات المدفعية اثنين على الأقل، مزوَّدة بـ"سطح – سطح" أو "سطح – جو" من طراز الأسلحة. وعلاوة على ذلك، الـ"لواء" يشمل أيضاً شاحنة إصلاح ميكانيكيَّة مُحمَّلة بالأدوات وقطع الغيار وفريق طبي يصل إلى الأطباء مُؤهَّل الخمسة. كما ذكرنا أعلاه، الـ"فيلق" يتكوَّن من ثلاثة أقسام. ومع ذلك، يتم تقليل "الفيلق" غالباً لشُعبتين عندما تكون المُهمَّة في متناول اليد لا يتطلب مثل هذا الحجم الكبير.

التدريب و إستراتيجية القتال:

تدريب المُجندين الجُدُد يُعهَدُ به إلى شُعبة التدريب في "حركة العدل والمساواة". ويقوم بهذا الأمر أفراد ذوو خبرة واسعة، معظمهم اكتسبوا تجربة التدريب من القوَّات المسلحة

نفسها. وكثيرٌ منهم كان يمارس التدريب العسكري لسنواتٍ قبل أن ينضمَّ إلى الحركة.

في الأيام الأولى من "حركة العدل والمساواة"، شمل التجييش بعض المُجنَّدين الجُدُد الذين ليس لديهم التدريب الرسمي قبل انضمامهم إلى قوَّاتنا. الوضع الآن مختلف جداً، حيث يتم بالفعل تدريب معظم القادمين الجُدُد وبدرجاتٍ متفاوتة من الخبرة القتاليَّة. وكثيرٌ منهم تدرَّب في القوَّات المسلحة أو قوَّات الدفاع الشعبي أو أي مع غيرها من حركات التمرُّد في دارفور، وبعضهم تدرَّب في كُردُفان مع الحركة الشعبيَّة. وعلى الرغم من هذا، فعندما ينضم هؤلاء المجندون إلى "حركة العدل والمساواة" لابُدَّ من تدريبٍ على ما هو مطلوب منهم، أي أن الأمر ليس هو مجرَّد معرفة التعامُل مع البندقيَّة أو الذهاب للقتال.. فالالتزام بالقضيَّة والحركة على وجه الخصوص هو من الأهميَّة القصوى في مجال التدريب داخل الحركة.

التدريب يتيح للمُجندين الجُدُد الاستفادة من تجارب جنود آخرين، ورفع مستوى مهاراتهم، وكذلك معرفة أي نوع من استخدام للأسلحة يتماشى معهم، ولكن قبل كل شيء لا بُدَّ من ممارسة الجندي لما يُعزِّز معنوياته ويرفع روحه القتاليَّة.

عندما نكون في قتال دون انقطاع، يأخذ التدريب ما بين ستة إلى ثمانية أسابيع. المرحلة الأولى من التدريب تركز على تنوير الجندي بمقتضيات مهمَّته الجديدة. وهنا يقوم التدريب على تنوير الجُندي عن السبب وراء القتال، والتضحيات المطلوبة وضرورة الالتزام بالمُوجِّهات، وهذا الأمر يتم للجنود الذين تجاوزوا الاختبارات الأوليَّة بنجاح. فنحن نُدركُ أن بعض المجندين الجُدُد قد أتى بأجندة مُسبَقة، مثل الحصول على المال، أو تسوية نزاع، أو ما إلى ذلك. هؤلاء يجب أن يُعتبروا غير مناسبين لغرض تجنيدهم.

المرحلة الثانية مكرَّسة لاستخدام مختلف أنواع الأسلحة بغرض جعل الجندي بارعاً في استخدام مجموعة متنوِّعة من الأسلحة. التدريب العسكري ينتهي دائماً باختبار الجنود وتصنيفهم وفقاً لطبيعة الأسلحة الأنسب لمهاراتهم. ويرافق أيضاً التدريب اتخاذ تدابير لتحسين مهارات القتال لبعض المُجندين. فبعضٌ من المجندين يأتي إلينا مع خبرة متواضعة في مجال الرعاية الطبيَّة، والإدارة، وجمع المعلومات الإستخباراتيَّة، وحيازة مهارات في ميكانيكا السيارات، أو هناك من هو يملك القدرة فقط على تعليم الجنود الأميين أسُس القراءة والكتابة. كل هذه المهارات هامَّة، وضروريَّة لتعضيد مهنيَّة مميَّزة لجيش "حركة العدل والمساواة".

كما أن القائمين بآمر التدريب في "حركة العدل والمساواة" يولون أهمية كبري للياقة البدنيَّة. ففي جميع مراحل التدريب يمُرُّ الجنود على التدريبات البدنيَّة المرافقة بالأغاني الثوريَّة التي ترفع الروح المعنويَّة. ونحن محظوظون دائماً بأن لدينا أكثر المُجندين الذين يأتون إلينا يملكون مستويات عالية من اللياقة البدنيَّة لسببٍ بسيط، وهو أن معظمهم من الشباب، ويأتون من المناطق الريفيَّة حيث يتطلب البقاء خفة الحركة البدنيَّة.

التدريب والإستراتيجيات القتاليَّة

الاستراتيجيَّات القتاليَّة تتخذ أشكالاً مختلفة، منها حجم الجيوش المعارضة والتضاريس المناخية الموسميَّة، والأسلحة المتاحة لكُلِّ جانب، وكذلك معنويات الجنود. ولضمان النجاح في المعركة، فان الإستراتيجيَّة الموضوعة يجب أن تأخذ في الاعتبار جميع هذه العوامل. كمبدأ أسمى من الحرب في هذه المرحلة، فإنه يجب على القائد أن يقرِّر ما إذا كان القتال الذي يدفع جنوده له دفاعياً أم هجومياً، إذ يتوقف القتال بأكمله على اتخاذ القرار أمام هذين الخيارين.

معارك "حركة العدل والمُساواة" في الغالب هجوميَّة، ولقد اكتسبنا خبرة كبيرة في تحويل الهجمات على قوَّاتنا إلى هجمات ضد الحكومة. وباعتبار أن كل قائد يعرف جيداً أنه يجب أن يخوض المعركة من موقع الهجوم بدلاً عن الدفاع، فهناك خُطوات معيَّنة يجب أن تُتخذ وبطريقة حاسمة:

- **<u>الخطوة الأولى</u>:** ضرورة جمع معلومات دقيقة ومفصَّلة عن العدو. وهذا هو عمل شُعبة الاستخبارات العسكريَّة من الجيش. ويشمل نوع المعلومات التي تُجمَع حجم قوَّة العدو، وتسلحيه، وطبوغرافية ارض المعركة، ومرافق التنقل، والروح المعنوية لجنود العدو. ونحن في كثير من الأحيان نحصل على معلومات دقيقة من وسط معسكر الطرف الآخر، بما في ذلك عدد جنوده.
- **<u>الخطوة الثانية</u>:** هي إعدادُ القوَّة لهزيمة العدو. وفي أكثر الأحيان نواجه عدواً هو بإمكانيات أكبر ومُعدَّات أفضل. ومع ذلك نتمكَّن من التصدِّي لهذه الإمكانيَّات وهزيمة العدو بواسطة مزيج معقد من الأسلحة والتكتيكات، ولكن قبل كل شيء بواسطة جنود يملكون روحاً قتاليَّة استثنائيَّة.
- **<u>الخطوة الثالثة</u>:** هي فترة ما قبل المواجهة، وهي دائماً قصيرة وبالتالي لا بُدَّ من استخدامها بشكلٍ مناسب. وبعد تخطيط سريع مع أفضل جنرالات الجيش يقف قائد العمليَّة على ملف رُتب الجنود، ثم يُعِدَّهُم للمُهمَّة وهُم في قمَّة التزامهم بالقضيَّة، ومتحلون بالشجاعة، والروح القتاليَّة.

قائد العمليَّة دائماً ما يكون واقفاً في مكانٍ مرتفع "منصة المعركة" وأن يكون مرئياً للجميع. القائد أيضاً يجب أن يُحترم، ويبقى صوته مسموعاً ويعطي الجنود التعليمات في غير ما تردُّد. ومن جانبهم يكون الجنود مستعدين لمقابلة حجم العدو بناءً على المعلومات. فالتقليل المتعمَّد لقوَّة العدو، أو المبالغة في تقديرها يأتيان بنتائج عكسيَّة ويجب تجنب

هذين التصوُّرين. وعليه يجب عدم تعريض الجنود إلى خطر اكتشاف عدد أكبر أو أقل للعدو، فمثل هذا التباين يجلب دائماً نتائج سلبية من حيث الروح المعنويَّة وإحداث التميز في ميدان المعركة. وفي هذه المرحلة يجب أن يتم تحديد دور كل فرع من فروع الجيش. فتدخل رجال المدفعيَّة والمدفعيَّة المضادة للطائرات يجب أن يكون واضحاً ومحدداً، مع التوقيت والتنسيق الدقيقين مع القوى الأخرى.

- **الخطوة الرابعة:** تعنى باتخاذ قرار بشأن التشكيل العسكري المناسب للقوة المعدة للاشتباك مع العدو. وغني عن القول، فإن هذا التشكيل يعتمد على موقع العدو ودفاعاته. فإذا كان العدو وراء تل فان هذا هو دور المدفعية لاتخاذ الإجراء المناسب لأنها يمكن ضرب العدو وراء غطاء التل.

وجود خُطة لمخادعة العدو وشغله أمرٌ مهم قبل أن يواجه بهجوم مفاجئ من اتجاهاتٍ أخرى. ففي حالة استخدام تشكيل بشكل الحرف اللاتيني "L" فالقوَّة الضاربة يجب أن تركز على استهداف مركز قوَّة العدو. القوَّات المسلحة السودانيَّة تتحرَّك دائماً في شكل مُربَّع مع تشكيلها الدفاعي في الأجنحة لحماية قلب القوَّة.

أما استخدامنا لتشكيلة "L" فلديها دائماً فعاليَّة في اختراق ساحة العدو. ومع ذلك، فلا بُدَّ من الحرص على عدم اعتراض مُربَّع القوَّات المسلحة من جميع الجوانب. فترك بعض مجال للعدو من أجل الهروب يقلل خسائرك إلى حدٍ كبير جداً، وربَّما يكون حاسماً في تجنب هزيمة غير ضروريَّة لجيشك.

- **الخطوة الخامسة:** تتعلق باللحظات الحرجة عندما تشتد المعركة. فدورُ كبار القادة في هذه المرحلة هو قراءة ساحة

المعركة وتنبيه جنودهم إلى مصادر الطاقة الفعالة للعدو لتحييدها فوراً.

- **<u>الخطوة السادسة:</u>** لتأمين ميدان المعركة بعد هزيمة العدو.. هذه المرحلة محفوفة بالمخاطر، ويجب أن تعالج بحذر بالغ. فبينما يحتفل الجميع، ويهتم الباحثون في أرض المعركة عن الأصدقاء المفقودين، يتحرَّك جنود العدو اليائسين والذين هُم إما مختبئون أو مصابون، ولذلك ربَّما يُصوِّبون نحو القوى المنتصرة. إن جنود العدو المحتضرين على وجه الخصوص لا يملكون شيئاً حتى يخسروه. ولذلك ربَّما يغتنمون هذه الفرصة لإلحاق أقصى الضرر.

إذا كان هناك أي دور للمُشاة في قوَّة "حركة العدل والمساواة"، وهذا هو ما عليه الواقع فإنهم ينتشرون حول ساحة المعركة ويفتشون المنطقة بعناية فائقة بدعم من عربات مدرَّعة. بالطبع، فإن الموتى والجرحى يكونون من الجانبين في هذه المرحلة من المعركة ولذلك يتم الاهتمام بهم.

عند نهاية البحث حول أرض المعركة المنقضية يمارس القادة المساعدون تقييمهم للمكاسب والخسائر والموتى والجرحى ثم يرفعون الأمر إلى قائد المعركة، والذي بدوره يمرِّر هذه المعلومات إلى جنوده وكذلك رُؤسائه. هذا هو بالطبع سيناريو معركة بتوقعات سعيدة النهاية، وهذا هو حلم كل قائد لعمليَّة حربيَّة. بيد أن التعرُّض إلى خيبة أمل ممكن، وليس كل أمر يتعلق بقتال يفرز نجاحاً. لذلك يجب أن يكون قائد العمليَّة مستعداً لسوء الحظ في هذه الظروف.

إن أمر الانسحاب حقٌّ خالص لقائد العمليَّة فقط، فهو وحده المسئول عن تقييم ظروفه. ويتم الانسحاب عبر علاماتٍ وإشاراتٍ مميَّزة، مثل استخدام القنابل اليدوية بطرُقٍ مميَّزة لمنع إساءة استخدامها بواسطة العدو. وحين تأتي إشارة انسحاب منظم، يقوم قائد العملية بتطبيق الانسحاب.

في الواقع أن كل قتال يتطلب وجود موقع للتراجُع ويدركه جميع الجنود. إن موقع التراجُع يجب أن يتوافق مع المواصفات على أن يحرس بواسطة الجيش الاحتياطي. أيضاً يجب أن يكون الموقع بعيداً عن ساحة المعركة، وسهلُ الوصول إليه ويكون الدفاع عنه متيسراً. وعلاوة على ذلك، يجب أن يتم توفير الطعام والماء، وهذا الأخير له أهميَّة خاصة في تضاريس صحراء السُّودان.

- **الخطوة السابعة:** تكون بعد المعركة، وفيها تتم مراجعة شاملة للعملية برُمَّتها وتقييمها عسكرياً، وكذلك تقييم العواقب السياسيَّة للمعركة. وبعد أن يتم كل هذا يصدر قرار لاحق بشأن الإعلان عن نتيجة المعركة إلى الجمهور وإحاطة رئيس "حركة العدل والمساواة" بالكامل.

إن "حركة العدل والمساواة" تشتهر بمهاجمة خصومها بينما قوَّاتها في حالة تحرُّك. وفي هذا المجال حققت حركة العدل والمُساواة نجاحات معتبرة والتاريخ القتالي للحركة يقف شاهداً على هذه النجاحات. وجديرٌ ذكره أن القوَّات المسلحة قبل شنِّ المعارك تسير في نمط تقليدي، مثل كل الجيوش الحديثة. ويجب أن أضيف أنه ليس هناك خطأ في هذا الأسلوب العسكري، فهو إنما يُدرَّس في معظم الأكاديميَّات العسكريَّة.

هذا النمط التقليدي يتطلب أربع إجراءات: **(١)** أخذ الموقف الدفاعي، **(٢)** إطلاق سراح نيران المدفعية، ثم **(٣)** الدفع نحو الأمام، وأخيراً **(٤)** الاشتباك. في معظم الحالات، رأس الحربة في هذا النمط هُم جنود المُشاة، الذين يتقدَّمون ثم يهاجمون وهُم في الطريق إلى الأمام من موقع المدفعيَّة الثقيلة.

عندما نقترب من مثل هذا العدو، لا نطلق النار رداً على تحرُّكاته في المرحلتين الأولى والثانية (الموقف الدفاعي ونيران المدفعيَّة). بدلاً من ذلك، نحن نتحرَّك في سرعة لنبقى تحت منحنى من قذائف مدفعيتهم.

عندما يُغيِّر العدو خُطته في المرحلة الثالثة والرابعة، مدفوعين ومهاجمين، نواجههم بأقصى سرعة ممكنة، موجِّهين نحوهم وابلاً من النيران. وابتداءً من هذه اللحظة، يظل العدو واقعاً تحت نيراننا. وقبل أن يبدأ العدو إعادة تحميل المدفعيَّة الثانية، نكون بالفعل بعيدين عنها بأمتار، بينما سيَّاراتنا تصبح قاتلة مثل رصاصاتنا. فالعمليَّة كلها تستغرق دقائق، ثم يتم تأمين ساحة المعركة بعد ذلك عن طريق مطاردة مركبات جنود العدو الفارين، وقد يستغرق الأمر وقتاً طويلاً في هذه المطاردة.

أثناء إدارتنا لمعركتنا مع العدو نكون بالطبع في حاجة إلى ضبط خُططنا وفقاً لانتشار قوَّات العدو وتشكيلاته. ولحُسن الحظ، فإن تشكيلات القوَّات المسلحة السودانيَّة التي تتخذها محدودة. في الأراضي الـ"آمنة"، فإن القوَّات المسلحة تتحرَّك في ملفٍ واحد ولكن مصطلح "آمنة" يعتمد على حُكم قادتهم.

عندما يخطئون في هذا التقدير، كما يفعلون في كثير من الأحيان، يمكننا بسهولة مهاجمتهم من جانبين. الخيار الثاني، هو أنهم يعتمدون تشكيلة المُربَّع. نحن تحدثنا عن هذا من قبل ولكن دائماً يكون المُربَّع عرضة لهجمات تشكيلة "L" الذي نعتمده. وحتى الآن أن "حركة العدل والمساواة" ناجحة جداً في استخدامها تشكيلة "L" لاقتحام مُربَّعات العدو.

التشكيلة الثالثة، هو الوضع الدائري ويُسمَّى محلياً "مزحة"، وكثيراً يناسب هذا التشكيل حين يكون الجيش في موقف دفاعي ثابت. ونحن في بعض الأحيان نستخدم هذه الإستراتيجيَّة أيضاً. وعندما قُمتُ بزيارتنا يا بروف للمشاركة في اجتماع المجلس التنفيذي في عام ٢٠٠٩، كنتَ أنتَ وأعضاء المجلس الآخرون في مأمن بسبب تشكيلة "مزحة" في قُطرٍ لا يتجاوز نحو أربعين كيلومتراً.

تشكيلة "مزحة" أقل عمليَّة عندما يكون الجيش متحرِّكاً، وبالتالي يكون أكثر عرضة لهجوم تشكيلة "L". لهذا السبب، نستخدم تشكيلة "مزحة" فقط عندما يكون الجيش في وضع ثابت، أو في تحرُّك قصير الأمد، أو خاصة عندما يتم حماية أفراد مهمين، مثل أسرى الحرب والجنود المُصابين، أو كبار القادة المجتمعين في وسط تشكيلة "مزحة".

القائد عامر أليكا كوكو

وصف وسائل الإعلام الحالي للحركة بأنها "دارفوريَّة" غير صحيح. فالحركة وُلِدَت لتكون حركة وطنيَّة ممثلة لمصالح المُهمَّشين السُّودانيين. وعلى هذا النحو، جاء مؤسِّسو الحركة من كل رُكنٍ من أركان البلاد. فالقائد "كوكو" هو واحدٌ من أولئك الأعضاء الذين انضموا إلى الحركة منذ وقتٍ مُبكِّر. إنه يتحدَّر من جبال النوبة.

قصة القائد "كوكو" تقدِّم مثالاً جيداً لطبيعة السُّودان الثيكروقراطي، وهي الحالة التي يتأسَّس فيها النظام السياسي لبلدٍ ما على مخاوف أمنيَّة من الحكومة. في النظام الثيكروقراطي، وهو مصطلح استعيره من الدكتور حيدر إبراهيم، توظف نسبة كبيرة من موارد البلد، بما في ذلك القوى العاملة لأمن جهاز الدولة، وذلك على حساب قطاعات أخرى، مثل: التعليم، الصحة، الإسكان والبنية التحتيَّة.

تخرَّج القائد "كوكو" كمهندس زراعي، ومؤهِّلاته تتسق للغاية مع بلدٍ يرتبط اسمه تقريباً بالجوع. لكن، كما سنرى لاحقاً، على الرغم من مؤهِّلاته فإن القائد "كوكو" أعيد تدريبه على العمل كضابط أمن. بعد تخرُّجه من الجامعة التحق بالأمن الوطني السوداني، ورُقي إلى رتبة "نقيب" حتى فُصِلَ من عمله لأسبابٍ سياسيَّة. في عمله ارتبط القائد "كوكو" بالجيش. سيرته العسكريَّة، بما في ذلك أنشطة الحركة، تشمل القتال في ٥٥ معركة، والمشاركة في محاولتين لإسقاط الحكومة، والسجن

لأكثر من أربع سنوات، فوقاً عن تعرُّضه إلى إصابة خطيرة. في هذه اللحظة، بالإضافة إلى عمله في مخابرات الحركة، يحمل القائد "كوكو" أيضاً منصب الأمين العام لجنوب كُردُفان. وهو أيضا المسئول عن وحدة تدريب مباحث أمن الحركة. في الفقرات التالية أترككُم مع القائد "كوكو" ليتكلم عن نفسه وعن حياته وخبراته مع الحركة.

اسمي "عامر أليكا كوكو النور". لقد وُلِدتُ في جبال النوبة تقريباً في عام ١٩٦٧. وتُسمَّى قريتي "ستة جبال"، وهي تقع على بعد بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من مدينة "الدلنج" في جنوب كُردُفان. أنتمي إلى النوبة "أجانج"، وعلى وجه الخصوص ننتسب إلى بيت يُسمَّى "كادارو". كان والدي، ولا يزال عاملاً، في قطاع السكك الحديديَّة. عمله دائماً كان مرتبطاً بالتنقلات. قبل أن أصل إلى السابعة من عمري، كان علينا أن نتحرَّك إلى مدينة الحصاحيصا، وهناك قضيتُ معظم سنواتي الأولى من الدراسة، وعلى الرغم من أن الفترة كانت وجيزة، نقل والدي إلى عطبرة. وفي الحصاحيصا أكملتُ تعليمي ما قبل الجامعي، وبعد ذلك ذهبتُ إلى جامعة السُّودان حيث درستُ الهندسة الزراعيَّة وتخرَّجتُ في عام ١٩٩٢.

طوال تلك السنوات، لم أكن أفقد الاتصال بأهلنا في جبال النوبة. وعندما كنتُ صغيراً، كنا نقوم بزيارة منطقة النوبة مع عائلتي. واصلتُ فعل الشيء نفسه عندما كبرتُ، وكنتُ قادراً على السفر بمفردي، مثلما أن أهلنا النوبة كانوا يزوروننا في الحصاحيصا أيضاً.

رغم أن شعبنا في جبال النوبة معروف دائماً بالسلام، إلاَّ أننا في كل مرَّة نذهب إلى هناك نشاهد تدمير المنطقة، واختفاء ـ ليس فقط ثقافتنا ـ ولكن الناس أيضاً، والذين أصبحوا معتادين على المذابح والنفي من المنطقة. كانت الفظائع التي ارتكبتها حكومات الخرطوم ضد شعب النوبة لا تقل بشاعة عمَّا حدث

لشعب جنوب السُّودان. مأزق الجنوبيين وشعب النوبة جذب تعاطفاً عالمياً كبيراً، ولكن كانت النتائج متباينة. الجنوبيون حصلوا الآن على بلدهم، وسيطروا على مصيرهم، ولكن لم تحدُث نهاية لما يعانيه شعب النوبة من حروباتٍ وأزمات.

هناك بالطبع كثير من النوبة يعملون لحساب القوَّات المسلحة السودانيَّة، ولكن استطيع أن أقول لكم بصراحة تامة إنهم يقاتلون من أجل حكومة الخرطوم لأنهم لا يملكون خياراً مفضلاً آخر. النوبة تحمَّلوا القمع المُروِّع على أيدي القوَّات المسلحة السودانيَّة. وجيش الخرطوم وميليشياته المتحالفة معه لم تتوان في بذل القتل، وحرق القرى، وحتى استعباد النوبة. لم يكُن هناك رجلٌ واحد أو امرأة من النوبة لا يمكنه، أو يمكنها سرد حكايات العشرات والعشرات من أقاربه، أو أقاربها، الذين قُتلوا على أيدي القوَّات الحكوميَّة أثناء حياته أو حياتها الخاصة.

على الرغم من هذا، انتهى بي المطاف إلى العمل مع القوَّات المسلحة وهي نفس القوَّة التي كادت أن تصيب أهلي بالانقراض.

خياري لدراسة الزراعة لم يأت من فراغ. فأهلي يعتمدون على الزراعة، وفي الحصاحيصا حيثُ ترعرعتُ كانت الجزيرة محاطة بمشروعها الضخم. ولذلك فمن الطبيعي بالنسبة لي الاتجاه إلى الزراعة كحقلٍ للدراسة. في عام ١٩٩٢ تخرَّجتُ مهندساً زراعياً، وكنت آملُ في العمل في مشروع الجزيرة حيث ترعرعتُ، ولكن طموحي انهار، ببساطة نسبة لواقع النظام السُّوداني.

الحصول على وظيفة بالنسبة لأهلي النوبة كان يتمثل فقط في القيام ببعض الأعمال الوضيعة، ولكن للحصول على وظيفة مقدَّرة، كأن تكون مهندساً فالأمر مختلف تماماً. بل كان بكل بساطة من المستحيل، إذ يحتاج المرء إلى وجود علاقة

قويَّة أو واسطة للحصول على منصب رفيع. فصبيٌ مثلي من النوبة لم يُقدَّر له أن يجد من الأقرباء من ذوي النفوذ.

بعد ثلاث سنوات محبطة من البطالة، وضعتُ شهادتي الجامعية جانباً. وفي عام ١٩٩٠ صارت صناعة الحرب في السُّودان تجلب أكبر قطاع للعمالة في البلاد، ولذلك كان عليَّ أن أكون جزءٌ من هذه العمالة. كانت الحرب الأهليَّة تجري على قدم وساق في الجنوب وكان الوضع غير مستقر في أجزاء أخرى من السودان أيضاً. الحكومة الجديدة نسبياً لم تكن واثقة إزاء استقرارها، ولذلك كان لا بُدَّ من توسيع نظام استخباراتها، وهناك وجدتُ فرصة العمل.

في عام ١٩٩٥، انضممتُ إلى شُعبة الأمن في القوَّات المسلحة دون أن أحظي بتدريبٍ مناسب. واضطررتُ إلى إعادة تدريبي من قبل رؤسائي. ولحُسن الحظ تمَّ منح ما يُسمَّى "الأمن القومي" أولويَّة قصوى، ولم يكُن هناك أي نقص في الأموال اللازمة لتدريب أفراد أمن جُدُد مثلي. وفي غضون بضع سنوات، شاركتُ في عدد من الدورات التدريبيَّة التالية:

١- أساسيَّات العمل الاستخباراتي، في معهد الاستخبارات الوطني بالخرطوم، لمدى ثمانية أسابيع.
٢- استجواب الاستخبارات، معهد الاستخبارات الوطني، الخرطوم، ثمانية أسابيع.
٣- مكافحة الإرهاب، القيادة العامة، الخرطوم ومركز التدريب على القتال، أم درمان، والتدريبات التي يقدِّمها الخُبراء الإيرانيين، لمدى عشرة أسابيع.
٤- الجوانب القانونيَّة لدستور السُّودان، الخرطوم، لمدى ثمانية أسابيع.
٥- الاستخبارات المركزيَّة، أكاديميَّة الأمير نايف لعلوم الاستخبارات، المملكة العربيَّة السعوديَّة، اثني عشر أسبوعاً.

٦- استخدام الأسلحة الخفيفة والثقيلة، خمس دورات تدريبيَّة على مدى بضع سنوات في الخرطوم وما حولها.

تلك التدريبات والدورات أدَّت إلى ارتفاعٍ مطرد في مستوى عملي، كما أدت كذلك إلى ترقيتي لرتبة "ملازم" في وقتٍ قصير جداً. عملي في الجانب الأمني للقوَّات المسلحة ترتب علي المشاركة في القتال. على الرغم من أنني حاربتُ العديد من المعارك مع القوَّات المسلحة السودانيَّة، إلا أنني غِبتُ عن الكثير منها. طبيعة عملي هي جمع المعلومات الاستخباراتيَّة، ولذلك كنتُ حاضراً في وسط ساحة المعارك أكثر من عملي حولها. لم يكُن ذلك حالة سيئة نظراً للأداء الأسوأ للقوَّات المسلحة السودانية في القتال.

انضممتُ إلى الإخوان المسلمين في منتصف المرحلة المتوسِّطة، ولكنني أصبحت أكثر نشاطاً خلال سنوات دراستي الجامعيَّة. مثل كثير من الشباب، لم يأخذ مني الأمر وقتاً طويلاً حتى أعيد النظر في انتمائي إلى الحركة الإسلاميَّة. ففي منطقة النوبة لم يسع الإسلاميون إلى رفع كاهل الظلم عن الأهل، كما هو حال الأحزاب السياسية التقليديَّة الأخرى. ولكن كان أكبر تغيير في توجُّهي السياسي لم يأت بعد.

التجربة المريرة في دارفور:

في عام ٢٠٠١، تمَّ نقلي إلى شمال دارفور حيث عملت مديراً لوحدة أمن "كبكابيَّة". هناك شاهدتُ عدَّة محاولات لإبادة مجموعات عرقيَّة معيَّنة، أي أولئك الذين تمَّ تصنيفهم من غير العرب. طبيعة عملي لا بُدَّ أن تعرِّضني إلى أنواع معيَّنة من المعلومات التي كانت مخفيَّة نوعاً ما عن الجمهور، وكنتُ مقتنعاً أن الحكومة كانت وراء الصراعات بين الجماعات العربيَّة وجيرانهم من غير العرب. فالمحافظ عبدالله صافي النور منح زعيم "الجنجويد" موسى هلال الأموال والسلاح، والذي عُيِّن في وقتٍ لاحق مستشاراً للرئيس البشير.

بوصفي مسئولاً أمنياً كبيراً في هذه المنطقة النائية، اتبعتُ تلك الإجراءات مع خوفٍ مُطلق، ولكن لم أكُن أملك رأياً في هذا الموضوع. هلال وميليشياته دمَّروا المنطقة، وقتلوا المدنيين الأبرياء، وحرقوا قُراهم، وكان هناك القليل الذي يمكن القيام به. الحاكم نفسه وجهازه الحكومي بأكمله أيَّد ما كان واضحاً ضدَّ قوانين الأرض.

نحنُ في عملنا شهدنا كل ذلك وكُنا طرفاً في بعض الأحيان.. تعاظمت وحشية النظام، ولذلك صار من الصَّعب جداً بالنسبة لي مواصلة العمل. فبعد تكرار ما قد حدث لأهلي النوبة في كُردُفان، رأيتُ أنني لا يمكن أن أقبل بالوضع هناك.

في نفس الوقت تقريباً، أي عام ٢٠٠٢، التقيتُ القائد "أبوبكر حامد"، الأمين الحالي للحركة. وحتى ذلك الوقت، لم أكن قد سمعتُ بالحركة على الإطلاق. القائد أبوبكر تناقش معي حول واقع البلد وضرورة الكفاح المسلح بوصفه السبيل الوحيد القابل للتطبيق من أجل التغيير.

حسناً، يجب أن أقول إنه من الصَّعب لشخصٍ من دارفور أن يُلقي محاضرة لأهلي النوبة عن قهر وظلم حكومة الخُرطوم. فنحن النوبة دائماً نُعاملُ بخلفيَّة مواطنين من الدرجة الثانية، وكانت العدالة واحدة من الاستحقاقات التي لم ننلها. وفقدنا الأمل في أي تغيير، وقبلنا هذا الوضع الكئيب.

على كل حال، أقنعني القائد أبوبكر حامد بأهميَّة المقاومة وفتح ذهني في هذا الأمر. ولم يستغرق وقتاً طويلاً لإقناعي بأن للحركة رؤية يمكن أن تستوعب كل السُّودانيين وكل جزء من البلاد، بما في ذلك النوبة. انضممتُ على الفور إلى الحركة وواصلتُ إجراء الاتصالات السريَّة مع الآخرين الذين يتعاطفون مع قضيَّة دارفور. ولكن لسوء الحظ، أصبحتُ مشبوهاً لدى السُّلطات بعد توجُّهي الجديد، ولذلك فقدتُ وظيفتي.

إسقاط حكومة الخرطوم

بعد أن فقدتُ وظيفتي، انتقلتُ إلى الخرطوم وحاولتُ كسب قوت يومي من خلال العثور على وظيفة باستخدام شهادتي الجامعيَّة. ولكن الحكومة كانت تسيطر على معظم المشاريع الزراعيَّة، وبالتالي كان من الصعبٌ عليَّ الحصول على فرص للعمل دون تصريح من مكتب الأمن. وكان اسمي بالفعل موضوعاً في "القائمة السوداء"، وذلك يعني أنني غير صالح للعمل في القطاع العام.

واصلتُ عملي السرِّي والتقيتُ بعددٍ من المنضمين للحركة، منهم أحمد آدم بخيت وعبدالعزيز عُشر، الذي ما يزال حينذاك قابعاً في سجن كوبر. في الخرطوم، ونظراً لانتمائي إلى الجيش، تمَّ تكليفي بتجنيد أعضاء من القوَّات المسلحة السودانيَّة للحركة. وكان ذلك بعد مؤتمر ألمانيا في عام ٢٠٠٢، إذ هناك تمَّ تدشين الحركة رسمياً. أحد العوامل التي كانت في صالحي هي أن انتمائي إلى جبال النوبة أبعدني من دائرة المراقبة الأمنيَّة. ذلك لأنهم يُصنفون الحركة بأنها حركة دارفوريَّة، ولأنني من منطقة مختلفة، بقيتُ خارج قائمة المشتبه فيهم حين يدور محور عملهم لضبط المنتمين للحركة.

كما تعلمون، فإن الحركة اتبعت استراتيجيَّات متعدِّدة للإطاحة بالحكومة بالوسائل التقليديَّة، مثل الانقلاب، بالإضافة إلى خوضها الكفاح المسلح. وكان يطلق على ذلك المسعى سياسة "الحل الداخلي"، أي التحرُّك من داخل العاصمة. وأوَّل محاولة في هذا الخصوص تمَّت في أبريل ٢٠٠٤ بقيادة القائد "صندل"، وهو القائد السابق لجيش الحركة. ونظراً لمعرفتي المهنيَّة كُنتُ مهتماً بتشكيل خلايا سريَّة وسط ضُبَّاط الجيش الحكومي، بما في ذلك الضُبَّاط المتقاعدين. للأسف، فقد تمَّ إحباط المحاولة وألقي القبض على العديد من زملائي. وبأعجوبة لم يُلق القبض عليَّ، واعتقدتُ أن انتمائي للنوبة قد ساعدني. ولقد رفض المقبوض عليهم بشجاعة الكشف عن

الأعضاء المشاركين في محاولة الانقلاب، رغم التعذيب المروِّع المُعتاد الذي يصاحب مثل هذه الاستجوابات فيما يُسمَّى "بيوت الأشباح"، أو "أبو غريب" كما هو معروف.

في غضون أسابيع، تلقينا تعليماتٍ من قيادة الحركة لبدء التخطيط للمحاولة الثانية. ووفقاً لتقديراتنا أعطينا الخطة الجديدة فرصة ٩٠٪ من النجاح، ولكن كنا نظن أن حدوث خطأ طفيف سيترتب عليه ما لا يُحمَد عُقباه. وأخيراً فشلنا وتمَّ اعتقالي. زُجَّ بنا في غرف التعذيب المعتادة التي أنشأتها الحكومة قبل أن يتم نقلنا إلى سجن "كوبر"، ومن ثمَّ تقديمنا للمحاكمة. ولفرحتنا تمكن القائد بخيت من الخروج من المخطط حراً. فمحاميه عمل بامتياز في المحكمة وأعلنت براءته. لم أكن محظوظاً جداً في المحكمة وتمَّت إدانتي بحسب أنني خططت للقيام بمؤامرة ضد الحكومة، كما أعلنت وسائل إعلامها وقتها، وبالتالي سُجنتُ لمدة أربع سنوات، وأرسلتُ إلى سجن "كوبر" لقضاء العقوبة.

السجن عموماً ليس بالشيء المقيت. ولقد سُمح لي بعددٍ محدود من الزُوَّار، ولكن الأهم من ذلك سُمِحَ لي أيضاً بالقراءة وتبادل وجهات النظر مع غيري من السُجناء السياسيين والمعتقلين. وهناك كنتُ قادراً على قراءة العديد من الكتب التي قُدِّمت لي من قِبَلِ الشيوعيين والبعثيين المُعتقلين. ولقد أدهشني بالفعل أن لدينا الكثير من القواسم المشتركة، على الرغم من أننا قبلاً كنا نتعامل كأيديولوجيين متنافسين. وكان الشيء الوحيد المتاح في السجن وفرة الوقت، ولقد استخدمتها للتأمُّل والقراءة ومناقشة سجناء آخرين. ولقد أكد لي السجن ببساطة صحَّة آراء الحركة، إذ لا يمكن إدارة دولة مثل السُّودان باستخدام الدين، أياً كان نوعه. إذا قمت بذلك، فإن الدين ببساطة سيتعارض مع الحريَّات الشخصيَّة. يجب أن يبقى الدين بعيداً عن السياسة. هذه هي الحقائق التي لم نُدركها في الحركة الإسلاميَّة. أما وقد قلتُ ذلك، فإنني فخورٌ بديني، وسوف أعمل بكل جهدي على ألاَّ يستغله السياسيون لأغراضهم الخاصة.

في الوقت الذي انتهت فيه فترة عقوبتي، غزت الحركة العاصمة وجُنَّ جنون الحكومة في البحث عن أي نشطاء سياسيين من خارج المنطقة المُفضَّلة لهم: نهر النيل.. حسب قوانينهم، فقد قضيتُ عقوبتي التي كانت أربع سنوات، وكان من المقرَّر إطلاق سراحي. حسناً، لم يكن هناك حدٌّ لبراعة نظام البشير في نقض دستوره، فالالتزام بالقانون عندهم أمرٌ معيب. خرجتُ من السجن من خلال بابٍ واحد وجئتُ مرَّة أخرى عن طريق آخر.. كانوا يعرفون أنني لم أكن جزء من فكرة غزو أمدرمان لأنني كنتُ في السجن عندما وقعت الحادثة. آنذاك تبقى لي شهران لإكمال العقوبة، ولكن لمن يمكن إلقاء اللوم؟! وأخيراً سمحوا لي بالخروج في أغسطس ٢٠٠٨، وخلال شهرين كنتُ في الميدان مع الحركة، مستعداً لاستئناف عملي ضدَّهم.

جوهر فنيات جيش الحركة

بدأتُ تجربتي في الحرب مع القوَّات المسلحة السودانيَّة في الجنوب عام ١٩٩٢. حاربتُ في عددٍ من المعارك هناك، وأصبتُ إصابة بالغة في يدي في منطقة "سندرو"، وهي تقع في الطريق المُؤدِّي من جوبا إلى نيمولي. كان ذلك فصلاً في حياتي أتطلع إلى تذكُّره بندم كبير، وسوف لن أنساه. لم أكن متطوِّعاً آنذاك للذهاب إلى هناك، ولكن تمَّ نقلي للحرب، فعندما تعمل لجيش نظامي فلا عاصم لديك إلا تنفيذ الأوامر.

القوَّات المسلحة السودانيَّة علمتني بالتأكيد الكثير من نظريات الحرب. ومع ذلك، فإن أي خبرة حصلتُ عليها من القوَّات المسلحة لا تكاد تساوي شيئاً مقارنة مع ما تعلمته في الحركة. وأود أن أقول إن أكثر من ٧٥٪ من تجربة القتال تحصلتُ عليها من الحركة. تخيَّل أنني كنتُ ضابطاً في الجيش لمدة ثماني سنوات، وقد شاركتُ في نحو خمس عشر معركة فقط، وبعضها لا تعدو كونها مناوشات حربيَّة خفيفة.

أما مع الحركة، فقد شاركتُ في ٣٧ معركة كُبرى بين منتصف عام ٢٠٠٧ و٢٠١٠، بالإضافة إلى العديد من المعارك الصغرى. تفوَّقنا على القوَّات المسلحة السودانيَّة أمر واضح تماماً، والحكومة تعرف ذلك. ففي جميع المعارك التي خُضتُها مع الحركة فقدنا ثلاث منها، ولا استطيع القول إننا هُزمنا فيها. فقط فشلنا في تحقيق الأهداف المتوخاة كما هو مخطط لها، ولم يكُن أمامنا آنذاك إلاَّ الانسحاب. ويرجع ذلك التفوُّق أساساً إلى قوَّة الإرادة القتاليَّة لجنودنا، وما يملكون من أداء متميِّز.

جندي الحركة يحارب بسبب أنه يعتقد بشكلٍ راسخ في قضيَّته. وهو أحد المتطوِّعين، إذ يذهب إلى الحرب للفوز، أو ليكون شهيداً، ويرى خسارته في معركة أمراً مهيناً وصعباً قبوله. قارن ذلك بجندي القوَّات المسلحة. إنه ينضم إلى الجيش لكسب لقمة العيش وتحقيق مجد الانتصار في معركة هو آخر شيء يبقى في ذهنه. على هذا النحو، فجنود القوَّات المسلحة يسعون إلى البقاء على قيد الحياة، وليس من الضروري فوزهم في معركة، وهذا هو الأمر المنطقي. فلماذا يجب أن يموتوا في حرب لم يشاركوا في سببها؟!

جنود القوَّات المسلحة غالباً ما يطلب منهم خوض ساحة المعركة بالقوَّة. أما أمر جنود الحركة فيختلف.. فهُم يتطوَّعون لدخول ساحة المعركة بعد استيائهم من وضعهم في وحدة الاحتياطي وراء الزملاء المقاتلين. ليس هناك شكٌ في أن الروح المعنوية العالية لجنود الحركة هي وراء أدائهم الممتاز في الحرب، ولكن ينبغي ألا نستبعد العوامل الأخرى مثل تكتيكات القتال، والتدريب، والانضباط المتفوق.

نحن في الحركة حذرين جداً حول التجنيد في الجيش، فالحرب لديها القدرة على جذب الناس بأجندات مختلفة. بعضهم يريد الانضمام إلى الجيش ليقاتل من أجل الحصول على بندقيَّة،

وآخر يسعى إلى ثروة، وآخر لإظهار الشجاعة، وهناك من يريد الانتقام لبعض المظالم الشخصيَّة أو لمجرَّد الهروب من الملل من عدم وجود أي شيء آخر يمكن القيام به. عدونا أيضاً بيأسٍ يزرع عملاءه، وبالتالي علينا أن نكون حذرين بشأن من يستحق دخول المنزل.

عندما يقترب منا أحد المتطوِّعين يتعرَّض على الفور لفحصٍ أمني دقيق. لحُسن الحظ جميع المتطوِّعين تقريباً يترتب وصولهم إلينا من خلال بعض من جنودنا، ونحن بالكاد نجد وافداً جديداً دون أن يملك أحد الأقارب أو زميلاً معنا. يمر المتطوِّع قبل تجنيده بالاستخبارات، ويتم نقله إلى وحدة التوجيه حتى يتعلم أهداف الحركة، وقواعد الاشتباك، والمخاطر التي تنطوي عليها الحرب والالتزام في هذا الشأن.

بعد عملية التوجيه الناجحة، يلحق المتطوِّعون مع فرقتهم التي تبقى مثل عائلة متماسكة من ستة إلى عشرة جنود تحت قيادة عريف. هناك يتعلم المتطوِّع أساسيات الحياة جندياً للحركة في انتظار التدريب الرسمي. مع تشكيلة الفرقة يتعلم المُجنَّد الجديد كيفيَّة تنظيف بندقيَّته وبعض الأعمال المتصلة بمصلحة الجماعة. بالإضافة إلى ذلك، يفترض فيه تقاسم المسئوليات الدنيويَّة، مثل تمويه شكل الشاحنة، وجمع المياه، والحطب، وإعداد الطبيخ. التدريب الرسمي للمجندين الجُدُد يأتي في وقتٍ لاحق، وفقط بعد جمع عدد كبير من الجنود الجُدُد لجعل ممارستهم للتدريب أمراً كثير الفائدة. التدريب يستغرق شهراً واحداً على الأقل، ويركز على التعامُل مع الرشاشات الثقيلة وبعض المهام. لحسن الحظ أن العديد من المتطوِّعين يأتون وهُم متدرِّبون بشكلٍ جيِّد، ويبقى فقط تركيز التدريب على التعامُل مع الأسلحة التي لم يتعاملوا معها من قبل.

فرقة "العربة" هي جوهر وقلب محاربتنا. بعد أسابيع من تقاسُم قصص الحياة مع أعضاء الفرقة، يُطوِّر الجندي علاقة

قوية مع عائلته الجديدة. فضلاً عن ذلك، فهو أيضاً يُطوِّر حالة نفسيَّة للالتزام نحو الأعضاء الآخرين من الفرقة، وبمثل هذه الطريقة فأنه لن يتردَّد في التضحية بحياته من أجل حمايتهم.

ليس لدينا مُشاة على هذا النحو المعروف، وربَّما تصفنا هنا بأننا ندير حرب عصابات بصور فوقيَّة. يمكنني استخدام مصطلح فضفاض لأن جيش حرب العصابات هو عادة أصغر حجماً ويعتمد على نصب كمائن للعدو الأكبر حجماً. هذا النهج لا يتوافق مع طبيعة الحركة، والتي تملك جيشاً كبيراً ومنظماً بشكلٍ جيِّد، ويخوض جنودها معاركهم ورؤوسهم مرفوعة. نحن لا نكمُن ثم نختفي. بدلاً من ذلك، فعقيدتنا هي أن نهزم عدونا ونستولي على كل ما لديه واحتلال ساحة المعركة الخاصة به. هذه هي الطريقة التي يمكننا بها الحصول على سيارات الفرقة في المقام الأول.

هناك وصفٌ هزلي لسيارة الفرقة، ونسميها "المركوب". مصطلحٌ وصفي باقتدار. فالسيارة المُنفصمة تتيح للجندي رؤية بانوراميَّة لمحيطه، وبذلك يستطيع الاستدارة ليطلق النار على كل هدف يقع محيطه.

في المعركة لا نستخدم خُطة المُربَّع التقليديَّة التي تستخدمها القوَّات المسلحة. بدلاً من ذلك، فنحن نواجه العدو بما نسميها بعملية "فتح" وتكون سياراتنا منتشرة في شكل الهلال بقوَّتها الهجوميَّة البارعة. عمليَّة "الفتح" مهمَّة جداً ودائماً منسَّقة بشكلٍ جيِّد. إذا كانت السيارات مباشرة أمامك تتحرَّك إلى اليمين، ويمكنك الانتقال إلى اليسار، والعكس صحيح. الالتزام المتزمِّت بقواعد التشكيل له بالغ الأهميَّة لأنه يمنع تحطم الشاحنات، ويجنبك النيران الصديقة في حين يضمن تكثيف قوَّة النيران الكاملة. الهدف من الهجوم هو الوصول إلى وسط ميدان العدو. بمجرَّد كسر مُربَّع العدو فإن اللعبة تكون قد انتهت بالنسبة لهُم.

معارك الحركة تنقضي في أقل من نصف ساعة. وهناك حاجة إلى مزيد من ساعة أو ساعتين لتأمين منطقة المعركة، والأهم من ذلك مطاردة الفارين من مركبات العدو. الحركة تسند نفسها من خلال ما تستولي عليه في معاركها وهي تواصل في جولة لمتابعة الجنود الفارين بحيث أن تحيِّدهم أو تسلبهم إمداداتهم، ولا سيَّما المركبات العسكريَّة. وغنيٌ عن القول إنه في معركة "أم سعونا" التي حدثت في مايو ٢٠٠٥، استولينا على ١٧ مركبة محمَّلة بالأسلحة. لقد ألقينا القبض على قائد العدو جنباً إلى جنب مع السيارة التي تحمل الأموال، والكمبيوتر المحمول ومعلومات قيِّمة لمخابراتنا. كذلك استولينا على الشاحنات التي تحمل حصص الكتيبة أيضاً والتي من بينها الجوارب.

الجنود أيضاً يمكن لهُم الحصول على الكثير عندما يكونوا منتصرين، ويُسمح لهُم بالحفاظ على الغنائم الصغيرة مثل الزي العسكري، والمصروفات النثريَّة، والأحذيَّة، والساعات، وحتى العطور. لكن المكاسب الكبيرة لا بُدَّ من أن تسلم إلى الحركة. وتعتمد الحركة على ما يقرُب من ٩٠٪ من احتياجاتها العسكريَّة على الحكومة.

الحركة تستخدم في الحرب تكتيكها الهجومي الشهير، والذي يكون على شكل حرف "L" إذ يتكاثف النار على العدو من جانبين. نحن نهتم بالتنسيق الدقيق في هذه العمليَّة وهو عنصر أساسي لتنفيذ الإستراتيجيَّة وضمان قوَّة النيران الكاملة المستمرَّة ضد العدو، مع تجنب خطر النيران الصديقة. هذه الإستراتيجيَّة تسمح للحركة باستخدام كامل قوَّتها لمواجهة العدو. هذه الميزة لا تنطبق على إستراتيجيَّة القوَّات المسلحة التي تعتمد على إستراتيجيَّة المُربَّع التي تحمي قادتهم. ذلك على عكس حال قادة الحركة، الذين هُم على استعداد للتخلي عن سلامتهم. إنهم لا يختبئون في وسط الميدان. وبالإضافة إلى هذه

التشكيلة فإن الحركة تبقي دائما قوَّة احتياطيَّة في مكان قريب. هذه القوَّة يتم الاحتفاظ بها للتدخُّل إذا لزم الأمر.

لقد حققت الحركة منذ بداية الصراع قوَّة هجوميَّة هائلة لا يمكن أن تجاريها القوَّات المسلحة فيها والتي تدرك جيداً أن الحركة لديها خبرة قليلة في العمل كقوة دفاعيَّة. في الواقع، يمكن للقوَّات المسلحة أن تباهي ببعض التفوُّق في هذا الصدد، ومع ذلك التفوُّق لا تستطيع أن تستخدم خطتنا الدفاعية. الشيء الآخر أن قوَّاتنا لا تمكث في مكان واحد بأن يكون لها معسكر كما تفعل القوَّات المسلحة التي تحصن معسكراتها فنحن نفضل أن نكون على استعداد للهجوم.

جمع الاستخبارات أمر لا غنى عنه في تكتيكات الحرب وهنا أيضاً تتفوق الحركة مقارنة مع عدوها. ففي أي لحظة تستطيع الحركة معرفة كل التفاصيل عن القوَّات المسلحة السودانيَّة المتحرِّكة إلى مناطق القتال، حجمها، وخططها، واستعدادها للمواجهة.

بسبب المعاملة المُروِّعة للمواطنين، تحوَّلوا كلهم إلى أعداء للقوَّات المسلحة، وحوَّلت كل فردٍ تقريباً جاسوساً لصالح الحركة. ففي اللحظة التي تهم القوَّات المسلحة بالتحرُّك من المدينة، يمدُّنا المتعاطفون معنا بالمعلومات طواعية، ويُخبروننا عن عدد السيَّارات والقوَّات والإمدادات. أولئك المتعاطفون لا يحتاجون إلى أكثر من الاتصال بنا تلفونياً في ظِلِّ ظروف توفر الاتصالات الحديثة، إنهم يستطيعون توفير المعلومات لأي شخص في أي مكان، في السُّودان أو في الخارج، وخلال ساعاتٍ تصبح المعلومات موضوعاً ساخناً للبحث تحت الأشجار التي تقيم فيها قوَّات الحركة.

نمط تنقل القوَّات المسلحة يعيق تحقيق أهدافهم أيضاً، فالساحة التي يقومون بتغطيتها دائماً واسعة جداً، ومع ذلك يتحرَّكون في الفضاء ببُطءٍ شديد. إنهم بحاجة أيضاً إلى

مروحيَّات يسترشدون بها، والتي يمكن بسهولة رصدها من قبل الحركة. والشيء الأسوأ بالنسبة لهم أن أهل الريف لا يريدون أن تدخل قوَّات الحركة في كمين، وبالتالي يتسللون إلى أماكن تواجُد قوَّاتنا بالحمير والجمال وسيراً على الأقدام لتحذيرنا من تحرُّكات العدو، والأشياء المشبوهة في المنطقة. هذه المعلومات تعطينا وقتاً كافياً للتفكير حول إمكانيَّة تجنُّب الكمين. أكثر من ذلك، أن هذا التخابُر يعطينا الوقت للإعداد للانخراط في الهجوم بدلاً عن اتخاذ الحيطة الدفاعيَّة. وكل ذلك يتم وفقاً لتقديرات الحركة. وحين نرى أنه لا توجد ضرورة للهجوم، فإننا ننتظر إلى وقت ومكان أكثر ملائمة.

قوَّات الحركة دائماً على استعداد للتحرُّك بسرعة ولا يوجد لديها مكان ثابت في الأرض. وفلسفتها ترى أن الصحراء بأسرها ملكها، وليس فقط شجرة معيَّنة واحدة أو بعض التلال هنا وهناك. وقبل بضع سنوات استخدمت القوَّات المسلحة الدبَّابات في معاركها ضدنا. في البداية، سبَّبت لقوَّاتنا بعض الفوضى والهلع. ونحن - كما تعلم - ليس لدينا دبَّابات ولم نتدرَّب عليها لاستخدامها، فهي مشكلة في الصحراء. إنها بطيئة، وتمتص الكثير من الوقود وليس لدينا الخبرة اللازمة لصيانتها وتشغيلها. وقبل كل شيء، فهي تتعارض مع حركتنا السريعة المستمرَّة. ومرَّ وقت قليل حتى تغلبنا على هذه المشكلة. فقد كانت لدينا أسلحة مضادة للدبَّابات ودرَّبنا جنودنا على كيفيَّة استخدامها بكفاءة. الآن الدبَّابات لا تسبِّب عناء بالنسبة لنا. فلدينا أسلحة لاختراقها، وهي ليست أكثر من مجرَّد مصدر إزعاج، وعندما نغتنم واحدة منها بشكلٍ سليم، فإننا نبيعها إلى البلدان المجاورة بدلاً من الاحتفاظ بها.

نحن مدرَّبون على اختراق ساحات العدو ليلاً ونهاراً. ويحرس كل جناح في مُربَّع نحو ستة إلى عشرة جنود من الفِرَق المتمركزة حول ١٠ إلى ١٥ متراً، إذ أن عضواً واحداً من كل فرقة يجب أن يكون حارساً في الليل. نحن يمكننا التسلل

في المُربَّع ليلاً، وخاصة إذا كان الحارس غافلاً أو نائماً. ويمكن للمتسلل أن يغافل الحرس ويتخلص منه بسهولة. وهو أيضاً يمكن أن يستخدم القنبلة الموقوتة في مخزن ذخيرة للعدو. هذا الأمر يتطلب الكثير، وأهم شيء هو سلامة المتسلل. فجنود العدو يتركون دائماً مربَّعهم لأغراض المرحاض، حتى أن المتسلل وسطهم من جنودنا يمكن أن يدَّعي أنه واحد من هؤلاء الخارجين لقضاء الحاجة. يجب أن أقول إننا نادراً ما نحتاج لوضع هذه المعرفة موضع التطبيق، ولكن جنودنا مدرَّبون على القيام بذلك إذا لزم الأمر. التفاصيل الدقيقة لما هو داخل المُربَّع معروفة بالنسبة لنا، وأنه من الغباء التضحية بجُندي في عمل مثل هذا، هو محفوفٌ بالمخاطر.

في بعض الأحيان، الحركة لديها إستراتيجيَّات لتوظيف كمين العصابات، وفي مثل هذه الحالة تعوِّل الحركة على التضاريس. فالفكرة هي أنه عندما يمُرَّ جُندُ العدو بممرٍ ضيِّق، يكمُن لهُم جنودنا من الجانبين، قبل أو بعد لحظاتٍ المرور الضيق.

مأزق جنرالات القوَّات المسلحة:

لقد كنت ضابطاً في الجيش مع القوَّات المسلحة السودانيَّة. وأنا أعلم ما لديهم من خبرة قتاليَّة، والمعضلات، وأسباب الخوف التي يواجهونها عندما يواجهون جنود الحركة. فالحقيقة أن جنرالات القوَّات المسلحة السودانيَّة يعرفون تكتيكاتنا عن ظهر قلب، ودرسوها بشكلٍ جيِّد جداً. إنهم يريدون تغيير إستراتيجيَّتهم ولكن ليست لهُم القدرة والخبرة على القيام بذلك. فجنرالات القوَّات المسلحة السودانيَّة لديهم خبرة قتاليَّة قليلة جداً. ومعظمهم ترقى من ملازم إلى رتبة جنرال من خلال تجربة ثلاث أو أربع معارك. ولا تزال معرفتهم مرتبطة بما درسوه في الأكاديميَّة العسكريَّة والدورات التدريبيَّة المترفة التي يسافرون إليها، في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكيَّة، ولكن يستخدمون القليل من التجربة للقتال في صحراء السُّودان.

قارن تلك التجربة بتجربة أي قائد في صفوفنا أو بتجربة أي جندي في الحركة، والذي قاد عشرات المعارك في سنة واحدة. صحيح أن الإنسان يتحرَّك بالعادة وقادة القوَّات المسلحة السودانيَّة قد يُفضِّلون في الواقع عادة الحرص على إستراتيجيَّة المُربَّع، وهو التكتيك الوحيد الذي أمكن لهم معرفته وممارسته. ومع ذلك، هناك سببٌ آخر يمنعهم من تبني تكتيكات الحركة، وتحديداً ضرورة السلامة المفترضة لمُربَّعه، ذلك خلافاً لنمط الحركة في القتال. فقائدنا يجب أن يكون في جزءٍ من جبهة القتال، من دون أن يكون حوله أسطول من الحُرَّاس. وهذا الوضع يتنافى مع الهيكل الهرمي للقوَّات المسلحة السودانيَّة. في جيش الحركة ينحدر القائد وجنوده من نفس الطبقة الاجتماعيَّة أو المجموعة العرقيَّة. في القوَّات المسلحة السودانيَّة تنحدر نُخبة الجيش من منطقة نهر النيل المفضَّلة بينما ينحدر الجنود الذين يُشكِّلون الحماية لهذه النُخبة من الهامش. ببساطة اتخاذ تكتيكات الحركة يمثل مخاطرة كبيرة جداً لجنرالات القوَّات المسلحة السودانيَّة.

إستراتيجيَّة المُربَّع التي اعتمدتها القوَّات المسلحة السودانيَّة من التكتيكات القديمة، وغير فاعلة في القتال. لأنها تعتمد على المُشاة. وجنود المُشاة صاروا بلا أثر في الحروب الحديثة. فالقوَّات المسلحة تتركهم يقاتلون عبر أربعة أجنحة، مدافعين عن أنفسهم في القتال. وفي حالة الهزيمة، يهرب جنود آخرون مع الجنرال ويتركون المُشاة خلفهم. عندما نأسر المُشاة فإنهم يمثلون معضلة هائلة لجيش الحركة. كما أن القوَّات المسلحة السودانيَّة تستغني عنهم تماماً، وتتركهم لمصيرهم. فهُم لا قيمة لهُم كأسرى لدى الحركة، وحكومة الخرطوم كثيراً ما تُنكِر انتماءهم إلى القوَّات المسلحة السودانيَّة، ذلك لأنهم ينحدرون من أجزاءٍ مُهمَّشة في البلاد، وغالباً ما يكتشف المأسورون بعض أقارب لهُم بين جنود الحركة الذين قاتلوا ضدَّهم قبل ساعاتٍ فقط قبل القبض عليهم.

سجن هؤلاء يصبح غير مستقر، ويصعُب فصله عن حركتنا المستمرَّة، ما يجعل الأمور أسوأ.. إن بعضاً من هؤلاء المأسورين يخشون العقاب في حال عودتهم للقوَّات المسلحة التي تصفهم بالجُبن، لمجرَّد أنهم لم يقاتلوا حتى الموت. ولكن بعضهم يقرِّرون الانضمام إلى الحركة على الفور. وإذا لم ينجحوا في مسعاهم، فإن الحركة تُفرجُ عنهم، وربَّما تدفع مقابلاً مادياً لهُم يعينهم للوصول إلى ذويهم.

ما كان على القوَّات المسلحة السودانيَّة أن تعي ضعف إستراتيجيَّة استخدام "المُربَّع" في القتال. وفي أي وقت من الأوقات، يمكن لجناح واحد فقط من "المُربَّع" أن يكون فاعلاً إذا أمكن له تفادي الضَّرر من النيران الصديقة. ذلك يقلل ٢٥٪ من قوَّة إطلاقهم النار، وذلك لا يشمل مدفعيَّتهم الثقيلة المنبثقة من وسط المُربَّع نفسه. فالمدفعيَّة الثقيلة لا تكون فاعلة إلا لدقائق قليلة، نسبة لمدى الرؤية وقُرب جُنودنا في المسافة القريبة الفاصلة. وعندما تقترب قوَّات العدو من جيش الحركة فإن جنودهم يكونون بين أنفسهم وهدفهم، وبالتالي فإن القوَّات المسلحة السودانيَّة لا يمكنها استخدام المدفعيَّة الثقيلة دون المخاطرة بمقتل جنودها أنفسهم. هذا الخلل هو أساسي لجميع تشكيلات المُربَّع.

لا ننكر أن إستراتيجية "المربع" فاعلة لتكتيكات دفاعيَّة ثابتة، فكتيبة ما يمكن أن تشغل مساحة وتقيم بعض الخنادق ولكن هذا نادراً ما يحقق النصر في الحرب. الأسوأ من ذلك فإن الكتيبة المتخندقة يمكن بسهولة أن تقطع عنها كل خطوط الإمداد، وتصبح بالتالي معزولة تماماً.

في تضاريس الصحراء، يمكن أن تكون المياه مشكلة بالنسبة لتجديد الإمدادات. وفي كلتا الحالتين، فمن غير المُجدي لكتيبةٍ تحصين نفسها في مساحة صغيرة، في حين أنها تواجه خصماً ليس لديه الرغبة في احتلال الأراضي الصغيرة. الأحمق

فقط هو الذي يحتل بضعة كيلومترات في وسط الصحراء ليتفوَّق في الدفاع عنها.

الخلاصة

هذا الكتاب لم يكُن ليُعنى فقط بديناميكيَّات الساحة الحربيَّة، وأمرُ الخائضين فيها. ولكن فكرته تتماشى مع استنتاجات كل محللي الحرب تقريباً. فالجُندي بوصفه العُنصُر المهم في ساحة الحرب ليس هو نتاجٌ لتدريبٍ في ميدان المعركة، أو ما حولها فقط. فهو على الأرجح نتاج علاقة اجتماعيَّة بين الجماعات والقوى المتنافسة، والمصالح المتضاربة. هذا هو ما بدا لي بشكلٍ مُذهل من خلال سردٌ لرهطٍ من القادة العسكريين، الذين قابلتهم لتضمين رؤاهم في هذا الكتاب.

إن النُخبة الحاكمة السودانيَّة تعاني، حقا، فقراً في القراءة. وعلى الرغم من هذا، آمل وقوفهم على فحوى هذا الكتاب بشكلٍ أو آخر، وما قاله أولئك القادة. فالناس لا يولدون متمرِّدين. إنهم لا ينبعون من الأرض سواء. فبدلاً من ذلك، إنهم ينشأون من خلال الظلم، والقهر، وعدم اللعب النظيف! فكل قادة الحركة الذين تحدَّثوا بصراحة في هذا الكتاب، يشهدون على هذه الحقيقة الأساسيَّة. بل إنهم جميعاً تمظهروا كمواطنين يحترمون القانون، وعلى استعدادٍ للتعاون مع النخبة الحاكمة، والتوفيق بين وجهات نظرهم المعارضة داخل النظام. ومع ذلك، فإن استمرار أوضاع الظلم، والطريقة الوحشيَّة التي يتم بها كبتُ الآراء المخالفة، واتخاذ إجراءات فظَّة بشأنها، لا يُخلِّفان سوى خياراً واحداً، بأن تُصبِحَ متمرِّداً، وتحمل مِن ثمَّ السلاح ضد نظام الظلم.

في كثير من الأحيان، فإن الباحثين الاجتماعيين يعالجون رؤى المقابلات التي يُجرونها مع الناس لضرورات البحث بأنها غير متماسكة، وغير دقيقة في أطروحاتها. وبالتالي، فإنهم بحاجة إلى عالِمَ اجتماعٍ يمكن أن يترجم صوتهم، وتقنينه، وجعله متماسكاً في المعنى والمفهوم. عندما ترد كلمات الناس حرفياً، فإنها غالباً لا تكون أكثر من بوح قليل يصلح لأن يتم الاستطراد فيه بأكثر من فقرة كاملة.

ففي الآونة الأخيرة، شهدنا التقدُّم في مجال الأبحاث الإثنوغرافيَّة، وارتفاع شعبيَّتها، ما جعل هناك وصلاً مباشراً بين القارئ والذين تتم مقابلتهم من غمار الناس. وهذا العمل يفضح أسطورة الوفاء الذاتي الذي يُولِّد فجوة كاذبة بين عالم الاجتماع ومن يقابلهم.

وكما يبدو هذا الأمر في الكتاب، فإن القادة الذين قابلناهم هُم بحاجة إلى مشاركة الباحث همومهم حتى تتجسَّد رُؤاهم بينه وبين قُرَّائه. هذا هو الواقع المناقض للعديد من رؤى المخبرين الذين نجعلهم صامتين بقصد في أبحاثنا، ولا نكشف عنهم.

لقد قال الباحث السُّوداني البارز "فرانسيس دينق" ذات مرَّة: **«ما يفرِّق بيننا في السودان هو ليس ما نتحدث عنه.. إنه بحق ما لم نتحدَّث عنه.. والذي لا نتحدَّث عنه هو في الواقع من المحرَّمات التي قد تخنق الجدل، أو تمنع المناقشة البناءة لماضي، وحاضر، ومستقبل السُّودان»**.

أصداء بيان "دينق" ظلت تعبِّر لأكثر من نصف قرن مضى عن الظلم الذي ورد في قولٍ سابق للدكتور "مارتن لوثر كينج"، فهذا الداعية السِّلمي قال يوماً: **«إن الظلم هو كالدمامل التي لا يمكن أبدا أن تُشفى ما دام أننا نتستَّر عليها، ولكن يجب فتحها بكل قُبحها لتجد الهواء والضوء ومن ثمَّ يتيسَّر العلاج.. وهكذا يجب أن يكون الأمر مع الظلم»**.

الواقع أن هذا الكتاب يتناغم مع تعاليم دكتور فرانسيس دينق، ودكتور مارتن لوثر كينج، وما يدعوان له. ومع ذلك، فقد حان الوقت لمواجهة هذه القضايا وجهاً لوجهٍ، وتحمُّل التوتر الذي قد يفضحنا آن محاولة العلاج.

في ناحية أخرى، لا بُدَّ لي هنا من الاعتذار للدكتور "كينج" لذكر اسمه في هذا العمل. فبينما أنا متمسِّكٌ بطريقته في فضح الظلم، ولكن هذا النوع من الجَّهد الذي بذلته في هذا الكتاب، هو على خلافٍ مع فلسفة الدكتور "كينج". فهو ينهض كواحدٍ من أعمدة الثورة السلميَّة على قدم المساواة مع المهاتما غاندي، وفلسفتهما أثرت في أجيال بعد بدء ثورتهما.

في الوقت الراهن، يتم الاحتفال بمأثرتهما السلميَّة بواسطة "جين شارب"، وهو نفسه زعيمٌ عالمي يعمل من أجل التغيير السلمي، وفي عمله يجادل "شارب" بأن السُّلطة ليست متأصِّلة بواسطة الدكتاتوريات، والدول، ولكن تولدت من خلال الإذعان لأوضاع الدول الظالمة. وبالتالي فإن النظام يمكن الإطاحة به حال سحب هذا الإذعان دون اللجوء إلى العنف.

إن "شارب" يصف نحو ١٩٨ من الأساليب التي تساعد في إحداث التغيير. وتتراوح هذه الأساليب بين الكتابة على الجُدران، إلى المُظاهرات، وإضرابات العاملين في المُؤسَّسات الصناعيَّة. وفي أطروحة "شارب" نجد أن أولئك الذين يسعون إلى وسائل العُنف لإحداث التغيير يرتكبون خطيئة كُبرى بمهاجمة عدوهم، إذ هو أقوى، ويملك الجيش، وينتهون إلى إراقة كميات هائلة من الدماء، ويجلبون صنوفاً من المُعاناة البشريَّة. وقد أعطى ما سُمِّي بـ"الربيع العربي" "شارب" وأنصاره دفعة هائلة لحُجَّتهم، وكثيرٌ منهم قد رأى في ذلك الربيع دليلاً على صحَّة الأطروحة السلميَّة. وفي وقت كتابة هذه المذكرات، نجحت تونس، ومصر، وليبيا، في تحقيق الديمقراطيَّة. أما الطاغية

اليمني والسوري فيُكافحان من أجل البقاء في السُّلطة، ولكن بالتأكيد سوف يلقيان نفس مصير بن علي، ومبارك، والقذافي.

بالفعل فقد ادَّعى أنصار "شارب" أن لهُم الفضل في الصراعات الناجحة في العالم العربي، وكذلك ادَّعوا سابقاً أن لرؤيتهم السلميَّة الأثر الكبير فيما يتعلق بانهيار المعسكر الشيوعي في ١٩٩٠. وبينما أنا أؤيِّد تماماً التغيير السلمي في العالم العربي، أسارع إلى القول أن مثل هذا التغيير يعتمد على الكثير من العوامل الخارجيَّة التي تقع خارج سيطرة الجهات المعنيَّة، والتي لا يمكن تكرارها بالإرادة. وعلى سبيل المثال، فإن العوامل التي شكَّلت قوَّة دافعة للتغيير في تونس تشمل ويكيليكس، يوتيوب، فيسبوك، الهواتف المحمولة، الكاميرا المُجهَّزة، أجهزة التلفاز الدوليَّة، وموقف أوباما المساند. بيد أن الطبيعة العفوية لثورات الربيع العربي، إلى جانب الغياب الكامل للقيادة يجعل من الصعب مضاهاة هذه الإستراتيجيَّة.

غير أنه لا بُدَّ لنا أن نتذكر بأن أوروبا كانت لديها انتفاضاتٍ ناجحة في أربعينات القرن الثامن عشر، ولكن كان عليها أن تنتظر حتى العام ١٩٩٠ لترى التجربة الناجحة للثورات ضد الديكتاتوريات المماثلة. ويجب على أولئك الذين يُقدِّمون المشورة للمُهمَّشين في السُّودان لمحاكاة التجربتين التونسيَّة والمصريَّة أخذ هذا بعين الاعتبار. ويجب أن يلاحظوا أيضاً أن الثورة الليبيَّة نجحت فقط بسبب التدخُّل الخارجي "العنيف".

في نواح كثيرة، حاول السُّودانيون تنظيم ثورات سلميَّة ضد الحكومة الحاليَّة عدَّة مرَّات، ولكن دون جدوى. وعندما نتحدَّث عن النُخبة الحاكمة في السُّودان، يجب أن نكون على بيِّنة من مخاطر تعميم لا مبرِّر له. ففي حين أن النخبة الحاكمة التي أفرزت هذا الظلم تُعَدُّ حفنة من الجماعات العرقيَّة، فإن المسار الذي اتبعته لم يكن متفقاً عليه من جميع الذين يشاركونها الانتماء العرقي أو الإقليمي. بمعنى أنه ليس جميع

المتحدِّرين من المنطقة الشماليَّة هُم المتسلطون عنصرياً، أو الداعمون للأنظمة السودانيَّة الظالمة. ففي واقع الأمر، هناك من هُم ينتمون إلى الشمال وقد اتخذوا موقفاً حاسماً ضد النُخبة الحاكمة، وعبَّروا عن معارضتهم الشديدة لطريقة إدارة البلاد.

موقف هؤلاء المعارضين الإيجابي أخضعهُم للمعاملة المُروِّعة على أيدي النُخبة الحاكمة، والتي تمثلت في السجن والتعذيب، وفقدان فُرص العمل، وشيطنة أعمالهم ونفيهم من البلاد. لائحة هؤلاء الناشطين، والذين لهُم صلة بالمنطقة الشماليَّة المُهيمِنة، طويلة جداً، ولا يمكن حصرها. ولكن تشمل حيدر إبراهيم، منصور خالد، الباقر العفيف، كمال الجزولي، صلاح حسن، محمد سليمان، خالد أبوأحمد، فتحي الضَّو، الطيِّب زين العابدين، وغيرهم كثير.

وتتمثل مهمَّة هذا الكتاب في إلقاء الضوء على التكتيكات والاستراتيجيَّات العسكريَّة للحركة، ونجاحها الهائل ضد الحكومة في ساحات القتال. هذا العمل مُلهِمٌ بواسطة قُدُراتٍ فذَّة لجيشٍ تحدَّى القوَّات المسلحة السودانيَّة، والتي تحتل مرتبة أكبرَ الجيوش في أفريقيا. فمنذُ أن بدأنا في جمع البيانات لهذا العمل، أضاف جيش الحركة درجة أخرى لإلهامه في النزال. ففي سبتمبر ٢٠١١، حققت الحركة بنجاحٍ قفزة هائلة في تاريخ الصحراء وأنقذت رئيسها من طرابلس، إذ كانت السُبُل قد تقطَّعت به منذ مايو ٢٠١٠. وتلك العمليَّة غطت ثمانية آلاف وخمسمائة كيلومتر، واجتازت ثلاثة بلدان، ومرَّت بست محطات للحركة، وكلها مدعومة بالكامل، بما في ذلك الرعاية الطبيَّة.

قادة إدارة العمليَّة خططوا أولاً للتهرُّب من حرس الحدود التشاديَّة السودانيَّة المشتركة، الذين انتشروا لالتقاط الدكتور خليل من على الطريق. وفي أوَّل مقابلة له بعد وصوله إلى دارفور، تحدث الدكتور خليل بوضوح لـ Sudan Radio Service قائلاً: **«كنتُ تحت الإقامة الجبريَّة في ليبيا خلال**

الأشهُر الأخيرة من نظام القذافي.. ولقد منعت من التحدُّث إلى وسائل الإعلام، وفرضت قيوداً على الحركة.. وعندما اقتحم المُتمرِّدون الليبيون طرابلس، تآمرت الحكومة السودانيَّة لاختطافي. لقد خططوا للاحتفال بعيد الفطر المبارك، من خلال الفرح بقبضي.. ولكن عندما استولى المتمرِّدون الليبيون على طرابلس، كانت هناك "لعبة القط والفأر" بين السُّودان وعملاء المخابرات من جهة، والحركة من جهة أخرى حول الفندق، إذ كنتُ تحت الإقامة الجبريَّة، وكان كل جانب يحاول القبض عليَّ. ومع ذلك تمكَّنَت قوَّات الحركة من الوصول إلى الفندق قبل المخابرات السودانيَّة. لقد دخلوا الفندق ونقلوني بعيداً. ومن ثمَّ تمَّ تهريبي إلى السُّودان عبر الصحراء.. سافرنا لمدة ثلاثة أسابيع عابرين الصحراء الكُبرى حتى وصلنا بأمان إلى دارفور».

إن قدرة الحركة في هذه العمليَّة لإنقاذ رئيسها صعقت منتقديها. كان مظهر نجاحها الأوَّل في طرابلس وسط قصف حلف شمال الأطلسي، وتدخُّلها في انجامينا، وغزوها الخرطوم عام ٢٠٠٨. فعمليَّاتٍ من هذا العيار تتطلب تنظيماً متطوراً، ونادراً ما تتوفر لحركة تمرُّد أفريقيَّة. وتجدُرُ الإشارة إلى أن الحركة الشعبيَّة قاتلت ما يقرُب من رُبع قرن، ولكنها لم تتجرَّأ أبداً في الاقتراب من العاصمة، الخرطوم.

الحركة التي أثبتت قُدرتها على مواجهة القوَّات المسلحة السودانيَّة لم تعُد قُدراتِها موضوعاً للنقاش. ومع ذلك، يجب أن نترك مجالاً لتحيُّزٍ محتمل في بعض التقارير عن نجاح الحركة. وأنا على استعدادٍ للتخلي عن مصادرها لفترة من الوقت وتجنب المعلومات التي تقدِّمها القوَّات المسلحة السودانيَّة الناطق باسمها الصوارمي، والذي يشار إليه عموماً في بعض الدوائر بأنه "الناكر الرسمي". فاسمه أصبح مرادفاً لـ"صحَّاف بغداد"، وكل أولئك الذين حققوا سمعة سيئة في دفن رُؤوسهم في الرمال، إذ هُم كانوا يُنتجون الأكاذيب التي لا يُصدِّقونها هُم أنفسهم. ولكن

بالتأكيد لا نتخلى عن الشهادة التي أدلى بها كلٌ من "فلينت" و"أليكس دي وال" لتقرير حقيقة سيادة الجماعات المتمرِّدة، وأشارا إلى أن القوَّات المسلحة السودانيَّة فقدت نحو ٣٧ فرداً في أولى معاركها ضد المتمرِّدين من دارفور. وهذا ما لا يستطيع الصوارمي تقريره لوسائل الإعلام.

في الواقع، أن المُقابلات التي أجريتُها مع قادة الحركة، والمنشورة في هذا الكتاب، تكشف بعض حقائق مثيرة لقلق النظام السياسي السُّوداني، والذي لا يختلف كثيراً، بالمُقارنة، عن الأنظمة السابقة. ونظام البشير هو في الحقيقة مجرَّد استمرار لنفس النُظُم الجائرة التي حكمت البلاد. ولذلك أصبحت البلاد مثقلة بالأزمات منذ استقلالها في ١٩٥٦.

فعندما دخل البشير القصر بأمر من معلمه السابق، وعدوه الآن التُرابي، أعلن سياساته التي استهدفت تأمين وحدة السُّودان، والدفاع عنها ضد التدخُّل الأجنبي، وتحقيق العدالة، وخلق الرخاء، وتكافؤ الفرص، وتطبيق القوانين الإسلاميَّة، مع احترام حقوق الأقليَّات غير الإسلاميَّة. ولقد بلع كثير من السُّودانيين هذا الطُعم. فحكومة الإنقاذ الوطني التي استولت على البلاد عبر انقلابٍ ضد حكومة منتخبة شرعياً لم تكُن لتملك فكراً لتنجح به في تحقيق تلك الأهداف. وعلى الرغم من هذا، وجدت الحكومة مقاومة قليلة من المواطنين الذين كانوا يُشكِّكون في مسعاها في حين أنهم ينتظرونها لتفي بوعودها الورديَّة.

حسناً، فالنتيجة الآن واضحة للجميع. إذ فشلت الحكومة تماماً في تحقيق أي وعدٍ. وفقدت البلاد جزئها الجنوبي، والحرب تدور رحاها في دارفور، وكُردُفان، والنيل الأزرق، وقد انهار الاقتصاد، وشملت الظروف القاسية أكثر من ٩٠٪ من السكان. وعلاوة على ذلك، فإن البلاد الآن تعتمد على قوَّات حفظ السلام الأجنبيَّة، بينما اتهم كبار زُعمائها من قبل المحكمة

الجنائيَّة الدوليَّة. ولكن نظام البشير يبدو أنه قد بَرَعَ في جبهة واحدة، هي: تحويل البلاد إلى مصنع ضخم لإعداد المتمرِّدين المسلحين.

ومثلما سردوا الوقائع في الكتاب فإن كُل هؤلاء القادة من الحركة اضطروا مُرغمين إلى اتخاذ السلاح وسيلة ضد الحكومة. وقد يسأل القارئ: لماذا قرَّر هؤلاء المتمرِّدون رفع السلاح ضد النظام؟! ولماذا لم يرفعه هذا العدد الكبير من السودانيين؟! أياً كان الجواب، فقد أنتج النظام بيئة مؤاتية للتمرُّد المسلح. وببساطة، التقطت "حركة العدل والمساواة" القفاز للثورة ضد هذه البيئة ذاتها.

ففي غضون بضع سنوات، نهضت "الحركة" من العدم لتكون لها السُّلطة في تحديد المشهد الجيوسياسي في المنطقة بأسرها. وإلى حدٍ كبير يُعزى هذا النجاح الكبير من "الحركة" إلى قُدرتها على الجمع بين القديم والجديد، وبين التقليديَّة والحداثة. فهيكل جيش الحركة هو حديثٌ بما لا يدع مجالاً للشك، ودعم بتجربة العديد من قادة الحركة الآتين من القوَّات المسلحة السودانيَّة والقوَّات النظاميَّة الأخرى، مثل الشرطة وجهاز الأمن الوطني.. مثلما أن خدمة الجيش الإلزاميَّة جعلت تقريباً كل هاربٍ من المدرسة بارعاً في استخدام الأسلحة الحديثة.

مثلما سمعنا من أكثر من قائدٍ، فإن الحركة تعطي تدريب الجنود أهميَّته القُصوى. ويبدو الأمر كما لو أن الحركة قد اتخذت العبرة من المقاتلين الأوروبيين في القرن السابع عشر، إذ كانوا يعدون الجندي بأنه هو الأصل وليس ضيعة، وهو النهج الذي أدى إلى مفهوم "الحرب غير الدموية" في ذلك الوقت. ويتم تدريب جنود الحركة لإطلاق النار بـ"المليان"، أي على "الهدف" مباشرة. وغالباً ما يسخرون من أندادهم في القوَّات المسلحة السودانيَّة، إذ يتم منح المتدرِّبين مجرَّد خمس رصاصات، اثنان للإحماء، وثلاث لتعلم كيفيَّة التهديف.

والأسوأ بكثير أنه يتم التعامُل مع مُشاة القوَّات المسلحة بنوع من الإهمال، إذ يمكن التخلص منهم واستبدالهم بسهولة كالعلف. وفي مناسبات عديدة أسرت الحركة هؤلاء الجنود وأبدت رغبتها في الإفراج عنهم عن طريق الهلال الأحمر أو الصليب الأحمر ولكن دون جدوى. فالقوَّات المسلحة السودانيَّة ببساطة تتبرَّأ منهم، وتدَّعي أن ليس لديها جنوداً في عداد المفقودين. فهؤلاء الجنود يأتون من المناطق المُهمَّشة، تماماً مثل جنود "الحركة"، ولهذا يمكن بسهولة استبدالهم، من بعد إهمالهم. وبالتالي، يبقى التخلي عنهم أقل إيلاماً من الاعتراف بالهزيمة التي تعاني منها القوَّات المسلحة نفسها.

عناصر الحركة أيضاً تأتي من مناطق مثل كُردُفان ودارفور، وهُم ضليعون في ثقافة البندقيَّة. لا يكاد شاب في هذه المنطقة يصل سنواتٍ مراهقته دون أن يكون قد تأتي له التعامُل مع السلاح. المؤلف نفسه يأتي من هذه المنطقة، وقد وصف خبرته والتراث التقليدي في هذا الصدد. فلا عجب، إذن، أن نصف مجندي القوَّات المسلحة السودانيَّة يأتي أيضاً من إقليمي دارفور وكُردُفان.

من جانب آخر، فإن انتفاضة المهدي الناجحة عام ١٨٨٠ لا تزال تزدهر في تراث وفولكلور غرب السُّودان. ولكن نفوذها في هيكلة جيش الحركة وتكتيكاتها محدودة. فمِن المُمكن القول إن الثورة المهديَّة قد تركت إرثاً هائلاً في البلاد، وهذا نظراً لسبب أن فرداً متديِّنا جمع الأتباع وتحدَّى بهم الإمبراطوريات الراسخة، ناهيك عن الحكومات الهشَّة.

هذا هو بالضبط قصَّة "الحركة" التي بدأت مع عددٍ قليل من الأفراد المُلتزمين، ولكن نجحت في أن تصبح المحرِّك للجيوسياسي، والمؤثرة فيه. بخلاف ذلك، استعارت الحركة القليل من إرث المهدي، لا في هيكلة جيشها، ولا في التكتيكات

العسكريَّة، وإنما في تمثيل الجماعات العرقيَّة في الحدود السودانيَّة - التشاديَّة داخل تكويناتها السياسيَّة والعسكريَّة.

والواقع أن الصراعات المسلحة المنتشرة عبر الحدود التشاديَّة السودانيَّة جعلت دارفور في كثير من الأحيان مصدراً غنياً لثقافة الحرب، ولهذا يتحلى العديد من أفراد "الحركة" بالخبرة العمليَّة. وهذا المناخ هو الذي صار مصدر التكتيك الحربي الشهير للحركة المُسمَّى بـ"الأبنص" و"البرشوت".

فـ"الأبنص" يشير إلى الدَّفع باتجاه كتيبة العدو لإصابة قلب مركزها وثقلها. وقادة "الحركة" كانوا يعتقدون في ما يُسمَّى بنظريَّة "البندول"، إذ فيها يمثل وسط المُربَّع النقطة الحاسمة التي تحدِّد تحوُّل المعركة لصالح طرفٍ أو آخر.

وتدمير مركز القيادة في وسط مُربَّع العدو يقلب التوازُن دائماً لصالح "الحركة". وفي حين أن "الحركة" لا تزال تعمل بتكتيك "الأبنص" منذ فترة طويلة فإن نظرية "البندول" لا تزال محل شكٍ في دراسات الحرب. فنظريَّة "البندول" تتوقف على وجود نقطة حاسمة مهيمنة لتحديد مصير المعركة. ومع ذلك فإن الحفاظ على احتياطي جاهز، وهو الأمر الذي يُعَدُّ مُفضَّلاً بواسطة جيش "الحركة"، يستطيع أن يعوِّض عن تدمير المُربَّع، وتحويل الهزيمة إلى نصر.

اقتحام القيادة المركزيَّة في وسط ساحة العدو أيضاً يمكن أن يأخذ مكانه بطريقة مختلفة. فمثلما أرانا القائد "أرباب"، فإن الحركة لفتت انتباه من يدربون جنودها لهذا الأمر. ويُسمَّى هذا الأسلوب "إستراتيجيَّة لوتس"، وكان الفيتناميون قد تفننوا فيها أثناء حربهم ضد الولايات المتحدة الأمريكيَّة. ولُبُّ هذه الإستراتيجية، هي التسلل إلى مُربَّع العدو خلسة، وخلق الفوضى في جانبه، وذلك من خلال تدمير قيادته المركزيَّة.

هناك القليل من الأدلة على أن "الحركة" قد استخدمت هذا التكتيك في الماضي. أما اتخاذ حيلة "البرشوت" فهي فريدة

في نوعها للحركة (ولـ"حركة تحرير السُّودان" أيضاً). فاعتماد خطة "البرشوت" يشير إلى تغيير سريع في تشكيل حركة المركبات جنباً إلى جنب أثناء عمليَّة مواجهة العدو. ويُشارُ إلى هذا الأسلوب أيضاً باسم "فتح"، وهو أن السيَّارات المهاجمة تسرع في اتجاهها الهجومي ومن ثمَّ تعيد التشكُّل على جانبي المعركة. فالعمليَّة تتحدَّى المشورة النابليونيَّة للحروب الأوروبيَّة الحديثة، في تجنب أجنحة الخط الأمامي للعدو. والميزة الأكبر لهذا الأسلوب، هي السماح باستخدام أقصى القوَّة لضرب العدو، وذلك ما يضطره إلى التخلي عن مواقعه، والهروب من قاذفات المدفعيَّة الثقيلة أو الثابتة.

"الأبنص" و"البرشوت" على حدٍ سواء يتم توظيفهما فقط لطبيعة جيش الحركة المتساوية، ومثل القائد العسكري هانيبال، وإلى حدٍ ما نابليون، فإن قادة الحركة يقومون بقيادة الجيش في ساحة المعركة بشكل لم يسبق له مثيل.

فالسيرُ قُدُماً نحو إنجاز خطة "البرشوت"، مع التحرُّك السريع والاستخدام الهائل لقوَّة الحركة هو ما أدَّى إلى وصف قتالها بالحرب الخاطفة. حسناً، لا ينبغي أن نتحوَّل بعيداً عن الحرب الخاطفة في وقتٍ تفتقر فيه الحركة إلى الدبَّابات الألمانيَّة والقوَّة الجويَّة. ومع ذلك، فإن جيش الحركة يتجاوز بمراحل نظيره الألماني في سرعة القتال. وحسب علمي ليس هناك معركة ألمانيَّة قد كسبت في الحرب العالمية الثانية في أقل من نصف ساعة، أما بالنسبة لجيش الحركة فهذا من إنجازاته المتكرِّرة، وأتحدَّى من يُشكِّك في هذه الحقيقة.

ولا ننسى أننا وجدنا في الحركة استخدام فرقة السيارات، وهي أصغر وحدة في جيش الحركة، والفرقة شكَّلت التحاماً عبقرياً للحديث مع التقليدي. ومن خلال توظيف المؤسَّسة الدارفوريَّة لـ"الضرا" (حيث تلتقي الجماعة لتناول الأكل)، تبقى الفرقة كمجموعة شراكة متماسكة أقرب إلى الأسرة الممتدَّة الجذور. ومثلما أن في "الضرا" أعضاء يلزمون أنفسهم أخلاقياً

بدعم بعضهم بعضاً، فإن واجب الفرد في فرقة السيَّارات أن يُضحِّي بحياته، إذا لزم الأمر، دفاعاً عن الآخرين. ويمنح رئيس فرقة السيَّارات الوضع التقليدي الذي يجده رئيس "الضرا"، وهو مقامٌ يضعه في مصاف القائد البارز للمجموعة، والتي تتساوى في حقوقها ولا يميِّزها الزي أو الرُتبة.

لقد ارتدى جيش المهدي الزي التقليدي ذي النشأة المحليَّة، وصارت "الجبة" المزخرفة بمختلف بقع الألوان تدُلُّ على هُويَّة الأنصاري. ولكنها ترمُزُ أكثر من ذلك بكثير إلى "نذر الفقر"، وهو عنصرٌ مُهم في فلسفة الصوفيَّة الأنصاريَّة في الفرار من العالم الدنيوي لصالح الواحد الأحد الأعلى. والواقع، ليس هناك أي تشابُهٍ بين أنصار المهدي وأنصار "حركة العدل والمساواة"، الذين يرتدون القمصان الحديثة، والبنطال، والأحذية، والأحزمة الأوروبيَّة. ومع ذلك، فإن أعضاء الحركة يرتدون "الكدمول"، وهو عمامة الطوارق التي تغطي جميع أنحاء الرأس والوجه. و"الكدمول" كذلك هو زي متعدِّد الاستعمالات، يمكن استخدامه كمنشفة، وكفن، وبطانيَّة، أو منديل، وغيرها من الاستعمالات. و"الكدمول" غريب على الخُرطوميين، وكذلك الأوروبيين على حدٍ سواء. ولكنه أصبح العلامة المميِّزة لـ"الحركة" وغيرها من قوَّات غرب السُّودان.

والمثير للدهشة أن "الكدمول" رداءٌ غريب أيضاً على حُلفاء "الحركة" في جنوب كُردُفان، وولاية النيل الأزرق، وشرق السُّودان، وشمال السُّودان. واستخدام هذا الزي يُسلط الضوء على تفرُّد غرب السُّودان والروابط التاريخيَّة الذي جمعته مع أفريقيا جنوب الصحراء الكُبرى. وهذا الارتباط يتناقض بشكلٍ حاد جداً مع زعم السُّودانيين النيليين، الذين يُفضِّلون ربط هُويَّتهم بثقافات الشرق الأوسط.

لا يمكن إنكار أن للخرطوم جيشاً قوياً ويُعَدُّ من بين الأكبر في أفريقيا. وكان حلف شمال الأطلسي، حتى قبل أن

يتنازَلَ للخرطوم عن مهمَّات تساعد في خلع القذافي عن السُّلطة وتقديم مساعدات للمليشيات التي عملت على إسقاطه.

فالسُّودان وهو هكذا حالة كلاسيكيَّة لدولة فاشلة، والدليل أن تحديث جيشه يتم بتكلفة ضخمة، مع الحفاظ على سكانه الساخطين على مستوى أقرب إلى الكفاف. فالسُّلطة ما تزال تفتخر بالجيش كمؤسَّسة قوميَّة، بل ويتم تمظهُر القوَّات المسلحة السودانيَّة في الواقع بأنها مؤسَّسة وطنيَّة لكُلِّ المجندين القادمين من كُلِّ رُكنٍ من أركان السُّودان. ومع ذلك، تتناقض هذه الحقيقة من خلال التسلسُل الهرمي للقوَّات المسلحة. فمجموعات النُخبة المتحدِّرة من نهر النيل تسيطر على الرُتب العُليا في القوَّات المسلحة السودانيَّة، في حين تبقى المستويات الأدنى من الرتب حكراً على المُهمَّشين في البلاد.

الترقي كذلك في صفوف القوَّات المسلحة السودانيَّة لا علاقة له بخبرة قتاليَّة، أو معرفة حرفة الحرب، وإنما هو نتاجٌ لشبكة معقدة من المحسوبيَّة والاستبداد العرقي. ولتوضيح هذا الأمر، لا يضطر المرء للذهاب إلى أبعد من تحليل وضع "المشير" البشير، الرئيس الحالي للبلاد، ووزيره للدفاع الفريق عبدالرحيم محمد حسين. فالاثنان تبادلا الخبرات القتاليَّة لمعركة حقيقيَّة واحدة فقط (مايوم، ١٩٨٧). والمُدهش أن أي قائد جديد من الحركة يحوز خبرة قتاليَّة بأكثر مِمَّا حاز الاثنان البارزان، ومن جنرالات آخرين كُثُر في تكوين الجيش.

القوَّات المسلحة السودانية أيضاً تعتمد على تشكيلة المُربَّع (القديمة والموثوق بها) في التكتيكات القتاليَّة، بيد أنها أثبتت فشلها في مواجهة الحركة. ولعلَّ القائد "عبدالعزيز عُشر" ذكَّرنا بنسبة الفشل الكارثيَّة لتشكيل المُربَّع. وعلى الرغم من هذا، لا يزال تشكيل المُربَّع الدعامة الأساسيَّة لتكتيكات معارك القوَّات المسلحة السودانيَّة، والتي تضُمُّ فئتين، إذ تتكوَّن الأولى من جنرالات الجيش الذين يأتون من المجموعات الإثنيَّة

المُفضَّلة من السُّودان. وهؤلاء هم "أولاد البلد" ويستحقون حماية إضافيَّة في ذلك المُربَّع، وتتألف الفئة الثانية من جنود المُشاة، وهُم الرجال الذين لا قيمة لهُم لدى السُّلطة، ويمكن التخلص منهم كونهم من مُهمَّشي السُّودان. فهُم أقرب إلى من سمَّاهم "كوتريل" البريطاني في الحرب العالميَّة الأولى "مشاة الفقر الدامي" والقوات المسلحة السودانيَّة تعامِل هؤلاء الجنود الفقراء كما لو أنها يمكن الاستغناء والاستعاضة عنهم بسهولة. وكما حكا "وافي" و"بخيت"، فالتخلي عن هؤلاء الجنود يتم في حال الهزيمة، وتتبرَّأ الحكومة من الأسرى حتى لا يتم تبادُلهم بحسب أنهم أسرى حرب.

وعلمنا أيضا أنه عندما يُقتل المُشاة في المعركة، يبذل جنرالاتهم جهداً بسيطاً لمنحهم تقاليد الدفن اللائق، ولا يهتمون حتى بإبلاغ أسرهم بمصيرهم. ولا عجب، فهؤلاء الجنود يُقدِّمون القليل من الجهد من أجل التفوُّق في ساحة المعركة، وليس لديهم مصلحة في تحقيق أمجاد الحرب. فالفقر يُرغمهم على الانضمام إلى الجيش للبقاء على قيد الحياة ويحملهم على خوض حرب ليست لهُم فيها أي يد.

بالتالي، فالخيار العقلاني الوحيد هو الفرار من ساحة القتال. فهؤلاء الجنود في واقع الأمر يشعرون أنهم أقرب إلى "المتمرِّدين المقاتلين" من قُربهم إلى جنرالات جيشهم، لأنهم جميعاً يأتون من المناطق المُعدَمَة، وبالمثل ينتمون إلى المجموعات العرقيَّة المُهمَّشة.

هناك مجالان يمكن أن تفخر القوَّات المسلحة السودانيَّة بأنها تتفوَّق فيهما على الحركة ولكن لم يستطع أي منهما أن يضمن لها الانتصار. فالقوَّات المسلحة تتفوَّق في عدد المقاتلين، ولكن تقف على قدم المُساواة مع الحركة من حيث التسليح. وفي حرب العصابات لا يمكن أن تطابق الحركة أبداً القوَّات المسلحة في عدد المقاتلين الذين تحت تصرُّفها.

ومع ذلك فإن حرب العصابات لا تحتاج إلى الجيش الكبير كما هو حال الدولة القوميَّة. هناك حجم أمثل لجيش حرب العصابات بحيث يتوافق الحجم مع الإمكانيَّات القتاليَّة للحركة، وبالتالي فمن غير المُجدي للحركة، وحركة تحرير السُّودان، أو أي جيش في حرب العصابات السعي إلى التماثل مع قوة الدولة المسلحة في الأرقام. فالحركة الشعبيَّة آنذاك نفسها عزَّزت رقم مقاتليها أثناء الحرب، وعلى الرغم من هذا، فإن جيشها لم يماثل جيش الخرطوم. والتاريخ لا ينبئنا بأن الانتصار التلقائي في المعركة يتم لمجرَّد وجود التفوُّق العددي. ويوفر لنا هانيبال مثالاً جيداً في هذه الحالة، إذ قال إنه دمَّر الجيش الروماني الذي كان يماثل إمكانيَّات جيشه مرَّتين.

أما بالنسبة لنوعيَّة الأسلحة، فالتاريخ ينبئنا أيضاً أن الجيوش الأكثر عدداً لم تضمن لنفسها الانتصار. ولدينا مثال هانيبال قبل الميلاد، والمهدي عام ١٨٨٠، وشاكو زولو في عام ١٨٧٠، والحرب الفيتناميَّة عام ١٩٧٠. كل هذه الحالات يظهر لنا بوضوح أن الأسلحة لا تجلب النصر في الحروب. فالقادة والجنود المُمتازون وحدهم يفعلون ذلك. وتجربة الحركة تؤكِّد هذا الاستنتاج غير المريح للقوَّات المسلحة السودانيَّة بالطبع. فالجيش الحكومي يملك الكثير من الموارد الهائلة من الموارد بما فيها من وسائل الإعلام، بل كل أجهزة الدولة تحت تصرُّفه، ولديه الغطاء الجوي والدبَّابات والأسلحة المتطوِّرة الأخرى المجلوبة عن طريق الصين، وروسيا، وإيران. على الرغم من هذا فقد كسبت الحركة معظم المعارك التي خاضتها ضد القوَّات المسلحة السودانيَّة، الأمر الذي مكَّنها ذلك من الاستيلاء على إمدادات كبيرة في هذه العمليَّة.

لقد طرأت تطوُّرات هامة منذ أن بدأت جمع بيانات هذا الكتاب. إذ عاد الدكتور خليل إلى دارفور، وفي وقتٍ لاحق قُتِلَ. وللأسف، لم أتمكَّن من الحُصول على ما يكفي من البيانات

التي تشمل وصفاً دقيقاً لعمليَّة إنقاذه المُذهلة من ليبيا، وكذلك التفاصيل الدقيقة لاغتياله لتضمينها في هذا العمل.

في ١١ نوفمبر ٢٠١١، وقعت "حركة العدل والمساواة" على وثيقة لتَحَالُفٍ تاريخي، أصبح يُعرَفُ باسم "اتفاق كاودا" مع الحركة الشعبيَّة - قطاع الشمال، وحركة تحرير السُّودان، جناح عبدالواحد، وحركة تحرير السُّودان جناح ميناوي، وبينما تجد دارفور تمثيلاً كاملاً بحركاتها الثلاثة، فإن الحركة الشعبيَّة - قطاع الشمال، تمثل جنوب كُردُفان بما في ذلك منطقة أبيي، والنيل الأزرق.

بعد أيام من التوقيع على "اتفاق كاودا"، انضمَّت اثنتان من المنظمات الهامَّة الأخرى، هُما مؤتمر البجا من الشرق وكوش من الشمال. فالبشير لم يكن محاصراً من قبل مثلما حاله هذه المرَّة. و"المتمرِّدون" الآن يغلقون الدائرة من حوله من كُلِّ اتجاه وما يزيده إيلاماً أن كوش تدافع عن حقوق أهل الشمال.

عودة إلى "جين شارب"، الداعية السِّلمي، فإنه يجب أن يفرح لوجود هذا التحالف الساعي إلى التغيير، ولكن يبقى فرح "شارب" بالضرورة مشروطاً حين يتخلى التحالف عن الثورة العنيفة!

وبشكلٍ ما، فطريق "كاودا" هي الأقرب إلى "كلاوزفيتز" من قُربها إلى "شارب".. فشارب يُصِرُّ على أن الدخول في مفاوضاتٍ ناجحة مع الحُكَّام المُستبدِّين يجعلهم قادرين لتقليل مطالب الثوار، والتنازُل عن مبادئهم، وإجبارهم على التواطؤ في تجاوزات حليفهم الجديد، وهو الديكتاتور. ويُلزم "اتفاق كاودا" الموقعين عليه على حكمة جديدة في السياسة السودانيَّة، هي سهلة وبسيطة: **«لا يمكن إعادة هيكلة النظام في السُّودان عن طريق مفاوضاتٍ نتائجها غير مقدَّرة من الحكومة نفسها. ولهذا نقول بالقوَّة يجب الإطاحة بالنظام»**.

Bibliography

Abu Ahmed, Khalid Abdalla 2011
Genius liars: Documented essays on excesses of the Islamic System of Sudan, 1989-2011. Sudanese Documentary Series. (Electronic Arabic Text).

Alier, Abel 1992
Southern Sudan: Too many agreements dishonoured. Paul & Co. Pub.

Al-Tunisi, Mohamed Ibn Omer 2001
My Journey to Wadai. Recompiled by Abdel Bagui Mohamed. Manakib Publishing Company, (in Arabic)

Asad, Talal (ed.) 1973
Anthropology and the colonial encounter. Ithaca Press.

Baylis, John, et al (eds.) 2010
Strategy in the contemporary world: An introduction to strategic studies. Oxford University Press.

Butler, Sue 2009
"Considering "objective" possibilities in autoethnography: A critique of Heewon Chang's

autoethnography as a method”. *The Weekly Qualitative Report*. Volume 251:295-299.

Cawthorne, Nigel 2007
History’s greatest battles. Capella.

Charles, Archduke von Hapsburg 2010
Principles of wars. Translated by Daniel Radakovich. Nimble Books LLC

Che Guevara, Ernesto 1968
Bolivian diary. Introduction by Fidel Castro. Translated by P. Carlos and A. Sinclair. Jonathan Cape.

Cottrell, Leonard 1975
Enemy of Rome. Pan Books.

Cramer Christopher 2006
Civil war is not a stupid thing. Hurst & Company.

El-Gizouli, Kamal 2009
“The erroneous confrontation: The dialectics of law, politics and the prosecution of war crimes in Darfur”. S. Hasan and C. Ray (eds.), *Darfur and the crisis of governance in Sudan*. Cornell University Press. Pp ٢٦١-٢٧٣.

Ellis, C. and Bochner, A. 2006
“Analysing analytic autoethnography”. *Journal of Contemporary Ethnograph*y. Volume 35:4:419-428.

El-Tom, Abdullahi Osman 1985
"Drinking the Koran: The meaning of Koranic verses in Berti erasure". *Africa*, 1985, Vol. 55,4:414-431.

El-Tom, Abdullahi Osman 1987
"Berti Quranic amulets". Journal of Religion in Africa. Vo. 17,3:224-244.

El-Tom, Abdullahi Osman 2003
"The Black Book of Sudan: Imbalance of power and wealth in Sudan. A review". *Journal of African National Affairs*. 2003, Vol2,3:25-35

El-Tom, Abdullahi Osman 2009a
"The Black Book: Imbalance of power and wealth in Sudan". S. Hassan and C. Ray, (eds.), *Darfur and the crisis of governance in Sudan*. Cornell University Press. Pp 406-434.

El-Tom, Abdullahi Osman 2009b
"Darfur people: too black for the Arab project of Sudan". Reprinted in: S. Hasan and C. Ray (eds.), *Darfur and the crisis of governance in Sudan*. Cornell University Press. Pp 84-102.

El-Tom, Abdullahi Osman 2007
Growing up in Darfur, Sudan. Sudanese Studies Centre. Cairo.

El-Tom, Abdullahi Osman 2009c
"The Arab Congregation and the ideology of genocide in Darfur." *Journal of African International Affairs*. Volume 3, No 2:27-51.

El-Tom, Abdullahi Osman 2011
Darfur, JEM and the Khalil Ibrahim Storey. The Red Sea Press.

Evans-Pritchard, E. 1937
Witchcraft, oracles and magic among the Azande. Oxford University Press.

Evans-Pritchard, E. 1941
The Nuer. Clarendon Press.

Featherstone, Donald 1993 (Covered)
Khartoum 1885: General Gordon's last stand. Osprey.

Flint, Julie and de Waal, Alex 2005
Darfur: A short history of a long war. African Arguments.

Fortes, M and Evans-Pritchard 1940
African political systems. Oxford University Press.

Frieser, Karl-Heinz and Greenwood, John 2005
The blitzkrieg legend: The 1940 campaign in the West. Zed Books.

Gallie. W. B. 1978
Philosophies of peace and war. Cambridge University Press.

Gonzalez, Roberto 2009
"Embedded". *Network of Concerned Anthropologists). The Counter-Counter-Insurgency Manual.* Prickly Paradigm Press. Pp 97-114.

Gonzalez, R. et al 2009
"Introduction: War, culture and counterinsurgency". *Network of Concerned Anthropologists. The Counter-Counter-Insurgency Manual*. Prickly Paradigm Press. Pp 1-11.

Greene, Robert 2007
The 33 Strategies of War. Profile Books.

Grifith, Paddy 1981
Forward into battle. Ballantine Books.

Grinker, R. et al (eds.) 2010
Perspectives on Africa: a Reader in culture, history and representation. Wiley-Blackwell.

Gusterson, Hugh 2009
"Militarization Knowledge". *Network of Concerned Anthropologists. The Counter-Counter-Insurgency Manual*. Pp39-58.

Hassan, Salah and Ray, Carina 2006
Darfur and the crisis of governance in Sudan. Cornell University Press.

Ibrahim, Hayder 2004
The fall of the Civilisational Project. Part I. Sudanese Studies Centre. Cairo, (in Arabic).

Ibrahim, Hayder 2010
The sociology of fatwa: Examples of women and Arts. Sudanese Studies Cenre. Cairo, (in Arabic).

Ibrahim, Hayder 2011
Securocracy and the renewal of despotism in Sudan. Al-Hadara Publishing. Cairo, (in Arabic).

Kabeer, Abdel Baqui Mohamed 2001
A Journey to Wadai. Dar Mankube, (in Arabic).

Kapuscinski, Ryszard Covered)
Shah of Shah of Shahs

Khalil, Mansour 2009
“Darfur: A problem within a wider problem”. S. Hasan and C. Ray (eds.), *Darfur and the crisis of governance in Sudan*. Cornell University Press. Pp. ٣٤-٤٢.

Knight, Ian 1995
The anatomy of the Zulu army: From Shaka to Cetshwayo 1812-1879. Greenhill Books.

Kinght, Ian 2001
The Zulu Rising. Pan Books.

Kapuscinski, Ryszard 2006
The Emperor: The downfall of an autocrat. Penguin Books.

Ludeke, Alexander 2010
Weapons of World War II. Parragon Books.

Madut-Arop, Arop 2006
Sudan’s painful road to peace. Book Surge.

Mahnken, Thomas. 2010
"Strategic theory". John Baylis, et al (eds.). *Strategy in the contemporary world: An introduction to strategic studies*. Oxford University Press. Pp 67-82.
Mukhtar, Alafifi, A. 2005

"The crisis of identity in Northern Sudan: A Dilemma of black people with white culture". C. Flueher-Lobban and K. Rhodes (eds.). *Race and Identity in the Nile Valley*. The Red Sea press.

NCA (Network of Concerned Anthropologists) 2009
The Counter-Counterinsurgency Manual. Prickly Paradigm Press.

Nicholl, Fergus 2004
The Mahdi of Sudan and the death of General Gordon. Sutton Publishing.

Nicholl, Fergus 2005
The sword of the prophet: The Mahdi of Sudan and the death of General Gordon. Sutton Publishing.

Nordstrom, Carolyn and Martin, JoAnn 1992
"The culture of conflict: Field reality and theory". Nordstrom, C. and Martin, J. (eds.) *The path to domination, Resistance and terror*. University of California Press. Pp:1-17.

Pathon, Christopher
Winning at war: Seven keys to military victory throughout history.

Rapoport, Anatol (ed.) 1968
Clausewitz on war. Penguin Press.

Sharp, Gene 2010
From dictatorship to democracy: A conceptual framework for liberation. 4th Edition. The Albert Einstein Institution, USA.

Slatin Pasha, R. 1899
Fire and sword in the Sudan. Translated by F. Wingate. The Long Riders'
Guild Press.

Sluka, Jeffery 1992
"The anthropology of conflicts". C. Nordstrom and J. Martin (eds.). *The path to domination, Resistance and terror*. University of California Press. Pp 18-36.

Soanes, Catherine and Stevenson, Angus 2006
Oxford Dictionary of English. Oxford University Press.

Suliman, Mohamed 2000
Sudan: Wars of resources and identity. Cambridge Academic Press, (In Arabic).

Tzu, Sun 2002
The art of war. Translated by Lionel Giles. Dover Publications.

UK Army
British Army Code No. 71451.
Design for military operations- the British Military Doctrine. UK Army Publications.

Willliams, Paul. D. 2011
War and conflict in Africa. Polity Press.

Zin-Abdin, Al-Tayib 2009

"A civil society approach to the Darfur crisis". S. Hasan and C. Ray (eds.), *Darfur and the crisis of governance in Sudan*. Cornell University Press. Pp336-344.

Web Reference

EDC 2011
Khalil Ibrahim was under house arrest in Libya for more than a year. Sudan Radio Service. *Sudanradio.org*. September 13th.

El-Tom, Abdullahi 2007
Alfashir is nearer than Kampala: JEM/NRF Commends New SPLM Stance on Darfur. *Sundantribune.org*. December 7th.

El-Tom, Abdullahi 2009a
Towards a Sudan without a government army. *Sudaneseonline.com*. October 27th.

Capdevila, Gustavo 2004
Darfur 'World's Worst Humanitarian Crisis'. *Ipsnews.net/news.asp?idnews=24027*

JEM Students Centre 2011
Maltreatment of Almazh and his inmate colleagues: A statement. *Sudanjem.com. October 26th*.

MacGinis, Bill 2011
Martin Luther King's letter from the Birmingham City Jail, 1965. *Loveallpeople.org*.

Photious.com 2011
Sudan: The prison system. October 27th.

ST, Sudan Tribune 2011
SPLM-N rebels call for popular uprising in Khartoum. *Sudantribune.com*. December 15th.

Other books by the Author:

٢٠١٧

African Children Stories. Published by Jasmaya Production and Publication, USA:

I. The Magic Forest (25 pages).
II. Mama's Cow (31 pages).
III. The Magic Potion (38 pages).

٢٠١٦

Ethnographies of breastfeeding: Cultural contexts and confrontation. Edited by Tanya Cassidy and Abdullahi El-Tom. Bloomsbury, USA, 2016. Hard Cover Version - ISBN-10: 1474294448 and paper Back version, ISBN-13: 978-1474294447.

٢٠١٥

١. Ethnographies of Breastfeeding: Cultural contexts and confrontation. Edited by Tanya Cassidy and Abdullahi El-Tom. Bloomsbury. USA. 2015 (254 pages).
٢. Growing up in Darfur, Sudan. Second Edition. Jasmaya Production and Publications, USA (249 pages).

٣. The Crooked Merchant of Khartoum. Jasmaya Production and Publications, USA, 2015 (250 pages).

٢٠١٤

Zaghawa aptitude for commerce: Biography of Bushara Suleiman Nour. Red Sea Press. Trenton, USA 2014 (235 pages).

٢٠١٣

١. Study war no more: Military tactics of a Sudanese rebel movement. The Red Sea Press, Trenton, USA 2013 (233 pages).
٢. Darfur, JEM and the Khalil Ibrahim Story. Second Edition of Arabic version. Translated by A. M. Adam. Roueya Publishing Company. ٢٠١٣. (٤٩١ pages).)

٢٠١١

١. Darfur, JEM and the Khalil Ibrahim Story. The Red Sea Press, Trenton, USA. 2011 (353 Pages).
٢. Darfur, JEM and the Khalil Ibrahim Story. Arabic version translated by A. M. Adam. Dar Merit, Cairo, Egypt, 2011 (384; in Arabic).

٢٠٠٧

Growing up in Darfur, Sudan. Sudanese Studies Centre. Cairo. 2007 (230 pages).

٢٠٠٢

Proverbs of western and central Sudan. Joint with A. M. Adam. Sudanese Studies Centre. Cairo. 2002, (230 Pages).

١٩٩٩

Globalization: A critical study. Dar El-Warraq, London. 1999. Joint with A. M. Adam (222 Pages; in Arabic)

فهرس المحتويات